سلسلة المعارف الإسلاميّة



بحوثٌ في الحياة السياسيّة



لأهل البيت عليهم السلام





الإعداد والإخراج الالكتروني
www.almaaref.org

بحوث في

الحياة السياسيّة لأهل البيت عليهم السلام



الإعداد والإخراج الالكتروني
www.almaaref.org

اسم الكتاب: بحوث في الحياة السياسيّة لأهل البيت عليهم السلام
إعداد: مركز نون للتأليف والترجمة
نشر: جمعيّة المعارف الإسلاميّة الثقافيّة
تاريخ الطبع: تمّوز ٢٠١١ م - شعبان ١٤٣٢هـ (ط. أولى)

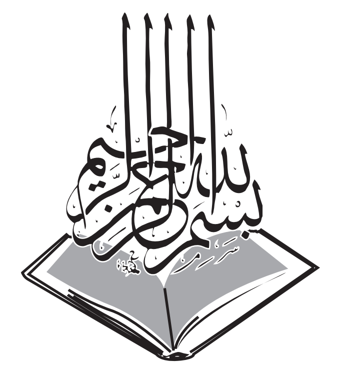
مركز نون للتأليف والترجمة
بيروت - لبنان - المعمورة - الشارع العام
تلفون: 01/471070 فاكس: 01/476142
www.almaaref.org
Email:info@almaaref.org

سلسلة المعارف الإسلاميّة

بحوث في الحياة السياسيّة لأهل البيت عليهم السلام

إعداد
مركز نون للتأليف والترجمة

الإعداد والإخراج الالكتروني
www.almaaref.org


بسم الله الرحمن الرحيم



الفهرس

المقدّمة

الحمد للّه ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الخلق محمّد بن عبد اللّه وعلى آله الطيّبين الطاهرين المنتجبين.

كان الإمــام عليّ بن الحسين السجّاد عليه السلام يقــرأ في كلّ زوال من أيّام شهر شعبــان المباركة دعــاءً جاء فيه: «**اللّهمّ صلّ علـى محمّـد وآل محمّد الفلك الجاريـة في اللُّجج الغامرة، يأمن مـن ركبها، ويغرق من تركها، المتقدّم لهم مارق، والمتأخّر عنهم زاهق، واللازم لهم لاحق**».

لقد زخرت أيّام الأئمّة المعصومين عليهم السلام بالعديد من الأحداث والمناسبات السياسيّة والاجتماعيّـة والثقافيّة والتربويّة، وَضَعت للبشريّة منهجاً وركنا وثيقاً تستنـد عليه. في معالجةٍ قلّ نظيرها تُظهر لنا مدى المنحة الإلهيّة الّتي أعطيت لهؤلاء العظماء عليهم السلام الّذين منهم نستلهم وبهم نقتدي.

واستكمالاً للرحلة الّتي بدأتها جمعيّة المعارف الإسلاميّة الثقافيّة عبر مركز نـون للتأليـف والترجمة، في إعـداد وتأليف سلسلـة المعـارف الإسلاميّة، الّتي أنتجـت ـ بعون اللّه تعالــى ـ قسماً كبيراً منهــا، مترقّيةً في كلّ إنتــاج إلى مستوى جديـدٍ يراعي تطـوّر المتعلّمين ورقيّهم العلميّ والفكـريّ إلى مراحل جديدة في دراستهم للمعارف الإسلامية، والتزاماً بالعهد الّذي أخذته الجمعيّة على عاتقها أمـام اللّه والأمّـة في إيصال الفكر المحمّدي الأصيل إلــى الناس والمجتمع، ها

هـي تستكمل عمليّة تشييد البناء التدريسيّ للعلوم والمعارف الإسلاميّة الأصيلة بإضافـة هـذا السفر الجديد، الّذي جـاء ملائماً للأهداف التعلّميّـة والتعليميّة مصاغاً على شكل دروس تراعي الهدف في الشكل والمضمون.

فبعد أن تمّ إعداد وطباعة دروس من سيرة النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم من كتب السيرة والتاريخ، حان وقت السِفر الثاني، فكان هذا الكتاب الّذي بين يدي القارئ العزيز يُبحر في سيرة أئمّة أهل البيت عليهم السلام، ملتمساً في تفاصيلها الملامح السياسيّة لسيرتهـم العطرة، فـي محاولة لرسم معالم حركتهـم السياسيّة في حياة الأمة الإسلاميّـة، دون أن يغفـل الكتـاب عن أهـمّ المحطّات الاجتماعيّـة، والظروف السياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة المكوّنة للبيئة الّتي عايشها المعصوم والأمّة آنـذاك، لما لهـذا الأمر من أهميّة على صعيد فهم خـطّ الإمامة، على المستوى النظـريّ مـن جهة، وعلى المستـوى العمليّ من جهة أخرى، وذلـك للاستضاءة بهـذا الفهم في مواجهـة الواقع الراهن خصوصاً والأحـداث في ما نستقبل من أيّام وتحوّلات.

نسأل اللّه سبحانه وتعالى بفضله أن يعيننا على إكمال ما بدأناه، فعليه نتوكّل وإليه ننيب، إنّه نِعم المولى ونِعم المجيب.

مركز نون للتأليف والترجمة



الدرس الأوّل

عصر الإمام عليّ عليه السلام



أهداف الدرس:

١. أن يتعرّف الطالب إلى عصر الإمام عليّ عليه السلام .
٢. أن يتبيّن أحداث السقيفة وموقف الإمام عليه السلام منها.
٣. أن يتبيّن كيفيّة مواجهة الإمام عليه السلام للانحراف السياسيّ.

تمهيد

ينقسم عصر الإمام عليّ عليه السلام إلى عهدين متميّزين هما: عهد الخلفاء الثلاثة، وعهد حكومته عليه السلام.

ويبدأ الأوّل منهما بوفاة رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم في الثامن والعشرين من صفر سنة ١١ هجرية وينتهي بمقتل عثمان، ويبدأ الثاني منهما بالبيعة له على الحكم والقيادة المباشرة للدولة والأمّة الإسلاميّة وينتهي باستشهاده عليه السلام.

وعلى الرغم من الجهود العظيمة الّتي بذلها النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في تربية الأمّة وإعداد أفرادها لتحمّل المسؤوليّات، وتأسيسه للدولة الإسلاميّة، إلّا أنّ غيابه صلى الله عليه وآله وسلم ترك فراغاً كبيراً لا سيّما مع وجود خطّ النفاق واستفحاله، كما أنّ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لم يألُ جهداً في تهيئة الأرضية السياسيّة والاجتماعيّة اللازمة للخليفة من بعده، وتأكيده الدائم على الولاية للإمام عليّ عليه السلام بأمرٍ من اللّه تعالى، لكنّ ذلك كلّه لم يمنع من نشوء وظهور عوامل يُخشى معها أن تؤدّي إلى انهيار الدولة الإسلاميّة وضياع الرسالة المطهّرة.

لذلك كان على الإمام عليّ عليه السلام - وهو المؤتمن من اللّه تعالى ورسوله

الكريـم ﷺ - أن يحافظ على كلّ ثمار الرسالة الخاتمـة بما فيها دولة الرسول وأمّته، وصيانة الرسالة والشريعة من أيّ تحريف وتزييف وضياع.

أحداث السقيفة

توفّـي رسول اللّه ﷺ ولم يكـن حوله في اللحظات الأخيـرة من حياته سوى علـيّ عليه السلام وبني هاشم. وقد علم الناس بوفاته من الضجيج والعويل، فأسرعوا وتجمّعوا في المسجد وخارجه، وإذا بموقف غريب يصدر عن عمر بن الخطاب[1] إذ خـرج بعد أن دخل على رسول اللّه ﷺ والسيف في يده يهزّه ويقول: إنّ رجالاً مـن المنافقين يزعمون أنّ رسول اللّه قد مات، إنّه واللّه ما مات ولكنّه ذهب إلى ربّـه كما ذهب موسى بن عمـران[2]. ولم يهدأ عمر حتّى وصـل أبو بكر إلى بيت رسول اللّه ﷺ فكشف عن وجه النبيّ وخرج مسرعاً، وقال: أيّها الناس، من كان يعبد محمّداً فإنّ محمّداً قد مات، ومن كان يعبد اللّه فإنّ اللّه حيّ لا يموت.

وفـي الوقت الّذي كان فيه الإمام عليّ عليه السلام وأهل بيته يقومون بتجهيز النبيّ والصـلاة عليه ودفنه، كانت جماعة مـن الأنصار تجتمع في سقيفة بني ساعدة لتدبيـر أمر الخلافة برئاسة سعد بن عبـادة زعيم الخزرج[3]، وخرج إليهم أبو بكر وعمر ومعهما أبو عبيدة ومن ثمّ لحقهم آخرون.

وانقسم الناس إلى فريقين: الحـزب القرشيّ أو المهاجريـن، والأنصار، وتنازعوا في أمر الخلافة، وكلّ فريق يدّعي بأنّ الأحقيّة له.

وكانت حجّة الحزب القرشيّ في السقيفة ضدّ الأنصار مبنيّة على أمرين:

(١) أمّا أبو بكر فقد كان في السُّنح، والسُّنح: مكان يبعد عن المدينة بميل أو أكثر قليلاً.

(٢) الكامـل فـي التاريـخ، الشيخ عزّ الدّين أبو الحسن علـيّ بن أبي كرم الشيباني المعروف بابـن الأثير:٢/٣٢٣. دار صادر، بيروت، ١٣٨٥ هـ ـ ١٩٦٥ م.

(٣) تاريخ الأمم والملوك المعروف بتاريخ الطبري، محمّد بن جرير، تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم:٢/٢٣٣، دار المعارف، مصر، ط ٢، ١٩٧٦ م.

١. أنّ المهاجرين أوّل الناس إسلاماً.

٢. أنّهم أقرب الناس إلى رسول اللّه ﷺ وأمسّهم به رحماً.

وقد أدان هؤلاء أنفسهم بهذه الحجّة، وذلك لأنّ الخلافة إذا كانت بالسبق إلى الإسلام والقرابة القريبة من رسول اللّه ﷺ ـ كما يدّعون ـ فهي للإمام عليّ عليه السلام وحده، لأنّه أوّل الناس إسلاماً وإيماناً وتصديقاً بالرسالة الإسلاميّة، وأخوه بمقتضى المؤاخاة، وابن عمّه نسباً وأقرب الناس إلى نفسه وقلبه بلا شكّ في ذلك.

أمّا الأنصار فلم يكونوا على رأيٍ واحد، ولم يحضر في هذا اللقاء خيارهم، وهم البدريّون من أمثال: أبي أيوب الأنصاريّ، حذيفة بن اليمان، عبادة بن الصامت.

ونقل عن الإمام عليّ عليه السلام أنّه قال في شأن الخلافة: «**واعجباً أتكون الخلافة بالصحابة، ولا تكون بالصحابة والقرابة**»، ويروى عنه عليه السلام شعر في هذا المعنى:

فإن كنت بالشورى ملكت أمورهم ... فكيف بهذا والمشيرون غُيَّبُ

وإن كنت بالقُربى حججت خصيمهم ... فغيرك أولى بالنبي وأقرب[(١)]

هذا مع العلم أنّ الأنصار – وهم الثقل الأكبر في جمهور المسلمين – كانوا يعلمون جيّداً النصوص النبويّة ويحفظونها في شأن العترة الطاهرة، وقد شهدوا تنصيب الإمام عليّ عليه السلام في غدير خم، وأوصاهم النبيّ ﷺ به وبأهل بيته عليهم السلام. لكنّ المرجّح أنّ مسارعة بعضهم إلى عقد الاجتماع في السقيفة هو لعلمهم المسبق بنوايا قريش في صرف الخلافة عن صاحبها الشرعيّ وهو الإمام عليّ عليه السلام، وتخوّفهم من العزلة السياسيّة والإدارية. وممّا يؤيّد هذا أنّ قرارات الأنصار لم تكن حاسمة، وكانوا متردّدين في الكلام، لكنّ موقفهم ولقاءهم في السقيفة هيّأ

(١) خصائص الأئمّة، الشريف الرضيّ أبو الحسن محمّد بن أبي أحمد الطاهر: ٢٠، مجمع البحوث الإسلاميّة، مشهد، ربيع الثاني، ١٤٠٦ هـ.

الفرصة السياسيّة الثمينة لذلك الجناح والفريق المترقّب للفوز بالسلطة، ففُتح باب الصراع على مصراعيه بعيداً عن القيم والأحكام الإسلاميّة؛ إذ قدّمت فيه الحسابات القبليّة على الحسابات الشرعيّة، وعلى مصلحة الرسالة.

وعلى كلّ حال، فإنّ النتيجة الّتي أسفر عنها اجتماع السقيفة هي تحويل مسار الخلافة عن صاحبها بعد جدالٍ طويل ونقاش بين الفريقين.

ملامح مخطّط إقصاء الإمام عليه السلام عن الخلافة

نلاحظ أنّ هناك مخطّطاً محكماً لدى الخطّ المناوئ لعليّ عليه السلام لأخذ الخلافة منه من خلال ما يلي:

١. بقاؤهم في المدينة وتخلّفهم عن جيش أسامة، وذلك عندما عرفوا بمرض النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم.

٢. حضورهم الدائم قرب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ومحاولتهم الحيلولة دون حصول شيء يدعم ولاية الإمام عليّ عليه السلام، فكان الشغب في مجلس النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم تحت الشعار الّذي رفعه عمر بن الخطاب: «**حسبنا كتاب الله**»، ثمّ اتّهام النبيّ المعصوم صلى الله عليه وآله وسلم بغلبة الوجع عليه وأنّه يهجر[١].

٣. السرعة في البتّ بموضوع الخلافة وإتمام البيعة، عبر استغلالهم الفرصة بانشغال الإمام عليّ عليه السلام وبني هاشم بمراسم تجهيز النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ودفنه.

٤. سعيهم لتحييد الأنصار وإبعادهم عن ميدان التنافس السياسيّ بدعوى أنّهم ليسوا عشيرة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم.

٥. الترتيب في أخذ البيعة أوّلاً من الأنصار، لأنّ قريشاً لو بايعت الخليفة

(١) بحار الأنوار، محمّد باقر المجلسي: ٤٦٨/٢٢. مؤسسة الوفاء، بيروت، ط٢، ١٩٨٣م. وكان ابن عباس يقول: «**إنّ الرزيّة كلّ الرزيّة ما حال بين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب..**» وذكر البخاري هذه الحادثة في صحيحه مع تغييره لعبارة «إنّه يهجر» بـ «غلب عليه الوجع»، راجع صحيح البخاري ج ٩/٧.

الجديـد؛ لما كان لبيعتها أدنى قيمـة واقعية، ولأمكن للإمام عليه السلام فيما بعد أن يقيم الحجّة على قريش.

وعلـى الرغم من محاولات هـؤلاء في كسب أصـوات المسلمين بقيت ثلّة من المهاجرين والأنصار إلى جانب الإمام عليّ عليه السلام، ولم يخضعوا لإرهاب الحزب المسيطر، ومن هؤلاء العبّاس عمّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم.

ولجـأ هؤلاء لفرض رأيهم وسلطتهم علـى الإمام عليه السلام ومن معه، إلى درجة أنّهـم هاجموا بيت الإمام عليّ عليه السلام مع علمهـم بوجود فاطمة الزهراء عليها السلام فيه، وأضرموا النار به[1] لإخراج من فيه وأخذ البيعة منهم بالقوّة.

موقف الإمام عليه السلام من اجتماع السقيفة

لـم يكن الإمام علـيّ عليه السلام طامعاً وساعياً في استـلام الخلافة والتربّع على عرشهـا مثل الآخرين، إذ كان همّـه الأوّل والأخير تثبيت دعائم الإسلام ونشره، وإعـزاز الدِّين وأهلـه، وإظهار عظمة الرسـول صلى الله عليه وآله وسلم وحثّ النـاسـ على الاقتداء بمنهجـه، وهـو المؤهّل للخلافة رساليّـاً والمبايَع بها قبل سبعيـن يوماً من وفاة النبـيّ صلى الله عليه وآله وسلم. إلّا أنّ نفوس القوم أضمرت ما ينافـي وصايا نبيّهم في غزوتي أُحد وحنين وغيرهمـا، وأغراهم الطمع في سلطان الإسـلام بغيرِ حقّ فتركوا نبيّهم مطروحاً بلا دفن، كما تركوه وفرّوا عنه في حياته عند الشدائد والهزاهز.

وقـد استفاضت النصوص الواردة عـن الإمام عليه السلام الّتي تفصح عن حقيقة ما جرى بعد النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم من الانحراف السياسيّ، وتكشف النقاب عن أسباب هذا الانحـراف بشكلٍ لا يـدع مجالاً للريب في صحّة ما ذكرنـاه، وفي صوابيّة موقف الإمام عليه السلام الّذي يستند إلى دليل واضح وبرهان ثاقب. فمن هذه النصـوص:

---

(١) راجع: الإمامة والسياسة، ابن قتيبة الدينوري، تحقيق محمّد طه الزيني: ١/ ١٩، مؤسّسة الحلبي وشركائه، ١٩٦٧م.

١. قولــه عليه السلام في الخطبــة الشقشقيّة: **«أما والله لقد تقمّصـهـا[١] ابن أبي قحافة، وإنّه ليعلَمُ أنّ محلّي منها محلّ القطب من الرحى»**[٢].

٢. وحين سأله بعض أصحابه: كيف دفعكم قومكم عن هذا المقام وأنتم أحقّ به؟! قــال عليه السلام: **«... أمّا الاسـتبداد علينا بهذا المقـام ونحن الأعلون نسباً والأشدّون برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نوطاً[٣]؛ فإنّها كانت أثرةً شحّت عليها نفوس قـوم وسـخت عنها نفوس آخريـن، والحَكَم الله، والمعْوَد إليه القيامة»**[٤].

٣. وقــال عليه السلام: **«اللّهـم إنّـي أسـتعديك على قريش ومـن أعانـهـم، فإنّهم قطعوا رَحِمي وصـغّروا عظيم منزلتي وأجمعوا على منازعتي أمراً هُوَ لـي»**[٥].

وتضمّنت هذه النصوص التصريح بعدّة حقائق مهمّة:

١. أنّ الخلافة هي حقّ الإمام عليه السلام دون غيره.

٢. أنّ هناك من حاول تقمّص منصب الخلافة بغير حق.

٣. أنّ قريشــاً مع مـن أعانهم هم الّذيــن خطّطوا للاستيــلاء على الخلافة ومنازعة الإمام عليّ عليه السلام.

٤. أنّهم أبعدوا أمير المؤمنين عليه السلام عن شؤون الخلافة واستأثروا بها.

هذا فضلاً عن غيرهــا من النصوص الكثيرة الّتي تضمّنت مثل هذه المعاني والحقائق.

(١) الضمير يعود إلى الخلافة، والّذي يطالع هذه الخطبة لا يرتاب في المراد.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة: ٣.

(٣) النّوط: التعلّق، والأثرة: الاختصاص بالشيء دون مستحقّه.

(٤) م.ن، الخطبة: ١٦٢.

(٥) م.ن، الخطبة: ١٧٢.

ومن هنا يتّضح للباحث وجود خطّين فكريّن، وسلوكين متضاربين:

أحدهما: يرى أنّ استلام السلطة إنّما هو وسيلة لتحقيق القيم العُليا، ولا تُسحق القيم من أجل الوصول إلى السلطة، وأنّ الحقّ هو الأحقّ بالاتّباع دون غيره.

الثاني: يرى استلام السلطة هدفاً أعلى، والقيمَ وسائلَ قد تخدم هذا الهدف وقد لا تخدمه، ولا ضرورة للخضوع لها.

وقد تَمثّل الخطّ الأوّل في سلوك الإمام عليّ عليه السلام، والأئمّة من بنيه عليهم السلام على أكمل وجه، بينما تمثّل الخطّ الثاني في من ناوأهم.

الإمام عليّ عليه السلام ومضاعفات السقيفة

برزت المواقف الساخطة على ما نجمت وأسفرت عنه حادثة السقيفة، فوقف الصفوة الأبرار من الصحابة مع الإمام عليّ عليه السلام في المطالبة بحقّه الشرعيّ في الخلافة، واحتجّوا بصلابة وثقة وعلانية، بالحجّة والبرهان والأدلّة الشرعيّة، ومن هؤلاء خزيمة بن ثابت وسهل بن حنيف وعمّار بن ياسر حيث قال: «**يا معاشر المسلمين! إن كنتم علمتم وإلّا فاعلموا أنّ أهل بيت نبيّكم أولى به وأحقّ بإرثه وأقوم بأمور الدِّين... فمروا صاحبكم فليردّ الحقّ إلى أهله...**».

وكما أشرنا سابقاً فإنّ القوم حاولوا إرغام الإمام عليه السلام وقسره على البيعة، فأرسلوا قوّة عسكرية أحاطت بداره ودخلوها بعنف[1]، وأخرجوه منها بصورةٍ لا تليق بمكانته، وجيء به إلى أبي بكر، فصاحوا به بعنف: بايع أبا بكر، فأجابهم عليه السلام بمنطق الواثق: «**أنا أحقّ بهذا الأمر منكم، لا أبايعكم وأنتم أولى بالبيعة لي.. نحن أولى برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حيّاً وميتاً، فأنصفونا إن كنتم تؤمنون...**»[2].

---

(١) الإمامة والسياسة، م.س:١/٣٠، وتاريخ الطبري، م.س:٢/٤٤٣.

(٢) م.ن: ١/٢٨.

ووقـف الإمام علـيّ عَلَيْهِ السَّلَامُ عند مفترق طـرق، في كلٍّ منها حـرج شديد على نفسه:

١. أن يبايع أبا بكر دون ممانعة، فيحفظ وجوده ويسلم من أذاهم، وهذا غير ممكن لأنّه يعني إمضاءه عَلَيْهِ السَّلَامُ لبيعة أبي بكر وخلافته.

٢. أن يسكـت وفـي العين قذى وفي الحلق شجا، ويصبـر ما دام الجور عليه خاصّة.

٣. أن يعلن الثورة على خلافة أبي بكر.

فما كان من الإمام عليّ عَلَيْهِ السَّلَامُ سوى أن يختار الطريق الثاني ليحقّق أكبر قدرٍ ممكن من الأهداف الرساليّة الّتي جعله الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وصيّاً عليها.

ولا ينبغـي للباحـث أن يغفل عـن موقف الإمام عليّ عَلَيْهِ السَّلَامُ مـن أبي سفيان الّـذي عرضـ على الإمـام عَلَيْهِ السَّلَامُ البيعة لـه، فواجهـه عَلَيْهِ السَّلَامُ بالرفض وذلك لِعلـم الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ بنواياه الخبيثـة. وكان للأمويّين مطمـع سياسيّ كبير في نيـل نصيب مرمـوق من الحكم، واسترجاع شيء مـن زعامتهم في الجاهلية، ومـن هنا فإنّهم عندما عارضوا نتائج السقيفة لم يعبأ الحاكمون بمعارضتهم ولا بتهديـدات أبي سفيان وما أعلنه من كلمات الثـورة لعلمهم بطبيعة النفس الأمويّـة وشهواتهـا السياسيّـة والماديّة، فكان من السهل كسـب الأمويّين إلى جانـب الحكـم القائم كمـا صنع أبو بكـر فأباح لنفسـه، أو أبـاح لعمر بتعبير أصـحّ كما يذكر المؤرخون[1]، أن يدفع لأبي سفيان جميع ما في يده من أموال المسلميـن وزكواتهم ثمّ جعل للأمويّين بعد ذلك حظّاً من العمل الحكوميّ في عدّة من المرافق الهامّة.

---

(١) راجع شـرح نهـج البلاغـة، ابـن أبي الحديـد المعتزلي، أبـو حامد ابن هبـة الله المدائنـي، تحقيق محمّد أبـو الفضل إبراهيم:١/١٣٠، منشورات مكتبة المرعشي النجفي، قم، ١٩٦٤م.

الانحراف السياسيّ ونتائجه

تشيـر المرحلة الأولى من حيـاة الأمّة الإسلاميّة، في عصـر النبيّ ﷺ إلى وجـود اتّجاهيـن رئيسين متخالفيـن قد رافقا نشـوء الأمّة منذ بدايـة التجربة الإسلاميّة وهما:

١- الاتّجاه الّذي يؤمن بالتعبّد بالدِّين وتحكيمه والتسليم المطلق للنصّ الدينيّ في كلّ جوانب الحياة (وهو اتّجاه مدرسة أهل البيت عليهم السلام وشيعتهم)[(١)].

٢- الاتّجـاه الّـذي لا يـرى أنّ إيمانه بالدِّيـن يتطلّب منه التعبّـد إلّا في نطاقٍ خاصّ من العبادات والغيبيّات، ويؤمن بإمكانيّة الاجتهاد وجواز التصرّف على أساسه بالتغيير والتأويل في النصّ الدينيّ وفقاً للمصالح[(٢)].

وهذان الاتّجاهان اللذان بدأ الصراع بينهما في حياة النبيّ ﷺ، قد انعكسا على موقـف المسلمين من خلافة الإمام عليّ عليه السلام بعد النبيّ ﷺ. وقد تجسّد الاتّجاه الشيعيّ، منذ اللحظة الأولى، في إنكار ما اتّجهت إليه السقيفة من تجميد لولاية وخلافة الإمام عليّ عليه السلام، وإسناد السلطة إلى غيره.

ويـرى الاتّجاه الأوّل أنّ إمامة أهل البيت عليهم السلام بـدءً بالإمام عليّ عليه السلام تُعبِّر عـن مرجعيّتين: إحداهما المرجعيّـة التشريعيّة والفكريّـة، والأخرى المرجعيّة فـي العمل القياديّ والاجتماعيّ، وأمّا الاتّجاه الآخر في المسلمين الّذي قام على الاجتهـاد بدلاً عن التعبّد بالنصّ، فقد قـرّر في البدء منذ وفاة الرسول الأعظم ﷺ تسليـم المرجعيّة القياديّة الّتي تمارس السلطة إلى رجالات من المهاجرين وفقاً لاعتبارات من عند أنفسهم.

وعلـى هذا الأساس تسلّم أبو بكر السلطة بعد وفاة النبيّ مباشرة على أساس ما تمّ من تشاور محدود في مجلس السقيفة. ثمّ تولّى الخلافة عمر بنصّ محدّد

---

(١) تاريخ الطبري، م.س:٢/٢٣٧.

(٢) راجع للتفصيل: معالم المدرستين، السيّد مرتضى العسكريّ، مؤسسة النعمان للطباعة والنشر، بيروت، ط١، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م.

من أبي بكر، وخلفهما عثمان بنصّ غير محدّد من عمر[١].

وكان من نتائج هذا الاجتهاد بعد ثُلث قرنٍ من وفاة الرسول القائد صلى الله عليه وآله وسلم أن تسلّل أبناء الطلقاء الّذين حاربوا الإسلام بالأمس إلى مراكز السلطة. هذا فيما يتّصل بالمرجعيّة القياديّة الّتي تمارس السلطة.

وأمّا بالنسبة إلى المرجعيّة الفكريّة فقد كان من الصعب على هؤلاء إقرارها لأهل البيت عليهم السلام، - بعد أن أدّى الاجتهاد إلى انتزاع المرجعيّة القياديّة منهم- لأنّ إقرارها كان يعني خلق الظروف الموضوعيّة الّتي تمكّنهم عليهم السلام من تسلّم السلطة والجمع بين المرجعيّتين.

ونظراً لعدم إمكانيّة توفّر المرجعيّة الفكريّة في أيّ صحابيّ بمفرده فقد ظلّ ميزان المرجعيّة الفكريّة يتأرجح فترةً من الزمن، وظلّ الخلفاء في كثيرٍ من الحالات، يتعاملون مع الإمام عليّ عليه السلام، على أساس إمامته الفكريّة، حتّى قال الخليفة الثاني مرّات عديدة: «**لولا عليّ لهلك عمر، ولا أبقاني الله لمعضلة ليس لها أبو الحسن**»[٢]. ومع مرور الزمن وبفعل سياسة إقصاء أهل البيت عليهم السلام تمكّن هؤلاء من إسناد المرجعيّة الفكريّة إلى بديلٍ آخر، وهذا البديل ليس هو شخص الخليفة، بل الصحابة.

وهكذا وُضِعَ بالتدريج مبدأ مرجعيّة الصحابة ككلّ بدلاً عن مرجعيّة أئمّة أهل البيت عليهم السلام.

لماذا لم يحتجّ الإمام عليّ عليه السلام بالنصّ؟

يمكن اختصار الإجابة عن هذا السؤال بأنّ سكوت أمير المؤمنين عليه السلام عن المواجهة بالنصّ إلى حينٍ كان لجملة أمور، منها:

---

(١) راجع قصّة استخلاف عمر في تاريخ الطبري، م.س:٢/٢٣٤، وقصّة الشورى في استخلاف عثمان في :٢/٥٨.

(٢) الطبقات الكبرى، محمّد ابن سعد:٢/٣٣٩، دار صادر، بيروت.

١. أنّه لم يكن يجد في رجالات تلك الساعة من يطمئنّ إلى شهادته بذلك.

٢. أنّ الاعتراض بالنصوص كان سيُلفت أنظار الحكّام إلى قيمتها المعنويّة الهامّة، فيستعملوا شتّى الأساليب لمحوها والتخلّص منها.

٣. أنّ معنى الاعتراض بها التهيّؤ للثورة بأوسع معانيها، وهذا ما لم يكن يريده الإمام عليه السلام.

٤. إنّ اتّهام الخليفة عمَر للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في آخر ساعاته بأنّه يهجر زاد الإمام عليّاً عليه السلام معرفةً بحال هؤلاء، ومدى استعدادهم لنسف القيم والنصوص في سبيل مراكزهم، ممّا جعله يخاف من تكرّر شيء من ذلك لو أعلن عن نصوص إمامته[1].

تخطيط الإمام عليه السلام لمواجهة الانحراف

إنّ للإمام المعصوم عليه السلام واجباتٍ تتلخّص في الحرص على سلامة الرسالة الإسلاميّة وديمومتها في الحياة، ومن هنا اجتهد الإمام عليّ عليه السلام في تعميق الرسالة فكريّاً وروحيّاً وسياسيّاً في صفوف أبناء الأمّة الإسلاميّة، وحاول تقديم الوجه المشرق للرسالة الإسلاميّة عبر أساليب عديدة منها:

١. التدخّل الإيجابيّ لتوجيه الزعامة المنحرفة، بعد أن كانت لا تحسن معالجة كثير من القضايا البسيطة فضلاً عن المعقّدة، فكان دوره عليه السلام دور الرقيب الرساليّ الّذي يتدخّل كلّما لزم الأمر.

٢. كان عليه السلام يتصدّى للرّد على شبهات المنحرفين بعد اتّضاح عجز المتصدّين للزعامة.

٣.

(١) راجع: فدك في التاريخ، محمّد باقر الصدر تحقيق عبد الجبار شرارة: ١٠٦ ـ ١١٢، مركز الغدير للدراسات الإسلاميّة، ط ١، ١٤١٥ هـ ـ ١٩٩٤م.

٤. تقديم المثل الأعلى للإسلام والصورة الناصعة للحكم الإسلاميّ والمجتمع الرساليّ.

٥. تربية ثلّة صالحة من المسلمين تُعين الإمام عليه السلام في حركته الإصلاحيّة والتغييريّة.

٦. إحياء سُنّة رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم بالحثّ على تداولها وتدوينها والاهتمام بالقرآن تلاوةً وحفظاً وتفسيراً وتدويناً، إذ إنّهما عماد الشريعة، فلا بدّ أن تتفهّم الأُمّة حقائق القرآن الكريم ومفاهيم السنّة الشريفة[١].

ومن هنا كان جمع القرآن الكريم على رأس ما قام به الإمام عليّ عليه السلام بعد ارتحال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم؛ فقد عكف ستّة أشهر في داره مشغولاً بهذه المهمّة، وكان يقول لمن يطالبه بالخروج من البيت ومبايعة أبي بكر: «**آليت على نفسي يميناً ألّا أرتدي برداء إلّا للصلاة حتّى أجمع القرآن**»[٢] فجمعه. ونقل السيوطيّ أنّه جمع القرآن على ترتيب نزوله بعد وفاة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، وأشار إلى عامّه وخاصّه ومطلقه ومقيّده ومحكمه ومتشابهه وناسخه ومنسوخه وسننه وآدابه، كما أشار إلى أسباب النزول، ثمّ توجّه إلى عملٍ آخر لا يقلّ أهمية عن الأوّل وهو جمع ما دوّنه من أحكام أملاها عليه رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم في كتاب واحد سُمِّيَ بالجامعة أو كتاب عليّ، وهو كتاب طوله سبعون ذراعاً مكتوب على الجلد. وقد احتوت هذه الجامعة كما روي عن الإمام الصادق عليه السلام على جميع الأحكام حتّى أرش الخدش. وهذا الكتاب توارثه أهل البيت عليهم السلام.

ولولا هذا العمل الجبّار لاندرست الأحكام الشرعيّة ولما كُتب للرسالة الإسلاميّة الاستمرار والبقاء. وهذا كان بنظر الإمام عليّ عليه السلام أهمّ بكثير من خلافة وزعامة لفترة زمنية محدودة ما تلبث أن تنتهي...

(١) أهل البيت تنوّع أدوار ووحدة هدف، محمّد باقر الصدر: ٥٩ - ٦٩.

(٢) الاحتجاج، الشيخ أحمد بن عليّ بن أبي طالب الطبرسي: ١/ ٩٨، دار النعمان، النجف، ١٣٨٦ هـ، ١٩٦٦م.

خلاصة الدرس

ينقسم عصر الإمام عليّ عليه السلام إلى عهدين: عهد الخلفاء وعهد الحكم العلويّ.

- نصّ الإمام عليّ عليه السلام على أنّ هناك تخطيطاً قد حيك لابتزاز حقّه عليه السلام. وقد صبر الإمام عليه السلام كي يحقّق الأهداف الكبرى للرسالة.
- بقيَت ثلّة من المهاجرين والأنصار إلى جانب الإمام عليّ عليه السلام.
- لجأ الحزب الحاكم إلى مختلف الوسائل لأخذ البيعة من الإمام عليه السلام ومن ذلك دخولهم على بيت فاطمة عليها السلام وإضرام النار فيه.
- انتصر فريق المهاجرين في السقيفة، ولم يعبأوا بمعارضة أحد، ولكنّهم سجّلوا على أنفسهم دليلاً يحكمهم ويضعّف موقفهم تجاه الهاشميّين الّذين هم أقرب إلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من سائر المهاجرين.
- تتلخّص جذور الانحراف السياسيّ في وجود تيّار منذ عصر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لم يكن مؤمناً بضرورة التعبّد الكامل بالنصوص النبويّة، بل يرى لنفسه حقّ الاجتهاد والعمل على أساس المصالح الّتي يراها لنفسه.
- أنتج هذا التيّار إقصاءً لأهل البيت عليهم السلام عن مجال المرجعيّة السياسيّة ثمّ تعطيل مرجعيّتهم الفكريّة واستبدالها بمرجعيّة الصحابة بشكلٍ عامّ.
- لم يحتجّ الإمام عليه السلام بالنصوص. بعد أن ترك خيار الثورة المسلّحة. لأنّ الاحتجاج بها كان يؤدّي إلى ضياعها وضياع سنّة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.
- من إنجازات الإمام عليه السلام بعد الانحراف السياسيّ الحاصل عقيب وفاة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وإبعاده عن مركز القيادة: صيانة الشريعة الإسلاميّة



مـن أيدي العابثيـن ومن التصـدّع والانهيـار، وصيانة الأمّـة الإسلاميّة وتحصينهـا ضدّ التحدّيـات المقبلة، وممارسته لـدور الرقابة المستمرّة للجهاز الحاكم، وإسداء النصيحة عند المصلحة.

- **ومن أهمّ إنجازاته أيضاً:** جمعه للقرآن الكريم، وتدوينه للجامعة.



الدرس الثاني

الإمام عليّ عليه السلام في عهد الخلفاء



أهداف الدرس:

١. أن يتعرّف الطالب إلى مواقف الإمام عليه السلام في عهد الخلفاء.
٢. أن يتبيّن محنة الشورى وخلفيّاتها أيّام الخليفة الثاني.
٣. أن يستذكر أسباب الثورة على عثمان.
٤. أن يتبيّن كيفيّة البيعة للإمام عليه السلام، والإصلاحات الّتي قام بها عليه السلام.

من مواقف الإمام عليه السلام في عهد أبي بكر

يقول الإمام عليّ عليه السلام: «**فوالله ما كان يلقى في روعي ولا يخطر ببالي أنّ العـرب تزعـج هذا الأمر من بعده صلى الله عليه وآله وسلم عن أهل بيته، ولا أنّهم مُنَحّوهُ عنّي من بعـده، فمـا راعني إلّا انثيال الناس إلى أبي بكر يبايعونه، فأمسـكت حتّى رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الإسـلام، يدعون إلى محق دين محمّد، فخشـيت إن لم أنصـر الإسـلام وأهله أن أرى فيه ثلماً أو هدماً تكون المصيبة به أعظم من فوت ولايتكم...**»[1].

كلّ الأحـداث الّتـي جرت بعد وفاة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم لم تُنسِ الإمام عليّاً عليه السلام أنّه الوصيّ على هذه الأمّة وعلى تطبيق الرسالة الإسلاميّة.

ورغم إقصاء الإمام عن القيادة وقف عليه السلام ليدلي بآرائه الصائبة، موضّحاً قواعـد الدِّين الصحيحة في كلّ موقف، فكان عليه السلام الميـزان في شؤون الحياة الإسلاميّـة مـن قضاء واجتماع وإدارة في عهد أبي بكر وما تلاه من فترات حكم الخلفاء. ولم تطل أيّام أبي بكر فقد ألمّت به الأمراض وأشرف على الموت، وقد

(١) نهج البلاغة، الكتاب: ٦٢.

صمّم على أن يولّي عمر الخلافة من بعده، فاعترض أكثر المهاجرين والأنصار. لكنّ أبا بكر أصرّ على موقفه وأحضر عثمان وحده ليكتب عهده لعمر.

مآخذ الإمام عليه السلام على وصيّة أبي بكر

لم يكن الإمام عليه السلام راضياً بما فعله أبو بكر للأسباب التالية:

١. إنّ أبا بكر لم يستشر أحداً من المسلمين في تقرير مصير الخلافة إلّا عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفّان اللذين كانا على معرفة تامّة بميول أبي بكر لاستخلاف عُمر من بعده.

٢. الإصرار على إبعاد الإمام عليّ عليه السلام عن الساحة السياسيّة ومسألة تقرير مصير الخلافة.

٣. إنّ أبا بكر فرض عمر فرضاً على المسلمين.

٤. إنّه ناقض نفسه في دعواه بالسير على منهاج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأنّه كان يدّعي أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم توفّيَ ولم يعهد لأحدٍ في شأن الخلافة، في حين يوصي لعمر من بعده.

٥. إنّه هيّأ المُلك لبني أميّة، وذلك من خلال إثارة طمعهم في الخلافة وتشجيعهم عليها بقوله لعثمان: لولا عمر ما عدوتك[١]. وعثمان يميل لبني أميّة بل هو منهم.

النصيحة والمشورة للخلفاء

وقف الإمام عليّ عليه السلام بروحٍ مغمورة بالمسؤوليّة إزاء الخلفاء حرصاً على مصلحة الدين، ممّا حتّم عليهم أن يرجعوا إلى رأيه ومشورته في القضايا المهمّة ومنها:

١. في خلافة أبي بكر حين أراد المسلمون غزو الروم، فاستشار الإمام عليه السلام

---

(١) شرح نهج البلاغة، م.س: ١/١٦٤.

فأشار إليه بأن يفعل وأخبره بنتيجة المعركة قائلاً: «**إنْ فعلت ظفرت...**»[١].

٢. عندما أراد عمر بن الخطاب غزو الفرس جمع قادة الجيش مع كبار الصحابة، فأشار عليه عثمان أن يكتب إلى أهل الشام فيسيروا من شامهم وإلى أهل اليمن فيسيروا من يمنهم ثمّ يسير عمر بجيشٍ من أهل الحرمين إلى الكوفة والبصرة.

فاعترض الإمام عليه السلام ولم يُحبِّذ خروج أهل الشام لأنَّهم محاطون بالأعداء وهم الروم، وخروج أهل اليمن لأنّهم محاطون بأعداء كامنين لهم في بلاد الحبشة، ولم يحبِّذ خروج أهل الحرمين إلى الحرب لأنّ العرب قابعون في الأطراف يستغلّون غياب القوّة العسكريّة فيفعلون ما يريدون.

وكان مقترح الإمام أن يستقرّ أهل الأمصار في أماكن سكناهم ويُكتب إلى أهل البصرة فينقسموا إلى ثلاث فرق... فقال عمر: هذا هو الرأي[٢].

٣. أراد عمر أن يرجم امرأةً مجنونة اتّهمت بالزنا، فردّ الإمام عليه السلام قضاء عمر. وذكّره بحديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**رُفع القلم عن ثلاثة: عن النائم حتّى يستيقظ وعن الطفل حتّى يحتلم، وعن المجنون حتّى يبرأ أو يعقل**». حينذاك قال عمر: لولا عليّ لهلك عمر[٣]. من هنا نجد أنّ الموجّه غير المباشر لمجريات الأمور باتّجاه صيانة الأمّة والرسالة والكيان الإسلاميّ من تزايد الانحراف واشتداده كان هو الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام من خلال ما ذكرناه وغير ذلك من مراجعات للخلفاء الثلاثة يقف المراجع للتاريخ على كثير منها.

(١) تاريخ اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب المعروف باليعقوبي: ١٣٣/٢، مؤسسة نشر فرهنك أهل البيت عليهم السلام، إيران، ودار صادر، بيروت.

(٢) الكامل في التاريخ، م.س: ٨/٣.

(٣) فضائل الخمسة من الصحاح الستّة، السيد مرتضى الفيروز آبادي: ٣٠٩/٢، مؤسسة الأعلمي، بيروت.

محنة الشورى والمؤاخذات عليها

إذا كانت السقيفة وبيعة أبي بكر فلتةً وقى الله المسلمين شرّها ـ كما قال عمر ـ؛ فإنّ مسألة الشورى كانت أشدّ وأدهى وأمرّ. فقد امتُحِنَ المسلمون فيها امتحاناً عسيراً، وزرعت لهم الفتن، وتبيّن معها الهدف الرئيس المتمثّل بإقصاء الإمام عليّ عليه السلام عن الحكم بسبب تركيبة أعضاء الشورى السداسيّة الّتي صرّح عمر عنها[1]. ويوضّح الإمام واقع الحال في حديثه مع عمّه العباس عندما استفسره فبادره قائلاً:

«**يا عمّ، لقد عُدِلَتْ عنّا**»، فقال العباس: من أعلمك بذلك؟ فقال عليه السلام: «**قُرِن بي عثمان، وقال عمر: كونوا مع الأكثر، فإن رضيَ رجلان رجلاً ورجلان رجلاً فكونوا مع الّذين فيهم عبد الرحمن بن عوف، فسعد لا يخالف ابن عمّه عبد الرحمن وعبد الرحمن صهر عثمان لا يختلفون، فيولّيها عبد الرحمن عثمان أو يولّيها عثمان عبد الرحمن، فلو كان الآخران معي لم ينفعاني**»[2].

وتحقّق ما تنبّأ به الإمام عليه السلام وآلت الخلافة إلى عثمان بتواطؤ عبد الرحمن. وبعد أن أوضح للناس خطأهم المتكرّر في الاستخلاف في مصير القيادة قال:

«**أيّها الناس، لقد علمتم أنّي أحقّ بهذا الأمر من غيري، أما وقد انتهى الأمر إلى ما ترون، فوالله لأُسلمنّ ما سَلِمَتْ أمور المسلمين، ولم يكن فيها جور إلّا عليّ خاصّة**»[3].

ونظام الشورى الّذي وضعه عمر مع مخالفته لنصّ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كان عارياً

---

(١) جعل عمر الشورى في ستّة أشخاص محتجّاً بأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال عنهم إنّهم من أهل الجنة وهم: الإمام عليّ عليه السلام وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقّاص والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله.

(٢) تاريخ الطبري، م.س: ٢٢٦/٥، ويقول عليه السلام، في الخطبة الشقشقية: «**فيا لله وللشورى، متى اعترض الريب فيّ مع الأوّل منهم حتّى صرت أقرن إلى هذه النظائر لكنّي أسففت إذ أسفّوا وطرت إذ طاروا، فصغى رجل منهم لضغنه، ومال الآخر لصهره..**» نهج البلاغة: ٣١/١.

(٣) نهج البلاغة، الخطبة: ٧٤.

عن الصحّة والصواب يحمل التناقض بين خطواته، ويُلاحظ فيه أمورٌ محلّ إشكال ونظر، منها:

١. أنّ الأعضاء المقترحين للشورى لم يحصلوا على هذا الامتياز بالأفضليّة وفق ضوابط الانتخاب. وإطلاق كلمة الشورى على هذا النظام جُزاف، لأنّه لم يكن إلّا ترشيح فرد لجماعة وفرضهم على الأمّة.

٢. الاستهانة بالأنصار ودورهم، فقد طلب عمر حضورهم ولا شيء لهم بل ولا رأي، فالأمر منحصر في الستّة فما معنى حضور الأنصار؟

٣. أنّ عمر ناقض نفسه في عمليّة اختيار العناصر، ففي السقيفة كان يدّعي ويصرّ على أنّ الخلافة في قريش، بينما نجده في هذا الموقف يتمنّى حياة سالم مولى أبي حذيفة ليولّيه الأمر، كما أنّه استدعى أصحاب الشورى دون غيرهم من الصحابة، ثمّ إنّه أمر صهيباً أن يصلّي بالناس ثلاثة أيّام، لأنّ إمامة المصلّين لا ترتبط بالخلافة ولا تستلزمها. وقد كان يناضل يوم السقيفة من أجل استخلاف أبي بكر، وكانت صلاته المزعومة دليله الأوّل على أهليّة أبي بكر للخلافة.

٤. اختيار العناصر الستّة مؤامرة واضحة بحيث يصل الأمر إلى عثمان.

٥. أنّه أمر بقتل أعضاء الشورى في حالة عدم التوصّل إلى اتّفاق أو إبداء معارضة، وكيف يمكن التوفيق بين هذا وبين قوله: إنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم مات وهو راضٍ عنهم وأنّهم من أهل الجنّة؟ وهل تكون مخالفة رأي عمر موجبة لقتل الصحابة؟!

الإمام عليه السلام وعهد عثمان

تعايش الإمام عليّ عليه السلام مع أبي بكر وعمر، ولم يظهر معارضته العلنية

لهمـا، فقد كان الانحراف في مسيرة الحكومـة الإسلاميّة مستتراً، أمّا في فترة حكم عثمان فقد استشرى الفساد ودبّ في أجهزة الدولة بصورة علنية مكشوفة، وانتقلـت العـدوى إلـى فئـات المجتمـع الإسلاميّ، فوقـف الإمام معلنـاً رفضه واستنـكاره على عثمان بصـورةٍ علنية. ويمكن لنا أن نجمـل طبيعة حكم عثمان وملامحه فيما يلي:

إنّ عثمـان وصل إلى الحكم وقد تجاوز السبعيـن عاماً، وكان وَصولاً لأرحامه وَلوعاً بحبّهم وإيثارهم، فقد روي عنه قوله: لو أنّ بيدي مفاتيح الجنّة لأعطيتها بنـي أميّـة حتّى يدخلـوا من عند آخرهم. كمـا أنّ عثمان عاش غنيّـاً مترفاً قبل الإسـلام، وظـلّ على غناه في الإسلام، فلم يكن ليتحسَّـس معاناة الفقراء وآلام المحروميـن، وقلّد أقرباءه أمور الحكم والسلطـة، فاستعمل الوليد بن عقبة بن أبـي معيط على الكوفـة وهو ممّن أخبر النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أنّه مـن أهل النار، وعبد اللّه بـن أبي سرح على مصر، ومعاوية على الشام، وعبد اللّه بن عامر على البصرة، وسعيد بن العاص على الكوفة.

وكان عثمان ضعيفاً أمام مروان بن الحكم، يسمع كلامه وينفّذ رغباته، ووالد مـروان هو الحكم بن أبي العاص طريـد رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم الّذي غرّبه عن المدينة ونفاه عن جواره. وأمّا سياسة عثمان المالية فقد كانت امتداداً لسياسة عمر من إيجـاد الطبقية وتقديم بعض النـاس على بعض في العطـاء، إلّا أنّها كانت أكثر فسـاداً من سياسة سابقه، فقد أثرى بني أميّة ثراءً فاحشاً، وحين اعترض عليه خـازن بيـت المال قال له: إنّمـا أنت خازن لنا، فإذا أعطينـاك فخذ وإذا سكتنا عنك فاسكت[١].

وأدّى تزايـد الثروة لدى قطاع من المهاجرين والأنصـار في أيّام عثمان إلى

(١) تاريخ اليعقوبي، م.س: ٢/١٥٣.

انتشــار روح البذخ والإسراف وشيوع الطبقيّة والانحراف الأخلاقيّ في المجتمع الإسلامــيّ. وهنا وقف الإمــام عليّ عليه السلام ليعلن رفضه واستنــكاره واقع سياسة عثمان، ووقف معه الصحابة الأجلاّء أمثال عمّار وأبي ذرّ. ويصف الإمام عليه السلام عهد عثمان فيقول: «**إلى أن قام ثالث القوم نافجاً حضنيه بين نثيله ومعتلَفِه، وقام معه بنو أبيه يخضمون مال الله خِضْمَةَ الإبل نبْتَةَ الربيع، إلى أن انتكث عليه فتلُه، وأجهز عليه عملُه، وكبَتْ به بِطْنَتُهُ**»[١].

معارضة سياسة عثمان

هــذه السياسة الّتي سلكها عثمان في التولية والعطاء أثارت عليه وعلى عهده موجة سخــط عامّة من المسلمين، لما رأوه فيه من عصبية قبلية هو وولاته من بني أميّة.

وكانــت أوّل مواجهــة للمسلمين معه هي تلك الّتي حصلــت نتيجة تساهله مع جريمــة القتل الّتــي ارتكبها عبيد الله بن عمر بسفكه ثلاثــة دماء لم يثبت جُرم لأصحابها، فقد قتل الهرمــزان وجُفينة وبنت أبي لؤلؤة لمجرّد شبهة اشتراكهم فــي قتل أبيــه. وكان المفترض إقامة حــدّ القصاص على أبي لؤلــؤة القاتل دون غيره. وانقسم المسلمون حيال هذه الجريمة إلى فريقين:

الأوّل: وهــم الأكثريّــة وفــي مقدّمتهم الإمــام عليّ عليه السلام حيث طالبــوا بإجراء القصاص على عُبيد الله بن عمر.

الثانــي: وهم المقرّبون مــن الخليفة وكانوا يرون التغاضي عمّا ارتكبه عبيد الله مُعتذرين عن ذلك بأنّه كيف يُقتل عمر أمس ويُقتل ابنه اليوم؟

ومــال عثمان إلى الفريق الثاني وقال: أنا وليّــه وقد جعلتها ديَة واحتمالها في

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة الشقشقيّة: ١/٢٥.

مالي[1]. وتعقّدت الأمور واشتدّت المعارضة من كبار الصحابة شيئاً فشيئاً.

فقد عارض سياسة عثمان في المال والإدارة عبد الله بن مسعود، وكان خازناً لبيت المال، فأمر عثمان بضربه حتّى كسرت بعض أضلاعه.

وعارضه أبو ذرّ الغفاريّ فنفاه إلى الشام، ثمّ إلى الربذة، ولبث فيها حتّى مات غريباً وحيداً سنة ٣٢هـ.

وعارضه عمّار بن ياسر، فشتمه عثمان وضربه حتّى غشي عليه سائر النهار، وعارضه غير هؤلاء من الصحابة من المهاجرين والأنصار في الأحداث الّتي كان يُقدم عليها، والسياسة الّتي كان ينتهجها.

وعند استعراض مواقف الإمام عليّ عليه السلام وصحبه نستطيع أن نرسم خطوطاً عامّة لحركة المعارضة ضدّ عثمان بما يلي:

١. المطالبة بالإصلاح الاجتماعيّ، حيث تفشّت المفاسد الاجتماعيّة نتيجة انتشار الخمر والغناء، وكان من واجب الإمام عليه السلام وصحبه العمل على مواجهة هذه المفاسد.

٢. مراقبة تصرّفات الولاة ومحاسبتهم على سلوكيّاتهم المناقضة للشريعة الإسلاميّة. فقد قام محمّد بن أبي حُذيفة بدورٍ هامّ في محاسبة والي مصر، واستطاع مالك الأشتر إزاحة الوليد بن عقبة وسعيد بن العاص، وأيقظ أبو ذرّ أهل الشام من كبوتهم.

٣. الدعوة إلى تطبيق العدل في الإنفاق بعد أن ظهرت في عهد عثمان طبقة من الأثرياء موغلة في الثراء، بينما كانت الأكثريّة من عامّة المسلمين تعيش في الفقر المدقع.

(١) الكامل في التاريخ، م.س: ٣/٧٥.

٤. تقديـم النُصـح للخليفة، فقد التزم الإمام عليه السلام وصحبـه سياسة ثابتة من النصح والتوجيه. وعلى العكس كان مروان وصحبه يصوّرون للخليفة أنّ ما يحدث كلّه بسبب مواقف الإمام عليّ عليه السلام.

لقـد كان الإمام عليّ عليه السلام ينطلق فـي معارضته للسلطة من موقفٍ إسلاميّ أصيل، فكان يُشكِّل خطّاً في المعارضة الإيجابية الّتي تُساهم في الأعمال الخيّرة الّتـي كان يقوم بهـا الخليفة، بينما كان موقفها من الأعمـال المنافية هو تقديم النُصح والتخفيف من الآثار السيّئة لتلك الأعمال.

الثورة على عثمان

تـأزّم الوضع العامّ في البلاد الإسلاميّة وتحركّت قطاعات كبيرة من داخل المدينة وبقيّة الأمصار معترضة على سيرة عثمان وعمّاله طالبةً منه العدل والسويّة والعمل وفق التعاليم الإسلاميّة، ولكن لم تنل إلّا الخيبة والفشل في مساعيها. ودخلت عائشة بنت أبـي بكر على خطّ الصراع السياسيّ والدعوة إلى إحداث التغيير في شكل السلطة القائمة، إذ كانت تحاول أن يصل طلحة إلى رئاسة السلطة، فحرّضت الناس على خلع عثمان بل قتله أيضاً[١].

أمّا معاوية فإنّه خطّط بذكاء لمقتل عثمان بعد خذلانه عندما استنجد الأخير به ثمّ كان من المطالبين بدمه[٢].

وتدخّل الإمام عليّ عليه السلام في مسعىً لأنْ يصل إلى حلّ يُغني الأمّة عن فتنة لا تحمـد عواقبها، ولكنّ بطانة السوء وضعف الخليفة جعلا مساعي الإمام لا تثمر نجاحاً.

(١) راجع: تاريخ اليعقوبي، م.س: ٣/ ٢٠٦.
(٢) شرح نهج البلاغة، م.س: ١٦/ ١٥٤.

وبعد تفاقم الأمور أسرع عثمان ليستغيث بالإمام عليّ عليه السلام الّذي تمكّن بأسلوبه الحكيم ومكانته في قلوب الجماهير أن يُقنع الثائرين على عثمان بالهدوء والتفاهم مع الخليفة. استجاب عثمان للجماهير وكتب كتاباً يتعهّد بتنفيذ الإصلاح والسير فيهم بكتاب اللّه وسيرة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، ولكنّ ضعفه أمام خبث ومكر مروان بن الحكم ومن هو على شاكلته جعله ينكث، فمثلاً كتب عثمان لأهل مصر بتولية محمّد بن أبي بكر عليهم، ثمّ ما لبث أن كتب كتاباً آخر إلى ابن أبي سرح يأمره بقتل محمّد ومن معه.

لقد أساء عثمان إلى الأمّة كثيراً فلم يُبق له صديقاً حميماً إلّا النفعيّين من بني أميّة الّذين غشّوا صحبته وخذلوا نصرته، فتكاثرت الفئات المسلّحة تحوم من أطراف البلاد الإسلاميّة حول المدينة تريد رفع الظلم، وما بقيت للحكومة المركزية سلطة ولا للخلافة هيبة.

وكان لاستعمال العنف والقسوة في التعامل مع المعترضين وإهانتهم ردّ فعلٍ معاكس. وكان مقتل عثمان نقطة تحوّل في الصراعات الدائرة بين وجهات نظر المسلمين. وبلغت المأساة قمّتها بعد مقتل عثمان حيث فُسِح المجال أمام النفعيّين في الوصول إلى الحكم بقوّة السيف بعد أن افترقت الأمّة الإسلاميّة في توجّهاتها السياسيّة، كلّ فرقة تريد الحكم لنفسها.

البيعة للإمام عليه السلام وموقفه منها

سادت الفوضى أرجاء المدينة بعد مقتل عثمان، فاتّجهت الأنظار والآراء إلى الإمام عليّ عليه السلام لينقذ الأمّة من محنتها وتخبّطها، وطالبوه بتولّي الحكم ولكنّه أبى عليهم ذلك، لا لأنّه لم يأنس من نفسه القوّة على ولاية الحكم وتحمّل تبعاته، بل لأنّه كان يدرك أنّ المدّ الثوريّ الّذي انتهى بالأمور إلى ما انتهت إليه بالنسبة إلى عثمان يقتضي عملاً ثوريّاً إصلاحيّاً يتناول دعائم المجتمع

الإسلامــيّ من النواحي الاقتصاديّة والاجتماعيّة والسياسيّة قد لا يتحمّل أعباءه كثير من الناس.

لذلـك امتنـع عن الاستجابـة الفوريّـة لضغـط الجماهيـر والصحابة عليه وقبــول بيعتهم له بالخلافة، فقد أراد أن يرى مــدى استعدادهم لتحمّل أسلوب الثــورة فــي العمل لإزالة الانحــراف الّذي حصل في العهــود السابقة، لئلّا يروا فيمــا بعد أنّه استغفلهــم، واستغلّ اندفاعهم الثوريّ؛ حيــن يكتشفون صعوبة ما ســوف يحملهم عليه، ولهــذا أجابهم الإمــام عليه السلام بقوله: «**دعوني والتمسـوا غيـري، فإنّـا مسـتقبلون أمـراً له وجـوه وألوان لا تقـوم له القلـوب ولا تثبت عليه العقول... واعلموا أنّي إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم ولم أصـغ إلى قول القائل، وعتب العاتب، وإن تركتموني فأنا كأحدكم، ولعلّي أسمعكم وأطوعكم لمـن ولّيتمـوه أمركم، وأنا لكم وزيراً خير لكم منّي أميـراً**»[(١)]، لئلّا يروا فيما بعــد أنّه استغفلهــم، واستغلّ اندفاعهم الثوريّ حيــن يكتشفون صعوبة ما سوف يحملهم عليه الإمام عليه السلام.

وتكاثــرت جمــوع النــاســ نحو الإمــام عليه السلام، وفي ذلك يقــول عليه السلام: «**فما راعنـي إلّا والناس كعرف الضـبع ينثالون علـيّ من كلّ جانب حتّى لقد وطئ الحسـنان وشُـقّ عطفـاي مجتمعيـن حولي كربيضـة الغنـم**»[(٢)]. وما كان من الإمام عليه السلام إلّا أن استجاب لإرادة الأمّة.

كانــت بيعة الإمام عليّ عليه السلام أوّل حركــة انتخاب جماهيرية. ولم يحظَ أحد من الخلفاء بمثل هذه البيعة. وبلغ سرور النـاس ببيعتهم أقصاه، فقد أطلّت عليهم حكومــة الحقّ والعــدل، وتقلّد الخلافة صاحبهــا الشرعيّ ناصــر المستضعفين

(١) نهج البلاغة، الخطبة: ٩٢.

(٢) م.ن، الخطبة: ٣ (المعروفة بالشقشقية).

والمظلومين. ويصف عليه السلام فرحة الناس بقبوله الخلافة: «**وبلغ سرور الناس ببيعتهم إيّاي أن ابتهج بها الصغير، وهَدَج إليها الكبير، وتحامل نحوها العليل، وحَسَرَتْ إليها الكِعاب**»[1].

الإصلاحات في عهد الإمام عليه السلام

كان على الإمام عليه السلام أن يقوم بعمليّة الإصلاح الشامل في أقصر وقت رغم وجود الصراعات الداخليّة، وذلك في المجالات التالية:

١ و٢ ـ الإصلاح الاجتماعيّ والاقتصاديّ:

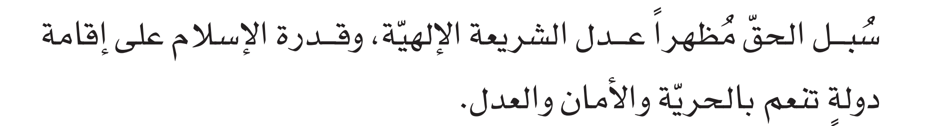
بعد نشوء المجتمع الطبقيّ في عهود الخلفاء السابقين، كان على الإمام عليه السلام أن يقوم بهدم هذا الكيان الطبقيّ، وذلك عبر ما يلي:

أ. **المساواة في العطاء بين المسلمين جميعاً:** وكان شعاره في ذلك: «**فأنتم عباد الله، والمال مال الله، يُقسم بينكم بالسويّة، لا فضل لأحد على أحد...**»[2].

ب. **العدالة في العطاء:** من بيت المال، حيث كانت الأموال الطائلة عند طبقة محيطة بالخليفة، فقال عليه السلام: «**ألا إنّ كلّ قطيعة أقطعها عثمان وكلّ مال أعطاه من مال الله فهو مردود في بيت المال، فإنّ الحقّ لا يبطله شيء، ولو وجدته قد تُزوّج به النساء ومُلك به الإماء وفُرِّق في البلدان لرددته**»[3].

ج. **المساواة أمام القانون:** فحكم عليه السلام بالحقّ والعدل، وسلك أوضح

(١) م. ن: ٢/٢٢٣.
(٢) بحار الأنوار، م.س: ٣٢/١٧.
(٣) نهج البلاغة، الخطبة: ١٥.



سُبل الحقّ مُظهراً عدل الشريعة الإلهيّة، وقدرة الإسلام على إقامة دولةٍ تنعم بالحريّة والأمان والعدل.

٣ - الإصلاح الإداريّ:

قام عليه السلام بإعفاء الولاة الّذين كان قد عيّنهم عثمان بغير وجه حقّ من مناصبهم، ونصب ولاة كانوا جديرين بهذه الأمّة، فأرسل عثمان بن حنيف بدلاً من عبد اللّه بن عامر إلى البصرة، وعلى الكوفة أرسل عمارة بن شهاب بدلاً عن أبي موسى الأشعريّ، وعلى اليمن عبيد اللّه بن العباس بدلاً عن يعلى بن منبّه، وعلى مصر قيس بن سعد بن عبادة بدلاً عن عبد اللّه بن سعد، وعلى الشام سهل بن حنيف بدلاً عن معاوية، ورفض اقتراح إبقاء معاوية على الشام حتّى يستقرّ حكمه عليه السلام ثمّ تنحيته فيما بعد. وكان كلّ هذا لسوء سيرة الولاة السابقين وفسادهم الإداريّ.

٤ و٥ - الإصلاح الدينيّ والثقافيّ

اعتبر الإمام أنّ من أوّليّات مهامّه صيانة الشريعة من الزيغ والانحراف بها عن مسارها الصحيح، فاهتمّ اهتماماً بليغاً بالقرآن الكريم وتفسيره وقرّائه، ودعا إلى رواية السنّة النبويّة وتدوينها ومدارستها، وربّى ثلّة صالحة من المؤمنين.



خلاصة الدرس

- كلّ الأحـداث الّتي جرت بعد وفاة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم لـم تُنسِ الإمام عليّاً عليه السلام أنّه الوصيّ على هذه الأمّة وعلى تطبيق الرسالة الإسلاميّة.
- وقـف الإمام عليّ عليه السلام بـروحٍ مغمورة بالمسؤوليّـة إزاء الخلفاء حرصاً على مصلحة الدين.
- أدّى تزايد الثروة لدى قطاع من المهاجرين والأنصار في أيّام عثمان إلى انتشـار روح البـذخ والإسراف وشيوع الطبقيّة والانحـراف الأخلاقيّ في المجتمع الإسلاميّ.
- عارضـ جمع من الصحابة ومـن بينهم الإمام عليّ عليه السلام سياسة عثمان وكانـت معارضتـه عليه السلام إيجابيّـة هدفها تقديم النصـح والتخفيف من الآثار السّيئة.
- أسفر مقتل عثمان عن نتائج سيّئة ظهرت آثارها في الأمّة الإسلاميّة من بعده، وامتدّت لتشكّل خطراً جديداً يحيق بدولة الإمام عليّ عليه السلام.
- كانـت بيعة المسلمين للإمام عليه السلام نموذجـاً للبيعة الجماهيرية الفريدة الّتي لم تتحقّق لأيّ واحد من الخلفاء السابقين.
- إنّ ربع قرن من العزلة السياسيّة تمخّض عن انقلاب جملة من المقاييس عنـد عامّة المسلمين تجـاه الإمام عليه السلام بالإضافة إلـى تجذّر جملة من الانحرافـات بيـن أبنـاء المجتمع الإسلامـيّ. واستدعت ظـروف الإمام إصلاحـاً شاملاً فـي المجـال الإداريّ والاقتصاديّ والدينـيّ. واستطاع الإمـام عليه السلام أن يشقّ طريقه باتّجاه المجتمـع الإسلاميّ الأمثل بالرغم من وجود عقبات كبيرة في طريق الإصلاح الشامل.



الدرس الثالث

عقبات في طريق دولة الإمام عليه السلام



أهداف الدرس:

١. أن يتعرّف الطالب إلى أبرز العقبات الّتي واجهها الإمام عليه السلام أيّام حكمه.

٢. أن يتعرّف إلى شخصيّة أمير المؤمنين عليه السلام كحاكم.

٣. أن يستذكر ملامح وآثار الانحراف عن السنّة النبويّة.

فتنة الجمل والناكثين

كانـت بيعة الناس لأمير المؤمنين عليه السلام بمنزلة صاعقة حلّت على بني أميّة وكلّ مـن يكـنّ العـداء للإسلام، وكان كلٌّ مـن طلحة والزبير يـرى نفسه قريناً للإمام عليه السلام. وكان لعائشة المقام المرموق لدى الخلفاء السابقين حيث كانت تتحـدّث كمـا تشاء. وكان معاويـة يتصرّف في الشام تصـرّف الحاكم المطلق الطامـع في السيادة على الأمّـة الإسلاميّة وتولّي أمورها بصـورة تامّة. فكانت قـرارات الإمام عليه السلام وتخطيطـه للإصلاح الشامل ضربـة قاصمة لكلّ هؤلاء، وتضـرّرت مجموعات كانـت تستغلّ مناصبها للحصول علـى الثروة الطائلة في عهـد عثمان. ولهذا كان وجود الإمام عليه السلام في قمّة السلطة يُعدّ تهديداً صارخاً لمصالح الكثير من أولئك القوم.

مـن هنا اجتمع بعضٌ على إثارة الفتن للحيلولة دون استقرار الحكم الجديد. وفـي الوقت الّذي كانـوا يحرّضون فيه النـاس على الخليفة الثالـث، والمطالبة بقتله - وكانت الغاية من ذلك أن يفوز طلحة وأمثاله بالخلافة - كانت المفاجأة الكبرى بمبايعة الناس للإمام عليّ عليه السلام بالخلافة، فما كان منهم إلّا أن أعلنوا الحـرب على وصيّ رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم وخداع المسلميـن ببعض الشعارات الزائفة

للوقوف إلى جانبهم في حربهم ضدّ الإمام عليه السلام.

وكان لمعاوية بن أبي سفيان الدور الأكبر في تأجيج نار الفتنة المشتعلة بسبب مقتل الخليفة الثالث من خلال مراسلة المتضرّرين من وصول الإمام عليّ عليه السلام إلى الحكم، وكان من أولئك الّذين راسلهم عبد الله بن الزبير مع البيعة له[1].

اجتمع في مكّة الخارجون على بيعة الإمام عليه السلام كالزبير وطلحة ومروان بن الحكم وتعاهدوا على أن يتّخذوا من دم عثمان شعاراً لتعبئة الناس ضدّ الإمام عليه السلام. وأشاعوا أن الإمام عليه السلام هو المسؤول عن إراقة دم عثمان، وخرجوا جميعاً إلى البصرة.

حاول الإمام عليّ عليه السلام أن يجنّب الأمّة المصائب وسفك الدماء، وراسل رؤوس الفتنة، فلم يلقَ تجاوباً، وبقي عليه السلام يأمل حتّى آخر لحظة قبل نشوب القتال في أن يرتدع الناكثون عن غيّهم، فلم يأذن بالقتال حتّى شرعوا هم بذلك، فالتحم الجيشان في قتال رهيب، ووصل أصحابه إلى الجمل فعقروه، وانتهت فصول المعركة بانتصار جيش الإمام عليه السلام على مخالفيه.

وبعد هذه المعركة تحرّك الإمام نحو الكوفة ليتّخذها مقرّاً له نظراً لكونها تشكّل ثكنة عسكريّة، حيث كان يقال لها كوفة الجند، ولتوسّع رقعة العالم الإسلاميّ ولقربها من الشام حيث يتحصّن معاوية، ولوقوف أهلها معه عليه السلام.

معاوية وحرب صفّين

شرع معاوية بمعاونة عمرو بن العاص، بعد استقرار الإمام عليه السلام في الكوفة يخطّط لمواجهة الإمام عليه السلام والوضع القائم، وقامت خطّته الخبيثة على التشبّث

(١) م.ن: ١/٢٣١.

بقميص عثمان كشعار لتحريك مشاعر وعقول الجماهير غير الواعية، وعبّأ أهل الشام للحرب. ورغم أنّ الإمام عليه السلام أكثر من مراسلة معاوية ومحاورته لإدخاله في بيعته، لكنّ ردّ معاوية كان هو الحرب والسعي للقضاء على الإمام عليه السلام بكلّ وسيلة.

جرت مناوشات متعدِّدة بين جيشي الإمام عليه السلام ومعاوية ولم تستعر الحرب، وحصلت هدنة بينهما، حتّى التحما في معركة رهيبة في صفّين[1] قُتِل فيها عمّار بن ياسر، وأربعة وعشرون صحابيّاً بدريّاً واستمرّ القتال أيّاماً عديدة قُتل فيها عدد كبير من الجانبين...

أظهر أصحاب الإمام عليه السلام صبرهم وتفانيهم من أجل انتصار الحقّ، وبدت الهزيمة على أهل الشام، إلى أن أشار عمرو بن العاص على معاوية برفع المصاحف على الرماح. وكانت هذه الدعوى المضلّلة سبباً لاختلاف جيش الإمام عليه السلام، فهاج الناس وكثر اللغط بينهم. وحاول الإمام عليه السلام إفهام الناس أنّ هذا الأمر خديعة وهم لا يسمعون ولا يعون حقيقة الأمر. وانطلت الخديعة على قسم كبير من جيش الإمام عليه السلام وتمرّدوا عليه ولم يعد باستطاعته أن يفعل شيئاً. وقد وصف عليه السلام حاله معهم بقوله: «**لقد كنت أمسِ أميراً فأصبحت اليوم مأموراً، وكنت بالأمس ناهياً فأصبحت اليوم منهيّاً**»[2].

وانتهت المعركة بخدعة التحكيم عندما أصرّ أصحاب الإمام المخدوعين على ترشيح أبي موسى الأشعريّ، والإمام عليه السلام يصرّ على ترشيح عبد الله بن عبّاس أو مالك الأشتر.

وأفرزت معركة صفّين ظهور الخوارج الّذين كانت صفاتهم التحجّر والتمسّك

(١) هي موضع بقرب الرقّة على شاطئ الفرات من الجانب الغربيّ.. وكانت مدّة المقام بصفّين ١١٠ أيّام، وكانت الوقائع ٩٠ واقعة، معجم البلدان، الحمويّ: ٣/٤١٤.

(٢) الكامل في التاريخ، م.س: ٣/٣١٧.

بالظواهر والتعصّب والخشونة وعدم التمييز بين الحقّ والباطل، وسرعة التأثّر بالشائعات. وصدَقَ رسول اللهﷺ في وصفهم عندما قال عنهم: «**يخرج فيكم قوم تحقِّرون صلاتكم مع صلاتهم، وصيامكم مع صيامهم، وعملكم مع عملهم، ويقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدِّين مروق السهم من الرمية**»[١].

المواجهة مع الخوارج

تجمّعت قوّات المارقين عن الدِّين قرب النهروان. وحاول الإمامعليه السلام مراراً ردعهم عن فكرتهم وسعيهم للحرب، فلم يجد فيهم إلّا الفساد والجهل والإصرار، فعبّأ جيشه ونصحهم كما هو شأنّه في كلّ معركة، وبعث إليهم رُسُله، وبيّن أنّه كره التحكيم وعارضه، وشرح سبب معارضته بوضوح... ولم يرعوِ المارقون لقوله عليه السلام وطالبوه بتكفير ما اعتبروه ذنباً وإعلان توبته. وهجم الخوارج وهم يتصايحون: «**إن الحكم إلّا لله... الرواح الرواح إلى الجنّة**». ولم تمضِ إلّا ساعة حتّى أُبيدوا عن أجمعهم، ولم ينجُ منهم إلّا أقلّ من عشرة، ولم يُقتل من أصحاب الإمامعليه السلام إلّا أقلّ من عشرة أشخاص[٢]. وكان الإمام عليه السلام قد أخبر أصحابه مسبقاً بهذه النتيجة.

فتح مصر

بعد مقتل عثمان ولّى الإمامعليه السلام قيس بن سعد بن عبادة ولاية مصر. ثمّ كلّف محمّد بن أبي بكر ليقوم مقام سعد. وبقيت مصر الجناح الآخر الّذي يُقلق معاوية فتحرّك مع عمرو بن العاص للسيطرة عليها، فزحف نحوها واحتلّها

---

(١) صحيح البخاري أبو عبد الله محمّد بن اسماعيل بن إبراهيم البخاري الجعفي:٦/١١٥، دار الفكر، ط١، ١٤٠١هـ-١٩٨١م، مصوّر عن طبعة دار الطباعة العامرة باستانبول.

(٢) تاريخ الطبري، م.س: ٥/٦٩٩.

واستشهد محمّد بن أبي بكر، فكلّف الإمامعَلَيْهِالسَّلَامُ مالك الأشتر بالذهاب إلى ولاية مصر وكتب إليه العهد المشهور وهو يتضمّن نظاماً إدارياً وسياسيّاً جامعاً.

لكنّ معاوية بمكره ودهائه تمكّن من دسّ السّم إلى مالك والقضاء عليه قبل أن يباشر الإدارة في مصر[١].

خصائص حاكميّة الإمام عليّعَلَيْهِالسَّلَامُ

ليس عليّ بن أبي طالبعَلَيْهِالسَّلَامُ بالشخصيّة التاريخية فحسب إنّما هو أمير المؤمنين، أي إنّه بالنسبة لنا الأسوة والقدوة والنموذج، نموذج للحاكم الّذي ينبغي للحكّام والقادة الاقتداء بسلوكه ومنهجه.

وإذا أردنا أن نقف على المحطّات البارزة واللامعة في حياة مولى المتّقين ونتعرّف إلى شخصيّته وحاكميّته وحكومته فما علينا إلّا أن ندرس نقطتين أساسيّتين وحساستين، لأنّ الإمامعَلَيْهِالسَّلَامُ بعنوان أنّه الحاكم والخليفة للنبيّصَلَّىاللهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ يدخل في صلب هاتين النقطتين. وهذا مع عدم إغفال النواحي الأخرى في شخصيّته المعنويّة والعرفانيّة، تلك الشخصيّة الّتي كانت مرتبطة بالفيض واللطف الدائم للّه سبحانه وتعالى.

نعم، حديثنا هو عن الإمام عليّعَلَيْهِالسَّلَامُ كحاكم إسلاميّ حكم الأمّة الإسلاميّة لفترة، من الزمن.

الأولى: إنّ البارز في حياة أمير المؤمنينعَلَيْهِالسَّلَامُ كحاكم هو التزامه وتعبّده الكامل بما جاء به الإسلام وما ورد في شريعته، فهو الّذي تربّى في كنف الإسلام وتحمّل الأذى والمصاعب في سبيله، وحضر في كلّ المواجهات والتحدّيات،

(١) م.ن: ٦/٥.

وشـارك في كلّ الحروب والغزوات الّتي جرت فـي زمن رسول الله ﷺ باستثناء حرب واحدة لم يشارك فيها بناءً على طلب الرسول ﷺ.

وفـي ذلك الوقت الّذي غُصبت منه الخلافـة، وكان يستطيع إن أراد أن يواجه المغتصبيـن لحقّـه وأن يقـوم بدعوة النـاس وتحريضهم، لـم يقم عليه السلام بذلك وضحّـى لمصلحة الإسـلام، وكذلك فعل أيضاً بعد وفـاة الخليفة الثاني، ورفض تسلّـم منصب الخلافة وفقاً للشروط الّتـي أرادوا فرضها عليه والمخالفة لكتاب الله وسنّـة النبيّ ﷺ، وأدّى هـذا الرفض إلى أن يتأخّـر بتسلّم منصب الخلافة ١٢ عاماً أخرى. وطوال فترة حياته الّتي سبقت تسلّمه الخلافة كان دائماً يجاهد ويتحـرّك في سبيل خدمـة الإسلام والشريعـة. لذا فمن الطبيعـيّ أن يعمل على تطبيق الأحكام الإسلاميّة حين تسلّمه للخلافة وعلى تحكيم الثوابت الإسلاميّة.

الثانية: إنّ الإمام عليّاً عليه السلام كشخصيّة حاكمة لم يكن مستعدّاً على الإطلاق أن يهادن ويصالح الأشخاص الّذين لم يكونوا يتحرّكون في ضمن خطّه ومسيرته، فهو تلميذ النبيّ ﷺ الّذي كانت حياته كلّها شاهدة على رفض المهادنة والأهواء الّتـي تعارض الحـقّ والعدل. ولو كان أميـر المؤمنين عليه السلام مستعـدّاً أن يهادن لـكان استطاع أن يحدّ من نفوذ القـادة والشخصيّات المعادية له، ولو كان أيضاً مستعدّاً للتخفيف من مواجهته لأعداء الإسلام والحكومة الإسلاميّة فمن المؤكّد لم تكن لتواجهه كلّ هذه المشاكل والمصاعب.

وهنـا كان امتيـاز علـيّ عليه السلام الحاكم عن غيره مـن الحـكّام، فأولئك كانوا مستعدّين أن يتحالفوا مع أيّ طرف ضدّ عدوّهم، فنرى معاوية وعمرو بن العاص المتنافسيـن والمتخالفين فيمـا بينهما، يقفان جنباً إلى جنـب لمواجهة الإمام علـيّ عليه السلام، وكذلك إذا نظرنا إلى طلحة والزبير من جهة وإلى معاوية من جهةٍ أخـرى، فلقد كانـوا متعادين لكنّهم كانوا مستعدّين أن يتحـدّوا ويقفوا جنباً إلى

جنــب لمحاربتــه عليه السلام بينما رفض الإمام عليه السلام أن يتحالــف مع طلحة والزبير ضدّ معاوية.

انهيار الأمّة وتفكّكها

بدأت بوضوح ملموس ملامح وآثار الانحراف الّذي حصل يوم السقيفة في نهاية أيّام حكم الإمام عليه السلام ، حيث بدأ معاوية ومن اقتفى أثره في محاربة الإسلام من داخــل الإسلام بتفكيك ما بقي مــن أواصر تماسك المجتمع الإسلاميّ، وتخريبه وبنــاء مجتمع ينسجم وفق رغباتهم وأهوائهم. ويمكننــا أن نلحظ حال الأمّة بعد خوض الإمام عليه السلام ثلاث معارك هامّة لاجتثاث الفساد، فيما يلي:

١. مُني الإمام عليه السلام والأمّة بفقد خيار الصحابة الواعين الّذين كان يمكن من خلالهم بناء الأمّة الصالحة وفق نهج القرآن والسنّة بإشراف الإمام عليه السلام .
وقد بلغ الحزن في نفس الإمام مبلغاً عظيماً نجده في نعيه لهم بقوله:

«مـا ضـرّ إخواننا الّذيـن سفكت دماؤهـم بصفّين أن لا يكونـوا اليوم أحياءً يسيغون الغصص ويشربون الرنق، قد والله لقوا الله فوفّاهم أجورهم وأحلّهم دار الأمـن بعـد خوفهـم... أيـن إخوانـي الّذيـن ركبـوا الطريـق ومضـوا على الحقّ؟ أين عمّار؟ وأين ابن التيهان؟ وأين ذو الشهادتين؟ وأين نظراؤهم من إخوانهم الّذين تعاقدوا على المنيّة...»[(١)].

٢. تمـرّد الجيش وتفكّكه وظهور الضعف والسأم من الحرب؛ لكثرة من قُتل مــن أهل العراق الّذين يشكّلون العمود الفقريّ لفِرق جيش الإمام عليه السلام .
ولم يتمكّن بما يملك من قدرة خطابيّة رائعة وحجّة بالغة أن يبعث الاندفاع والحزم في قاعدته الشعبية لمواصلة الحرب. وممّا زاد من تفتيت الجيش عـدم توقّف معاوية عن مخاطبة زعماء القبائل والعناصر الّتي يبدو منها

(١) شرح نهج البلاغة، م.س: ١٠/٩٩.

حـبّ الدنيا، فمنّاهم بالأموال والهبات والمناصب إذا قاموا بكلّ ما يؤدّي إلى إضعاف قوّة الإمام وجماهيره المؤيّدة.

٣. لقد أتاح الظرف الّذي مرّ به الإمام عليه السلام والأمّة الإسلاميّة لمعاوية أن يقوم بشنّ غارات على أطراف البلاد الإسلاميّة، فمارس القتل والسبي والإرهاب، فبدأ بالهجوم على أطراف العراق فأرسل النعمان بن بشير الأنصاريّ للإغارة على منطقة «**عين التمر**»، ووجّه سفيان بن عوف للإغارة على منطقة «**هيت**»، ثمّ على «**الأنبار والمدائن**»، وإلى «**واقصة**» وجّه معاوية الضحّاك بن قيس الفهريّ... وفي كلّ مرّة كان يحاول الإمام عليه السلام دعوة الجماهير لمقاومة غارات معاوية فلم يلقَ الاستجابة السريعة. وأدرك معاوية ضعف قوّة حكومة الإمام عليه السلام وتزايد قوّته[1].

وبعـث معاوية بسر بن أرطأة للإغارة علـى الحجاز واليمن، فعاث في الأرض فسـاداً وقتلاً للأبرياء. وبلغ الأسى والأسـف في نفس الإمام عليه السلام مبلغاً عظيماً ممّا يفعل المجرمون ومن تخاذل الناس عنه، فكان يصرّح بضجره من تخاذلهم وتقاعسهـم، وقال مـرّة: «**اللّهم إنّي قد مللتهم وملّوني وسئمتهم وسئموني فأبدلني بهم خيراً منهم وأبدلهم بي شرّاً منّي**»[2].

وقد أنـذر الإمام عليه السلام الأمّـة الإسلاميّـة بمستقبل مظلـم وآلام كثيرة تحلّ بهـا، نتيجة لما آلت إليه من تقاعس وتخاذل عـن نصرة الحقّ، فقال: «**أما إنّكم ستلقون بعدي ذلّاً شـاملاً وسـيفاً قاطعاً وأثرةً يتّخذها الظالمون فيكم سنّة، فيفـرّق جماعتكـم، ويُبكـي عيونكـم ويُدخل الفقـر بيوتكم وتتمنّـون عن قليل**

(١) تاريخ الطبري، م.س: ١٠٢/٤ و١٠٣.

(٢) نهج البلاغة، م.س: ٦٦/١.

أنّكم رأيتموني فنصرتموني، فستعلمون حقّ ما أقول لكم»[١].

لكنّ معاوية تمكّن من نشر الفساد والرعب في أطراف الدولة الإسلاميّة، وحاول الإمام عليه السلام في آخر لحظات حياته أن يقوم بحملة واسعة يستنهض فيها الأمّة الإسلاميّة، فخاطب الجماهير وهدّدهم بشكل حازم، فاستجاب له الناس وخرج وجهاء الأمّة الإسلاميّة للاستعداد لملاقاة معاوية والقضاء على الفساد، وخرج الناس إلى معسكراتهم في منطقة «**النخيلة**» خارج الكوفة، وتحرّكت بعض قطعات الجيش تسبق البقيّة مع الإمام عليه السلام الّذي بقي ينتظر انقضاء شهر رمضان، لكنّ يد الغدر والخيانة سبقتهم إلى إطفاء نور الهدى ليبقى الظلام يلفّ انحرافهم وفسادهم، وامتدّت يد الشيطان لتصافح ابن ملجم في عتمة الليل، وفي ختلة وغدرة هوت بالسيف على هامة طالما استدبرت الدنيا واستقبلت بيت الله وهي ساجدة، وغادرتها منها في تلك الحال، واستُشهد أمير المؤمنين عليه السلام.

خلاصة الدرس

- حاول الإمام عليه السلام القضاء على فتنة أهل الجمل بالحكمة والنصيحة، ولكنّ نصائحه لم تؤثّر فيهم.
- عامل الإمام عليه السلام أصحاب الفتنة بعد خسارتهم المعركة معاملة حسنة وجهّز عائشة وسرّحها بما يحفظ كرامتها.
- استطاعت قوات الإمام عليه السلام في صفّين أن تعصف بقوّات معاوية حتّى بان الوهن فيهم، وهنا أشار عمرو بن العاص بحيلة رفع المصاحف لخديعة البسطاء من جيش الإمام عليه السلام.

(١) م.ن، الخطبة: ٢٥.

- لعبت سياسة المكر والخداع الّتي مارس عمرو بن العاص أدوارها الشائنة في تحريض معاوية على الوقوف بوجه الإمام عليه السلام، فتمخّضت عن ذلك صرف الأمّة عن مسار الرسالة الإسلاميّة الّذي كان يمثّله الإمام عليه السلام.
- تميّـزت حاكمية الإمام عليّ عليه السلام بالالتزام والتعبّد الكامل بالإسلام وما ورد في شريعته الغرّاء، وعدم المهادنة لأهل الباطل.
- بدأت تظهر ملامح وآثار انهيار الأمّة وتفكّكها من خلال فقد الأمّة لخِيار الصحابـة، وتمرّد الجيشـ العلويّ وتفكّكه وظهور الضعـف، وشنّ معاوية الغارات على أطراف البلاد الإسلاميّة.



الدرس الرابع

الزهراء عليها السلام بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم



أهداف الدرس:

١. أن يتعـرّف الطالب إلى موقف الزهراء عليها السلام من اغتصاب الخلافة.
٢. أن يتبيّن الأمور المتعلّقة بفدك.
٣. أن يستذكر مظاهر المعارضة الفاطميّة.

تمهيد

لـم تلبـث سيّدة نساء العالمين عليها السلام بعد رسـول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم إلّا قليلاً، لكنّ هذه الفترة كانت ملئى بالحوادث الّتي غيّرت مجرى التاريخ، من تخاذل الأمّة عن وصيّ رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم، إلى هجر سنّة الرسول ووصاياه صلى الله عليه وآله وسلم، ومن ثمّ التخلّف عن العترة الطاهـرة الّتي أوصى صلى الله عليه وآله وسلم بالتمسّك بها مع القرآن، وصار بيت فاطمة عليها السلام بيتاً للأحـزان بعد فِـراق أبيها، وقِلى صحابتـه لها ولبعلهـا عليهم السلام. وللزهراء عليها السلام مواقف وشواهد في مواجهة ما حصل. سنتعرّض لها خلال الفقرات التالية.

موقف الزهراء عليها السلام من الخلافة

وقفـت السيّدة الزهراء عليها السلام إلى جانب الإمام عليّ عليه السلام لا بدافع العاطفة الزوجيّـة، وإنّمـا المسؤوليّة الشرعيّة هـي الّتي كانت تُملي عليهـا هذا الموقف. وكانـت تعبّـر عن رفضهـا لاغتصاب الخلافـة بخروجها مع الإمـام عليه السلام إلى مجالسـ الأنصار لتسألهم النصرة، فكانوا يقولون: يا بنت رسول اللّه قد مضت بيعتنـا لهذا الرجل، ولو أنّ زوجك وابن عمّك سبـق إلينا قبل أبي بكر، ما عدلنا به، فيقول الإمام عليه السلام: «**أفكنتُ أدع رسـول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم في بيته لم أدفنه، وأخرج أُنازع الناس سلطانه؟**».

وكانت عليها السلام تقول: «**ما صنع أبو الحسن إلّا ما كان ينبغي له، ولقد صنعوا ما الله حسيبهم وطالبهم**»[1].

واستمرّت الزهراء عليها السلام تدعو الأنصار إلى نُصرة الإمام عليّ عليه السلام دون أن تجد معيناً على ذلك.

وبقي بيت فاطمة عليها السلام مقرّاً للموالين لعليّ عليه السلام يخطّطون فيه لإعادة الخلافة إليه. لكنّ الحزب الحاكم كان مصمّماً على ضرب المعارضة أنّى كانت ومهما كلّف الأمر. ومن هنا تجرّأوا على اقتحام بيت الزهراء عليها السلام والإمام عليّ عليه السلام وأحرقوا الباب بالنار متحدّين ابنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بكلّ قوّة وأكرهوا الإمام عليّ ومن معه على البيعة وهدّدوهم بالقتل إن لم يبايعوا.

السلطة ومصادرة فدك

قرّرت السلطة الحاكمة أن تُصادر فدكاً لتشلّ كلّ مصادر القوّة المادّية الّتي قد يستفيد منها الإمام عليه السلام ضدّ السلطة لإحباط الإنقلاب. ولهذا سارع الخليفة لإصدار قرار بتأميم فدك وسلبها من فاطمة عليها السلام، وذلك بعد أن استوسق له الأمر في كرسي الحكم؛ فبعث إلى فدك من يُخرج وكيل فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. ولأجل استيعاب البحث حول فدك لا بدّ من التحدّث عن الأمور التالية:

الأوّل: ما هي فدك؟

ذكر اللغويّون أقوالهم في فدك، فقال «**صاحب القاموس**»: فدك قرية في خيبر، وفي «**المصباح**»: فَدَك - بفتحتين - بلدة بينها وبين مدينة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم يومان، وهي ممّا أفاء الله على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم. وفي «**معجم البلدان**»: فدك: قرية بالحجاز بينها وبين المدينة يومان، وقيل ثلاثة، أفاءها الله على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم في سنة سبع صلحاً، وذلك أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم لمّا نزل خيبر وفتح حصونها ولم يبق إلّا

(١) شرح نهج البلاغة، م.س: ١٣/٦.

ثلاثـة منها واشتدّ بهم الحصار أرسلوا إلى رسـول اللّه ﷺ يسألونه أن ينزلهم على الجلاء، وفعل، وبلغ ذلك أهل فدك فأرسلوا إلى رسول اللّه ﷺ أن يصالحهم علـى النصف من ثمارهم وأموالهم، فأجابهم إلى ذلك، فهو ممّا لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب فكانت خالصة لرسول اللّه ﷺ[1].

الثاني: هل كانت فدك لرسول الله ﷺ خاصّة أم للمسلمين عامّة؟

قـال اللّه تعالـى: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٦ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾[2].

والمعنى: أفاء اللّه أي ردّ اللّه ما كان للمشركين على رسوله بتمليك اللّه إياه منهم، أي من اليهود الّذين أجلاهـم. ﴿فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ﴾ أوجف خيلـه أي أزعجه في السير، والـركاب هنا: الإبل، والمعنى مـا استوليتم عليه مـن تلك الأموال بخيولكم أي ما ركبتم خيولكـم وإبلكم لأجل الاستيلاء عليه ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ﴾ أي يمكّـن اللّه رسلـه من عدوّهم من غير قتال، بـأن يقذف الرعب في قلوبهـم، فجعل اللّه أموال بنـي النضير لرسوله خالصة يفعل بها ما يشاء، وليست من قبيل الغنائم الّتي توزَّع على المقاتلين. ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ﴾ أي مـن أمـوال كفّـار أهـل القرى، ﴿فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ أي جعـل اللّه تلـك الأموال ملـكاً لرسولـه ﴿وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ يعني قرابة النبيّ ﴿وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ من القربى.

وبهـذا التفسيـر يتبيّن أنّ فدكَ صارت خالصـة لرسول اللّه ﷺ. وفي مجمع البيـان عن ابن عباس أنّ الآية نزلت في أموال كفّار أهل القرى وهم قريظة وبنو النضير وهمـا بالمدينة، وفدك وهي من المدينة على ثلاثة أميال، وخيبر وقرى

(١) راجع: فاطمة الزهراء من المهد إلى اللحد، محمّد كاظم القزويني: ٢٢٢، طباعة المؤلف.

(٢) سورة الحشر، الآيتان: ٦ ـ ٧.

عرينــة وينبُع جعلهــا اللّه لرسوله يحكم فيها ما أراد، وأخبــر أنّها كلّها له، فقال أناس: فهلّا قسّمها فنزلت الآية[١].

الثالث: هل دفع الرسول ﷺ فدكَ إلى ابنته الزهراء نحلة وعطيّة في حياته أم لا؟

قــال تعالــى: ﴿ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[٢]. نلاحـظ أنّ هذه الآية خطاب من اللّه عزَّ وجلَّ إلى نبيّه محمّد ﷺ يأمره أن يؤتي ذا القربى حقّه، فمن هو ذو القربى؟ وما هو حقّه؟

الجواب: قد اتّفق المفسّرون أنّ ذا القربى هو ابنته فاطمة عليها السلام.

جــاء في الــدرّ المنثور للسيوطــيّ عن أبي سعيــد الخدريّ أنّه قــال لمّا نزلت الآيــة: ﴿ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ دعــا رســول اللّه ﷺ فاطمــة الزهــراء وأعطاهــا فــدكَ[٣]. كما ذكر ابن حجر العسقلانيّ في الصواعق المحرقة مثل هذا المعنى والمضمون[٤].

الرابع: هل يورِّث رسول الله ﷺ أم لا؟

يُستفاد من الروايات أنّ النبيّ ﷺ أعطى فاطمة فدكَ بعنوان النحلة والعطيّة بأمر اللّه تعالى حيث أمره بقوله: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ ﴾.

وحينمــا احتــجّ أبو بكــر بحديث نسبــه إلــى رســول اللّه ﷺ: «**إنّ الأنبياء لا**

(١) مجمــع البيــان، الفضل بن الحسن الطبرسيّ، راجع تفسيــر سورة الحشر، الآية: ٧، انتشارات ناصر خسرو، طهران، عن طبعة بيروت، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.

(٢) سورة الروم، الآية: ٣٨.

(٣) الدرّ المنثور، جلال الدِّين السيوطي: ١٧٧/٤، دار المعرفة، بيروت.

(٤) الصواعق المحرقة في الرّد على أهل البدع والزندقة، ابن حجر العسقلاني: ٢٥، القاهرة، ط ٢، ١٩٦٥م.

يورّثون» قالت عليها السلام: «إنّ فَدَكَ وهبها لي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم**»**، وشهد عليّ عليه السلام وأمّ أيمن بذلك، وشهد عمر وعبد الرحمن بن عوف أنّه صلى الله عليه وآله وسلم كان يقسمها[1].

ولمّا بلغها عليها السلام قرار أبي بكر قدِمت ومعها بعض النساء فدخلت على أبي بكر وخطبت خطبة بليغة وقالت: «... **ثمّ أنتم الآن تزعمون أن لا إرث لي.. أبى الله أن ترث يا ابن أبي قحافة أباك، ولا أرث أبي؟! لقد جئت شيئاً فريّاً...**»[2].

والحاصل أنّها عليها السلام كانت تطلبها بالميراث تارة وبالنِّحلة أخرى فدُفعت عنها.

الخامس: هل كانت السيّدة الزهراء عليها السلام تتصرّف في فدك في حياة أبيها الرسول أم لا؟

يُستفاد من تصريحات المؤرّخين والمحدِّثين أنّ السيّدة الزهراء كانت تتصرّف في فدك، وأنّ فدك كانت في يدها، ويدلّ على ذلك تصريح الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في الكتاب الّذي أرسله إلى عثمان بن حنيف عامله على البصرة فإنّه ذكر فيه: «... **بلى كانت في أيدينا فدك من كلّ ما أظلّته السماء، فشحّت عليها نفوس قوم وسخت عنها نفوس قوم آخرين، ونِعمَ الحَكَم الله...**»[3].

أدلّة ملكيّة الزهراء عليها السلام لفدك

إنّ امتلاك السيّدة الزهراء عليها السلام لفدك وفقاً لما تقدّم يُصبح أمراً يقينيّاً، ففضلاً عن عصمتها عليها السلام وأنّها لا تدّعي إلّا حقّاً، ولكن من باب الإلزام نضيف ثلاثة وجوه تُثبت ذلك:

الأوّل: أنّها كانت ذات يد، أي كانت متصرّفة في فدك، فلا يجوز انتزاع فدك

(1) شرح نهج البلاغة، م.س: ١٦/٢١٦.
(2) م.ن: ١٦/٢١٢.
(3) نهج البلاغة، رسالة الإمام عليّ عليه السلام إلى واليه على البصرة عثمان بن حنيف.

من يدها إلّا بالدليل والبيّنة، كما قال رسول اللّه ﷺ: «البيّنة على المدّعي، واليمين على المدّعى عليه»(١). وما كان على السيّدة الزهراء عليها السلام أن تقيم البيّنة لأنّها ذات يد.

الثاني: أنّها كانت تملك فدك بالنحلة والعطيّة والهبة من أبيها رسول اللّه ﷺ. وهي ليست إرثاً بعد وفاته حتّى يُقال لها إنّ الأنبياء لا تورّث...

الثالث: لو سلّمنا أنّها ليست نحلة فهي على الأقل إرثٌ من رسول اللّه ﷺ. ومن المعلوم في الإسلام أنّ البنت ترث أباها، فهي كانت تستحقّ فدك بالإرث من رسول اللّه ﷺ، ولكنّ القوم خالفوا هذه الوجوه الثلاثة، حيث طالبوها بالبيّنة وطالبوها بالشهود على النحلة، وأنكروا وراثة الأنبياء.

وبإمكان السيّدة فاطمة عليها السلام أن تطالب بحقّها بكلّ وجه من هذه الوجوه.

المعنى الرمزيّ والسياسيّ لفدك

إنّ الحركة التصحيحيّة الّتي قام بها الإمام عليّ عليه السلام والزهراء عليها السلام لإعادة الخلافة الإسلاميّة عن جادة الانحراف اكتسبت ألواناً متعدّدة، وتنوّعت أساليب المطالبة بحقّ خلافة الإمام عليّ عليه السلام، ومنها مطالبة السيّدة الزهراء عليها السلام بفدك.

فليست المسألة مسألة مطالبة بأرض، بل يتجلّى منها مفهوم أوسع من ذلك ينطوي على غرض طموح يبعث إلى الثورة، ويهدف إلى استرداد حقّ مغتصب ومجد عظيم وتصحيح مسيرة أمّة انقلبت على أعقابها. وقد أحسّ الحزب الحاكم بذلك، فتراه قد بذل قصارى جهده في التحدّي والثبات على موقفه.

ولو فحصنا أيّ نصّ من النصوص التاريخيّة المتعلّقة بفدك فلا نجد فيه نزاعاً مادّياً أو اختلافاً حول فدك بمعناها الضيّق وواقعها المحدود، بل هي

(١) من لا يحضره الفقيه، الشيخ الصدوق:٣/٣٢.تحقيق علي أكبر الغفاري، ط٢، مؤسسة النشر الإسلامي.

الثورة على أساس الحكم المنحرف والصرخة الّتي أرادت لها الزهراء عليها السلام أن تصل إلى كلّ الآفاق، لتقتلع بها أساس الظلم الّذي بُني يوم السقيفة.

ويكفينا لإثبات ذلك أن نلقي نظرةً فاحصةً على خطبة الزهراء عليها السلام في المسجد أمام الخليفة وبين حشود المهاجرين والأنصار، فإنّها تناولت في أغلب جوانبها امتداح الإمام عليّ عليه السلام والثناء على مواقفه الجهاديّة الخالصة لخدمة الإسلام، وتسجيل الحقّ الشرعيّ لأهل البيت عليهم السلام الّذين وصفتهم بأنّهم الوسيلة إلى الله في خلقه وخاصّته ومحلّ قدسه وحجّته، وورثة أنبيائه في الخلافة والحكم.

وحاولت عليها السلام أن تنبّه المسلمين إلى غفلتهم وسكوتهم عن الحقّ، وانقلابهم على أعقابهم بعد هداهم، والفتنة الّتي سقطوا فيها، والدوافع الّتي دفعتهم إلى ترك كتاب الله ومخالفته فيما يحكم به في مسألة الخلافة والإمامة.

فالمسألة إذن ليست مسألة تقسيم ميراث أو قبض نحلة بل هي في نظر الزهراء عليها السلام قضيّة ولاية وخلافة أميطت عن صاحبها الشرعيّ.

الزهراء عليها السلام والقضاء على نتائج السقيفة

إنّ ما قدّمناه حول المعنى الرمزيّ لمطالبة الزهراء عليها السلام بفدك يكشف لنا بوضوح أنّها عليها السلام أرادت من وراء ذلك توعية الرأي العام وتنبيه الأمّة لما جرى في السقيفة، وما ترتّب على ذلك من نتائج، والّتي بدأت تظهر معالمها بالتعدّي على حقوق آل البيت عليهم السلام.

وهذا ما استكملته الزهراء عليها السلام في حديثها مع نساء المهاجرين عند زيارتهنّ لها، فقد أوضحت لهنّ أنّ أمر الخلافة انحرف عن مساره الشرعيّ بإقرار أصحاب السقيفة على مسند الحكم، ولو أنّهم وضعوا الأمر حيث أمر الله تعالى ورسوله وأعطوا زمام القيادة للإمام عليه السلام لبلغوا رضى الله وسعادة الدنيا والآخرة.

قالت عليها السلام: «... ويحهم أنّى زحزحوها عن رواسي الرسالة، وقواعد النبوّة والدلالة ومهبط الروح الأمين، والطبين[1] بأمور الدنيا والدين، ألا: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾، وما الّذي نقموا من أبي الحسن؟ نقموا منه والله نكير سيفه...»[2].

ولعلّ الشاهد أو الدليل على مقاصد الزهراء عليها السلام هو ردّ فعل السلطة الحاكمة الّتي التفتت وتنبّهت إلى ذلك، ولذا كان ردّ الخليفة بعدما انتهت الزهراء عليها السلام من خطبتها أن قام بشنّ هجوم عنيف على الإمام عليّ عليه السلام ووصفه بأنّه ثعالة وأنّه مربّ لكل فتنة وأنّ فاطمة ذَنَبه التابع له[3]. ولم يتطرّق في ردّه إلى موضوع الميراث أو النحلة، وما هذا إلّا لأنّه فهم أنّ احتجاج الزهراء عليها السلام لم يكن حول الميراث أو النحلة، وإنّما كان حرباً سياسيّة وتظلّماً لحقّ الإمام عليّ عليه السلام وإظهاراً لدوره العظيم في الأمّة والّذي أراد من اغتصب الخلافة إبعاده عنه.

مظاهر المعارضة الفاطميّة

يُمكن تلخيص المعارضة الفاطميّة في عدّة مظاهر:

١- إرسالها من ينازع أبا بكر في مسائل الميراث ويطالب بحقوقها[4].

٢- مواجهتها بنفسها له في اجتماع خاصّ[5].

٣- خطبتها في المسجد بعد عشرة أيّام من وفاة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم[6].

٤- جوابها لأبي بكر وعمر حينما زاراها بقصد الاعتذار منها، وإعلانها

(١) أي الحاذق.
(٢) فدك في التاريخ، م.س: ٦٥.
(٣) شرح نهج البلاغة، م.س: ١٦/ ٢١٥.
(٤) م.ن: ١٦/ ٢١٨ـ ٢١٩.
(٥) م.ن: ١٦/ ٢٣٠.
(٦) م.ن: ١٦/ ٢١١.

غضبها عليهما، وأنّهما أغضبا اللّه ورسوله ﷺ بذلك[١].

٥- خطابها الّذي ألقته على نساء المهاجرين والأنصار لمّا اجتمعن عندها[٢].

٦- وصيّتها بأن لا يحضر تجهيزها ودفنها أحد من خصومها[٣]، وكانت هذه الوصيّة الإعلان الأخير من الزهراء عليها السلام عن نقمتها على الخلافة القائمة.

اعلموا أنّي فاطمة

إنّ خطبة الزهراء عليها السلام لهي شعلة حقٍّ يعجز المرء عن وصفها، ويؤمن من خلال دقّة معانيها وقوّة بيانها أنّها صادرة عن سيّدة طاهرة معصومة قال في حقّها الإمام الخمينيّ قدس سره: «**حقيقة المرأة الكاملة... حقيقة الإنسان الكامل.. امرأة لو كانت رجلاً لكان نبيّاً..**»[٤] تقول عليها السلام: «**اعلموا أنّي فاطمة وأبي محمّد ﷺ، أقول عوداً وبدءاً ولا أقول ما أقول غلَطا، ولا أفعل ما أفعل شططا،** ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[٥] **فإن تعزوه وتعرفوه تجدوه أبي دون نسائكم، وأخا ابن عمّي دون رجالكم..**».

ثمّ تبيّن عليها السلام عظمة أمير المؤمنين عليه السلام وتذكّر بمناقبه ومواقفه وبلاءه بين يدَي رسول اللّه ﷺ، فتقول: «**فأنقذكم الله تبارك وتعالى بمحمّد** ﷺ، **وبعد أن مُنيَ ببُهم الرجال وذؤبان العرب، ومَرَدة أهل الكتاب** ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا

(١) م. ن: ١٦/ ٢٦٤ - ٢٨١.
(٢) م. ن: ٢٣٣/١٦.
(٣) م. ن: ٢٨١/١٦.
(٤) صحيفة نور: ٢٥٠/٧.
(٥) سورة التوبة، الآية: ١٢٨.

﴿لِّلۡحَرۡبِ أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُ﴾[1]، أو نجم قرن للشيطان أو فغرت فاغرة من المشركين قذف أخاه في لهواتها فلا ينكفئ حتّى يطأ جناحها بأخمصه، ويُخمد لهبها بسيفه مكدوداً في ذات الله، مجتهداً في أمر الله...» أمّا حالكم أيّها الحزب الحاكم فأنتم «في رفاهيّة من العيش وادعون فاكهون آمنون تتربّصون بنا الدوائر وتتوكّفون الأخبار وتنكصون عند النزال وتفرّون من القتال... ﴿أَلَا فِي ٱلۡفِتۡنَةِ سَقَطُواْۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[2]..»[3].

ختاماً فإنَّ خطبة الزهراء عليها السلام هي وثيقة سياسيّة تاريخيّة، بحاجة منّا إلى دراسة معمّقة لا يمكن أن تحويها هذه الأسطر، إلّا أنّ ما تعرّضنا له منها ومن مواقفها عليها السلام يعتبر إطلالة موجزة ومختصرة وقبس من نور، لا بدّ للطالب أن يستزيد منه ويتعمّق فيه.

خلاصة الدرس

- وقفت الزهراء عليها السلام إلى جانب الإمام عليّ عليه السلام من منطلق المسؤولية الشرعيّة وعبّرت عن ذلك من خلال عدّة مواقف منها: خروجها مع الإمام عليه السلام إلى المسلمين وطلبها النصرة منهم.
- قرّرت السلطة الحاكمة مصادرة فدك لتشلّ كلّ المصادر المالية الّتي قد يستفيد منها الإمام عليّ عليه السلام ضدّ السلطة لإحباط المؤامرة.

(١) سورة المائدة، الآية:٦٤.
(٢) سورة التوبة، الآية: ٤٩.
(٣) راجع: الاحتجاج، م.س: ١/١٣١-١٤٤.

- كلّ الأدلّة تشير إلى أنّ فدكَ كانت ملكاً للزهراء عليها السلام إمّا لأنّها هديّة من النبــيّ صلى الله عليه وآله وسلم أو إرث منه صلى الله عليه وآله وسلم لهــا عليها السلام، وفدك كانت ملكاً خاصاً له صلى الله عليه وآله وسلم يتصرّف فيها كيفما يشاء.
- لــم تكن مطالبــة الزهراء عليها السلام بفــدك مسألة مطالبة بأرض بل كانت إشــارة منها إلى معنــى سياسيّ كبير يرتبط بغصــب الخلافة من الإمام عليّ عليه السلام.





الدرس الخامس

الإمام عليّ والتمهيد لإمامة الحسن عليه السلام



أهداف الدرس:

١. أن يتعرّف الطالب إلى شخصيّة معاوية.

٢. أن يتبيّن أوضاع جيش الإمام الحسن عليه السلام.

٣. أن يستذكر الظروف التي ألجأَت الإمام عليه السلام للصلح.

الإمام الحسن في عهد أبيه عليهما السلام

كان الإمــام أمير المؤمنين عليه السلام يوجّه الأنظار إلى إمامة ولده الحسن عليه السلام ومقامــه السامي وخصائصه وكفاءته. فقد كان عليه السلام يسأله المسائل المختلفة علــى مــرأى ومسمع المــلأ من أصحابــه، والحســن عليه السلام يُجيب عنهــا بأجوبة شافية.

وكان الإمام عليّ عليه السلام يكلّفه بالمهام الصعبة، ويبعثه لحلّ الأزمات، ويُشركه فــي المواقف الحرجــة. فقد بعثه إلى أهل الكوفة لعــزل الأشعريّ، وأمره بإجابة عبــد الله بن الزبيــر في معركة الجمل، وأمره بنقض حكــم الحَكَميْنِ في صفّين لمخالفتهما القرآن.

وفي اليومين الأخيرين من حياته عليه السلام أدنى ابنه الحسن عليه السلام إليه وأوصاه قائــلاً: «**يــا بنيّ إنّــه أمرني رســول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن أوصــي إليك، وأدفــع إليك كتبي وســلاحي... وأمرنــي أن آمــرك إذا حضــرك المــوت أن تدفعهــا إلــى أخيــك الحسين...**»[1].

(١) إعــلام الــورى بأعلام الهدى، الشيخ أبو الفضل ابن الحسن الطبرسي: ١/٤٠٥، مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، قم، ط ١، ١٤١٧هـ.

وبعد استشهاد الإمام عليّ عليه السلام اجتمع الناس حول الإمام الحسن عليه السلام وبايعوه، وكان أوّلهم عبد الله بن العباس، وبلغ عدد المبايعين أكثر من أربعين ألفاً[١]، وبقي نحو سبعة أشهر خليفة بالعراق، وما وراءه من خراسان والحجاز واليمن.

الحسن عليه السلام وتمرّد معاوية

كتب الإمام الحسن عليه السلام بعد تسلّمه الخلافة إلى معاوية كتاباً، أرسله مع جندب بن عبد الله الأزديّ يدعوه فيه إلى الطاعة وعدم التمادي في الباطل وحقن الدماء، فأجابه معاوية متمرّداً، وبعث الجواسيس إلى الكوفة والبصرة لإشاعة البلبلة والاضطراب بين الناس وإفساد الوضع.

وظلّ الإمام عليه السلام يبادل معاوية الرسائل لإلقاء الحجّة عليه في حقن دماء المسلمين، إلّا أنّ معاوية تمادى في غيّه وتمرّده. وكان آخر كتاب من معاوية يتضمّن تهديده للإمام الحسن عليه السلام، فأجابه الإمام عليه السلام بما يليق به، وعلى الأثر بدأ معاوية بتحرّكاته العسكريّة وسار إلى العراق بجيشٍ تعداده ستّون ألفاً أو أكثر.

مؤامرات معاوية

تحرّك الإمام عليه السلام لمواجهة معاوية بجيشٍ كبير بقيادة عبيد الله بن العبّاس. وحاول معاوية الإغارة على جيش الإمام عليه السلام فلم يقدر ورجعت خيله مقهورة، فلجأ إلى الحيلة فأرسل إلى عبيد الله بأنّ الحسن عليه السلام قد راسله في الصلح، وطلب إليه الدخول في طاعته مقابل ألف ألف درهم، فانطلت الخديعة على عبيد الله، فانسلّ ليلاً ودخل عسكر معاوية ومعه ثمانية آلاف[٢] فتسلّم القيادة

(١) شرح نهج البلاغة، م.س: ١٦/ ٣٠ و٣١.

(٢) تاريخ اليعقوبي، م.س: ٢/ ٢١٤.

مـن بعده قيس بـن سعد بن عبادة. وحاول معاوية أيضـاً إغراءه بالمال فرفض. لكنّ معاوية استمرّ في دسائسه، وتوالت الخيانات في جيش الإمام عليه السلام والتحق الكثير منهم بمعاوية.

وقد كان جيش الإمام الحسن عليه السلام متعدّد الولاءات، فبعضهم شيعة له، وبعضهم خوارج، وبعضهم أصحاب فتن وطمع في الغنائم، وبعضهم أصحاب عصبيّة اتّبعوا رؤساء قبائلهم، وبعضهم له ولاء للأمويّين وله اتصالات سرّية معهم، فلا غرابة من توالي الخيانات، وعدم الثبات مع الإمام عليه السلام حتّى النهاية.

واستمرّ معاوية في بث الدسائس وإشاعة الخبر عن قيس بن سعد ومصالحته لـه والتحاقه به، وكذلك عن الإمام الحسـن عليه السلام وقبوله الصلح.. وبعد تعرّض الإمـام عليه السلام لعدّة محاولات استهدفـت قتله، وبعد أن يئس مـن حسم المعركة وخاف عليه السلام على البقيّة من شيعته، جاءته وفود معاوية تدعوه للصلح، وكان مع آخـر الوفود صحيفة بيضاء، موقّعٌ على أسفلها، بخطّ معاوية وختمه: أن اشترط في هذه الصحيفة الّتي ختمت أسفلها ما شئت فهو لك[1].

أخبـر الإمـام الحسن عليه السلام جيشه بدعوة معاوية للصلـح، وظهر له عليه السلام أنّ جيشه غير مستعدّ للقتال لانهياره العسكـريّ والمعنويّ، وأنّه لا يقوى على مواجهة جيش معاوية المتماسك في صفوفه، والمسلّم لمعاوية تسليماً مطلقاً، فأجاب عليه السلام إلى الصلح، وكان الصلح أفضل موقف في تلك الظروف ولا خيار له غيره.

شخصيّة معاوية

أسلـم معاوية بعد فتح مكّة، وبعد أن اشترك في مواجهات مسلّحة ضدّ رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم طيلـة العهد المكّـيّ والمدنيّ، لذا لم يكن إسلامـه انقياداً حقيقيّاً للّه

(١) تاريخ الطبري، م.س: ٥/١٦٢.

ولرسولـه، ولم يتفاعل مـع مفاهيم الإسلام وقيمه فكريّـاً وعاطفيّاً وسلوكيّاً، بل أسلم ليَسلم ويحفظ حياته. ومع كلّ هذا التأريخ القاتم فقد مارس شتّى الأساليب غير المشروعة لتثبيت حكمه وتقوية كيانه، كحاكم على المسلمين، وكان منها:

١. وضع الأحاديث المتضمّنة بيان فضله وفضل أهل الشام[(١)].

٢. اختلاق الأحاديث الّتي تشوّه سمعة الإمام عليّ عليه السلام وأهل البيت عليهم السلام.

٣. إنفاق الأموال في شراء الضمائر، وتوسيع القاعدة الشعبيّة له[(٢)].

٤. استغلال المفاهيم العامّة للتمويه على الأمّة، كتبنّي فكرة الجبر والترويج لها، لكي يبقى مسلّطاً على رقاب الناس وحاكماً عليهم.

٥. حكمه برأيه دون الرجوع إلى الكتاب والسنّة.

واستطـاع من خلال هـذه التصرّفـات أن يجعل نفسه شخصيّـة مقدّسة في نفوس أهل الشام. وقد تمرّن على المناورة السياسيّة لعدم تقيّده بالشريعة والقيم الإسلاميّـة. وكان مستعدّاً للدخول في أيّة معركـة متوقّعة أو مفاجأة، لأنّ أوامره نافـذة في جيشه، فلا يوجـد له منافس في أهل الشام، ليقـوم بتثبيط الناس أو صرف ولائهم عنه.

ظروف الحكم الأمويّ والعلويّ

إنّ صلـح الإمام الحسن عليه السلام لم يكـن منفصلاً عن ظروفه وأسبابه البعيدة الّتي شكّلت صراعاً داخل الجسد الإسلاميّ الواحد.

فقـد تهيّـأت كلّ الظـروف للأمويّين ليتحكّموا فـي رقاب النـاسـ، أمّا الإمام

(١) ذكر ابن حجر (ت ٨٥٢ هـ) في لسان الميزان: ٢/ ٢٢٠، ط١، مؤسسة الأعلمي عن دائرة المعارف النظاميّة، الهند، ١٣٢٩ هـ، عن أبي هريرة مرفوعاً (إلى رسول الله صلى الله عليه وآله): «**الأمناء ثلاثة أنا وجبرائيل ومعاوية**»، ثمّ قال ابن حجر: وهذا كذب.

(٢) روي أنّ معاوية بذل لسمرة بن جندب ٤٠٠ ألف درهم من بيت المال ليروي أنّ قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ﴾ نزلـت في عليّ عليه السلام، ففعل، راجع: الغدير، الأميني: ٢/ ١٠١، ط٤، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٧٧م.

عليّ عليه السلام ومن بعده ولده الحسن عليه السلام فقد واجها الكثير من المشكلات والمصاعب، ويتبيّن ذلك من خلال:

إنّ الطلقاء[1] استطاعوا أن يجدوا لهم موقعاً ومركزاً حسّاساً في داخل الكيان الإسلاميّ. فقد كان معاوية والياً على الشام في عهد الخلفاء، وكانت له صلاحيّات مطلقة، حتّى أنّ عُمَرَ كان يحاسب جميع ولاته غير معاوية، وكان يمدحه كثيراً، وينهى عن ذمّه، ويقول عنه: هذا كسرى العرب[2]. واستقلّ معاوية بالشام استقلالاً حقيقياً نظراً لصلاحيّاته المطلقة، وكوّن جيشاً مطيعاً منقاداً إليه، عن طريق الخداع والتضليل وشراء الضمائر، بأموال المسلمين، ولم يعرف أهل الشام من الإسلام إلّا ما يقوله معاوية، فكان الناس يفهمون أنّ معاوية خال المؤمنين، وموضع ثقة الخلفاء السابقين وابن عم الخليفة عثمان، إضافة إلى ما نسبه وعّاظ السلاطين إليه من فضائل بعد غياب الوعي وعدم الاختلاط ببقيّة الأمصار.

في مقابل ذلك فإنّ الإمام عليّاً عليه السلام تولّى الخلافة بعد فتنة تصارعت فيها الأهواء، واصطدمت فيها المصالح، وانتشر المنافقون والمتربّصون بأهل البيت عليهم السلام في جميع الميادين الاجتماعيّة والسياسيّة وانخرطوا تحت جميع الرايات والشعارات الّتي رُفعت في مواجهة حكومة أمير المؤمنين عليه السلام.

وفي بداية خلافة الإمام عليّ عليه السلام تمرّد جماعة ممّن اشتُهر بالصحبة لرسول الّله صلى الله عليه وآله وسلم، وهم عائشة وطلحة والزبير، واستثمر معاوية ظروف حرب الجمل وظروف مقتل عثمان، فحارب أمير المؤمنين عليه السلام في صفّين وانتهت

(١) وهم الّذين دخلوا في الإسلام بعد فتح مكّة وتحت ظلال السيوف، وقال لهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**اذهبوا فأنتم الطلقاء**»، بعد أن كانوا أسرى في يده فأعتقهم.

(٢) تاريخ الخلفاء، جلال الدّين عبد الرحمن، السيوطي: ١١٤/٦، تحقيق محمّد محيي الدّين عبد الحميد، منشورات الشريف الرضي، قم، ط١، ١٤١١هـ.

المعركـة بعدد كبير مـن القتلى، من ضمنهـم كبار الشخصيّـات الموالية لأهل البيت عليهم السلام.

ولـم تسمح الظروف لأمير المؤمنين عليه السلام كي يبني دولته وجيشه بناءً عقائديّاً وسلوكيّاً، ولم تستمرّ خلافته سوى أربع سنين حتّى اغتالته أيدي المتآمرين للحيلولة دون أن يقوم بإكمال المسيرة الّتي تحتاج إلى زمنٍ طويل والمتمثّلة في بناء الدولة الإسلاميّة ـ بعد الانحرافات الّتي أصابتها في خلافة من تقدّم عليه عليه السلام ـ وتأسيس جيشٍ عقائديّ متماسك.

ظروف وأوضاع جيش الإمام الحسن عليه السلام

أشرنـا سابقاً إلى أنّ جيشـ الإمام الحسن عليه السلام لم يكن موحّـداً في أفكاره وعواطفه، بل كان خليطاً من ولاءات متعدّدة. وقد عبّر الإمام الحسن عليه السلام عنه قائـلاً: «**رأيـت أهل الكوفة قوماً لا يثق بهم أحـدٌ أبداً إلّا غُلب، ليس أحد منهم يوافق آخر في رأي ولا هوى، مختلفين، لا نيّة لهم في خير ولا شرّ**»[1].

وقـد لعبت الأهـواء والشهـوات والمنافع الذاتيّـة دوراً في تبـدّل النوايا عمّا كانت عليه من قبل. وقد وصف الإمام الحسن عليه السلام هذه الظاهرة قائلاً: «**كنتم في مسـيركم إلى صـفّين، ودينكم أمام دنياكم، وأصـبحتم اليوم ودنياكم أمام دينكم**»[2].

وحينمـا يصبح أمر الدنيا مقدّماً على أمـر الدِّين وحاكماً عليه فإنّه يغيّر من الموقف ومعادلة الصراع، ويصبح المقاتل تابعاً لمصالحه الذاتيّة الّتي تغيّر من ولائه ومواقفه العمليّة.

ولـم تبق إلّا القلّة المخلصة في ولائها للإمـام الحسن عليه السلام ولنهجه السليم

(١) الكامل في التاريخ، م.س: ٣/٤٠٧.
(٢) بحار الأنوار، م.س: ٤٤/١٥.

كحِجْـر بن عـديّ وقيس بن سعد وآخريـن، حيث إنّ معركة صفّين قـد أدّت إلى فقـدان الكثير منهـم، إضافة إلى قيام معاوية بقتل آخريـن كمحمّد بن أبي بكر ومالك الأشتر.

وأفرز تعدّد الولاءات وتعدّد الآراء إضافة إلى تقديم الدنيا على الدِّين الظواهر السلبيّة التالية:

١. عدم الإخلاص في القتال.

٢. ضعف القدرة على الثبات والصمود إلى آخر المعركة.

٣. عدم الانقياد للقيادة الصالحة، والتعاطف مع معاوية طمعاً في دنياه.

٤. الاستعداد الفعليّ للغدر والخيانة.

٥. التأثّر بالإشاعات والحرب النفسيّة.

وقـد أدّى ذلك بالفعل إلى التحاق بعض جند الإمام عليه السلام بجيش معاوية، بل الاستعداد لتسليم الإمام عليه السلام إليه، إضافةً إلى محاولات اغتياله عليه السلام.

ولـم يكن الإمـام الحسن عليه السلام ليستعمـل تلك الوسائـل والأساليب الّتي كان يستخدمهـا معاويـة، كالخـداع والتضليـل وشـراء الضمائر بأمـوال المسلمين وإنفاقها على جماعة خاصّة كرؤساء القبائل وقادة الجيش، فالإمام عليه السلام مقيّد بقيـودٍ شرعيّة وقيم سامية حاكمة علـى جميع ممارساته ومواقفه، وهكذا أصبح الإمام الحسن عليه السلام أمام خيارين، هما:

الأوّل: الاستمرار فـي معركة خاسرة تؤدّي إلى إضعاف الكيان الإسلاميّ ككلّ أمام التحدّيات الخارجيّة.

الثانـي: الاتّجـاه والميل إلى الصلح وحقـن الدماء، والمحافظـة على الوجود الإسلاميّ ثمّ ممارسة الإصلاح من الداخل.

وفي غير ذلك فالمعركة إمّا أن تؤدّي إلى استيلاء معاوية على الحكم دون قيد أو شرط بعد مقتل الإمام الحسن عليه السلام وأهل بيته والخيرة من أصحابه، وإمّا أن تؤدّي إلى قيام دولتين إحداهما في الكوفة وأخرى في الشام، وتبقى كلّ واحدة منهما في حالة صراع دائم مع الأخرى، وتنشغل عن مواجهة الأعداء الخارجيّين، وبالتالي إلى إنهاء الوجود والكيان الإسلاميّ.

فاختار الإمام عليه السلام الصلح على الاستمرار في المعركة، مقيّداً بشروط فيها مصلحة الكيان الإسلاميّ وكيان الجماعة الصالحة الّتي تضمن للشريعة بقاءها واستمرار حياتها.

لماذا اختار الإمام عليه السلام الصلح وعدم التضحية؟

إنّ مواقف الإمام الحسن عليه السلام هي الّتي تنسجم مع المصلحة الإسلاميّة العُليا بلا شكّ في ذلك ولا ريب. وهذا الموقف الصعب الّذي اختاره جاء نتيجة للظروف الّتي عاشها الإمام عليه السلام وفرضت عليه هذا الخيار والّتي يمكن اختصارها بما يلي:

أوّلاً: إنّ معاوية أحكم خطّته وأظهر نفسه بمظهر المسالم المحبّ للصلح وحقن الدماء، وأراد أن يُلصق بالإمام الحسن عليه السلام رغبته في القتال وإراقة الدماء.

ثانياً: إنّ استمرار القتال سيؤدّي قطعاً إلى قتل الإمام الحسن عليه السلام من قبل عملاء معاوية المندسّين في جيشه، وسيتنصّل معاوية من جريمة قتله. أو سيؤدّي القتال إلى تسليم الإمام عليه السلام إلى معاوية من قبل رؤساء بعض القبائل أو قادة الجيش، وفي جميع التقادير سيكون معاوية هو الغالب كما ورد ذلك في قول الإمام عليه السلام: «**يزعمون أنّهم لي شيعة، ابتغوا قتلي وانتهبوا ثِقْلي وأخذوا مالي، والله لئن آخذ من معاوية عهداً أحقن به دمي وآمن به في أهلي خير من أن يقتلوني، فيضيع أهل بيتي وأهلي،**

والله لو قاتلت معاوية، لأخذوا بعنقي حتّى يدفعوني إليه سِلماً، فوالله لئن أسالمه وأنا عزيز خير من أن يقتلني وأنا أسيره»[١].

ثالثاً: إنّ تضحية الإمام الحسن عليه السلام ستكون بلا صدى وذلك لقدرة معاوية على احتواء آثارها وتشويه أهدافها.

رابعاً: إنّ هذه التضحية ستؤدّي إلى القضاء على الإمامين الحسن والحسين عليهما السلام وبقيّة بني هاشم، والصفوة الصالحة من أتباع أهل البيت عليهم السلام وبالتالي ستخلو الساحة لمعاوية وأنصاره من معارضين، وهذا ما سيؤدّي إلى قلب المفاهيم الإسلاميّة من قبل معاوية.

هذا بالإضافة إلى ما ذكرناه من أمور تقدّمت كلّها دفعت الإمام الحسن عليه السلام إلى اختيار الصلح، والّتي يمكن إعادة تلخيصها بما يلي:

١. عدم رغبة جيشه في القتال.

٢. التواطؤ مع معاوية من قبل الكثير من القادة والجنود.

٣. الخيانات الفعلية المتكرّرة والمتمثّلة بالالتحاق بمعاوية، أو الفرار من المعسكرات.

٤. شيوع البلبلة والاضطراب في صفوف القادة والجنود.

٥. عدم الإخلاص للقيادة الشرعيّة.

وقد عبّر الإمام عليه السلام عن الأسباب الّتي أجبرته على القبول بالصلح في كثير من أقواله. كما ركّز عليه السلام على قلّة الأنصار الّذين ينهض بهم للقتال، فقال عليه السلام: **«والله ما سلّمت الأمر إليه إلّا لأنّي لم أجد أنصاراً، ولو وجدت أنصاراً لقاتلته ليلي ونهاري»**[٢].

---

(١) بحار الأنوار، م.س: ٤٤/٢٠.

(٢) م.ن: ٤٤/١٤٧.

وقال عليه السلام في موقفٍ آخر: «**وقد خذلتني الأمّة، وبايعتك يا ابن حرب، ولو وجدت عليك أعواناً يُخلصون ما بايعتك**»[١].

شروط الإمام عليه السلام ووعود معاوية

لم يوقّع الإمام عليه السلام الصلح إلّا بعد أن فرض شروطه على معاوية؛ ليكون عليه السلام في موقع القوّة دائماً ومعاوية في موقع الضعف على المدى القريب والمدى البعيد معاً، سواء كان معاوية يفي بالشروط أم لا يفي بها، فإنّ عدم الوفاء بها يضمن للإمام عليه السلام ولخطّ أهل البيت عليهم السلام نصراً على المدى البعيد لا محالة.

أمّا شروط الإمام الحسن عليه السلام فيمكن تحديدها بما يلي:

١. أن يعمل معاوية بكتاب اللّه وسنّة رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم وسيرة الخلفاء الصالحين.
٢. ليس لمعاوية بن أبي سفيان أن يعهد لأحدٍ من بعده.
٣. الناس آمنون حيث كانوا في العراق والشام والحجاز وتهامة.
٤. أمان شيعة وأصحاب عليّ عليه السلام على أنفسهم وأموالهم ونسائهم وأولادهم.
٥. أن لا يبغي للحسن عليه السلام ولا لأحد من أهل بيته غائلة سرّاً وعلانية، ولا يُخيف أحداً منهم في أُفق من الآفاق.
٦. أن تكون الخلافة للإمام الحسن عليه السلام من بعده.
٧. أن لا يسمّيه أمير المؤمنين.
٨. أن لا يُقيم عنده شهادة.

(١) م.ن: ١٠/١٤٣.

٩. أن يضمن نفقة أولاد الشهداء من أصحاب الإمام عليّ عليه السلام.

١٠. ترك سبّ الإمام عليّ عليه السلام والعدول عن القنوت عليه في الصلاة.

أمّا معاوية فقد وعد الإمام الحسن عليه السلام بوعود كثيرة منها:

١. لك الأمر من بعدي.

٢. لك ما في بيت مال العراق من مالٍ بالغاً ما يبلغ تحمله إلى حيث أحببت.

٣. لك خراج أيّ كور العراق شئت، معونة لك على نفقتك، يجبيها أمينك ويحملها إليك في كلّ سنة.

٤. لك ألّا نستولي عليك بالإساءة.

٥. لا نقضي دونك الأمور.

٦. لا نعصيك في أمرٍ أردت به طاعة اللّه[١].

هذه الوعود والشروط الممضاة من قبل الطرفين، تفرض منطقيّاً على كلّ من يُفاضل بين الحرب والصلح، أن يختار الصلح مع تلك الظروف والموازنة العسكريّة غير المتكافئة، وإلّا فإنّ معاوية سيتسلّم السلطة إمّا بانتصاره العسكريّ أو بقتل الإمام عليه السلام من قبل عملائه المندسّين في جيش الإمام عليه السلام، وستؤول السلطة إليه دون شروط أو قيود تقيّده أمام المسلمين.

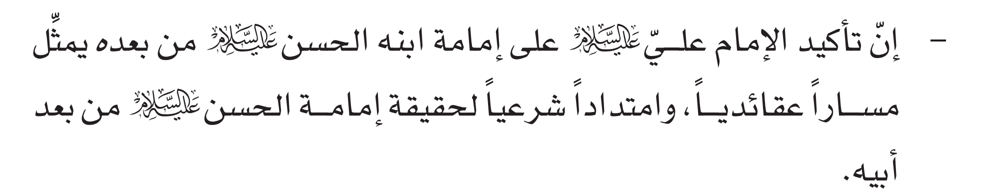
بينما أخذ الإمام عليه السلام عهوداً ومواثيق مقرونة بأَيمان مغلّظة من قبل معاوية على أن يفي بها.

فإن وفى بما تعهّد به، فإنّ الأمر سيعود إلى الإمام من بعده، وستكون لأتباع الإمام عليه السلام مطلق الحريّة في أداء دورهم الإصلاحيّ والتغييريّ.

(١) شرح نهج البلاغة، م.س: ١٦/٣٦.

وإنّ شــرط عدم تسميتــه بأمير المؤمنين يسلب عنــه شرعيّة الخلافة وإمرة المؤمنين، ويبقى مجرّد حاكمٍ أو ملك في أنظار المسلمين.

وإذا لــم يفِ معاوية بالشروط فإنّ الأمّة ستنكشف لها حقيقة معاوية والحكم الأمــويّ، وأنّــه مجــرّد طالب سلطــة منــذ أوّل شعار أعلنــه حيــن مطالبته بدم عثمان.



خلاصة الدرس

- إنّ تأكيد الإمام علــيّ عليه السلام على إمامة ابنه الحسن عليه السلام من بعده يمثّل مســاراً عقائديــاً، وامتداداً شرعياً لحقيقة إمامــة الحسن عليه السلام من بعد أبيه.
- أراد معاوية من خلال حكمه أن يعيد الجاهليّة ولكن تحت غطاء الإسلام. وكان يعتمد دائماً في تصرّفاته أسلوب الخداع والتضليل وسياسة البطش والتنكيل مع المعترضين على سياسته.
- تصدّى الإمام الحسن عليه السلام لمعاوية، وكاتبه لإلقاء الحجّة عليه، ولكنّه تمادى في غيّه، وتمرّد على أوامـر الإمام عليه السلام وأخـذ يهيـّء العدّة لقتاله، واستعمل الحرب النفسيّة لإشاعة الخوف وبثّ الرعب في نفوس الناس. ولعبت الدعاية المضلّلة دوراً خبيثاً، فالتحق بجيش معاوية بعض قادة جيش الإمام عليه السلام فمالت كفّة الحرب إلى صالح معاوية قبل وقوعها، ودبّ الوهن في جيش الإمام الأمر الّذي أدّى إلى تعريض حياة الإمام عليه السلام إلى الخطر، ممّا اضطّره عليه السلام إلى الركون للصلح ليحفظ بذلك وحدة الأمّة وكيانها.
- لكــي تكون صــورة صلح الإمام الحسن عليه السلام واضحة فــي الأذهان، لا بدّ

مـن الإحاطة بظـروف الحدث وما رافقه من قضايـا فرضت على الإمام عليه السلام أن يختار الصلح.

- لـم يكن جيش الإمام عليه السلام موحّـداً في أفكاره وولائـه، واستطاع معاوية بسياسة الخداع الّتي مارسها أن يشتري بالمال الكثير من رؤساء القبائل وقادة جيش الإمام عليه السلام.
- اختـار الإمام الحسن عليه السلام الصلح على القتـال بشروط أعطت ثمارها، في المستقبل القريب والبعيد معاً.



الدرس السادس

نتائج الصلح وآثاره



أهداف الدرس:

١. أن يتبيّن الطالب مبرّرات الصلح.

٢. أن يعدّد نتائج الصلح.

٣. أن يتعرّف إلى الحالة الإسلاميّة بعد الصلح.

تمهيد

تُعتبر المرحلة الّتي صالح فيها الإمام الحسن عليه السلام معاوية بن أبي سفيان من أصعب مراحل حياته عليه السلام وأكثرها تعقيداً وحساسيّة وأشدّها إيلاماً. وقد أصبح صلح الإمام عليه السلام من أهمّ الأحداث في التاريخ الإسلاميّ بما يستبطنه من موقف بطوليّ للإمام المعصوم عليه السلام وبما أدّى إليه من تطوّرات واعتراضات وتفسيرات مختلفة طوال القرون السالفة وحتّى عصرنا الحاضر. وألّف الباحثون المسلمون في توضيح وتحليل الصلح كتباً عديدة، وأصدر الأعداء والأصدقاء أحكامهم بشأنه.

وقد انبرى الباحثون لتحليل مواقف الإمام الحسن عليه السلام والدفاع عن الخطوات الّتي أقدم عليها - كما تبيّن لنا في الدرس السابق - إلّا أنّ هذا لا يعفينا من بيان مبرّرات وأسباب الصلح كما وردت في كلمات الإمام الحسن عليه السلام والّتي تستبطن أيضاً بيان آثاره ونتائجه بحسب رؤيته عليه السلام.

مبرّرات الصلح في كلمات الإمام عليه السلام

١. روى الشيخ الصدوق في «**علل الشرائع**» بسنده عن أبي سعيد الّذي يسأل الإمام الحسن عليه السلام عن السبب الّذي دفعه إلى الصلح مع معاوية مع أنّه عليه السلام يعلم أنّه على الحقّ وأنّ معاوية ضالّ وظالم، فأجابه الإمام عليه السلام:

«يا أبا سعيد، ألستُ حجّة الله تعالى ذكره على خلقه، وإماماً عليهم بعد أبي عليه السلام؟ قلتُ: بلى، قال: ألستُ الّذي قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لي ولأخي: الحسن والحسين، إمامان قاما أو قعدا؟ قلت: بلى، قال: فأنا إذن إمام لو قمتُ، وأنا إمام إذا قعدتُ. يا أبا سعيد علّة مصالحتي لمعاوية علّة مصالحة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لبني ضُمرة وبني أشجع، ولأهل مكّة حين انصرف من الحديبيّة، أولئك كفّار بالتنزيل ومعاوية وأصحابه كفّار بالتأويل، يا أبا سعيد إذا كنتُ إماماً من قبل الله تعالى ذكره لم يجب أن يُسفّه رأيي فيما أتيته من مهادنة أو محاربة، وإن كان وجه الحكمة فيما أتيته مُلتبساً، ألا ترى الخضر عليه السلام لمّا خرق السفينة وقتل الغلام وأقام الجدار سخط موسى عليه السلام فعله لاشتباه وجه الحكمة عليه حتّى أخبره فرضي؟ هكذا أنا، سخطتم عليّ بجهلكم بوجه الحكمة فيه، ولولا ما أتيت لما تُرك من شيعتنا على وجه الأرض أحدٌ إلّا قُتِل»[١].

٢. ذكر زيد بن وهب الجهنيّ أنّه جُرِح الإمام عليه السلام في المدائن، فسأله عن موقفه الّذي سيتّخذه في هذه الظروف، فأجاب عليه السلام: **«أرى والله معاوية خيراً لي من هؤلاء، يزعمون أنّهم لي شيعة، ابتغوا قتلي وانتهبوا ثقلي، وأخذوا مالي، والله لإن آخذ من معاوية عهداً أحقن به دمي وآمَن به في أهلي خيرٌ من أن يقتلوني فيضيع أهل بيتي وأهلي، والله لو قاتلتُ معاوية لأخذوا بعنقي حتّى يدفعوني إليه سِلْماً، فوالله لإن أسالمه وأنا عزيز خيرٌ من أن يقتلني وأنا أسيره أو يَمُنّ عليّ فتكون سُبّةً على بني هاشم إلى آخر الدهر، ومعاوية لا يزال يَمُنُّ بها وعقبه على الحيّ منّا والميت...»**[٢].

---

(١) علل الشرائع، محمّد بن عليّ بن بابويه المعروف بالصدوق: ٢١٢/١. منشورات المكتبة الحيدريّة في النجف الأشرف، ١٣٨٥هـ - ١٩٦٦م، تصوير دار إحياء التراث العربي، بيروت.

(٢) بحار الأنوار، م. س، ١٩/٤٤.

٣. وذكـر سليم بن قيس الهلالـيّ أنّه عندما جاء معاوية إلـى الكوفة؛ صعد الإمـام الحسن عليه السلام المنبـر بحضوره، وبعد أن حمـد الله تعالى وأثنى عليـه، قال: «**أيّها الناس إنّ معاوية زعم أنّي رأيتـه للخلافة أهلاً، ولم أر نفسـي لهـا أهـلاً، وكـذب معاوية، أنـا أولـى الناس بالناس في كتاب الله وعلى لسـان نبيّ الله، فأُقسـم بالله لو أنّ الناس بايعوني وأطاعوني ونصـروني لأعطتهـم السـماء قَطْرَهـا، والأرضُ بركتها، ولمـا طمعتَ فيها يا معاوية، وقد قال رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ما ولّت أمّة أمرها رجلاً قطّ وفيهم من هو أعلم منه إلّا لم يزل أمرُهم يذهب سِفالاً، حتّى يرجعوا إلى ملّة عَبَدَةِ العجل...**»(١).

نتائج الصلح

أوّلاً: انكشاف حقيقة معاوية والحكم الأمويّ

فعندمـا تسلَّمَ معاوية زمام الأمور استسلم لزهو الانتصار، ولم يتمالك نفسه حتّـى كشف عـن سريرته ومكنونـات أهوائه، فأعلـن لأهل العراق عـن أهدافه الحقيقيّـة وهي تتلخّص في الوصول إلـى قمّة السلطة، كما جاء ذلك في خطابه حين قال: «**إنّي والله ما قاتلتكم لتصلّوا، ولا لتصوموا، ولا لتحجّوا، ولا لتزكّوا، إنّكم تفعلون ذلك، إنّما قاتلتكم لأتأمّر عليكم**»(٢).

وهـذا التصريح كشف عـن الوجه الحقيقيّ لمعاوية كشفـاً لا يمكن بعد ذلك التستّـر عليه بتزوير الأحاديث، وتحريف الوقائع، ولا تقوى المبرّرات الموضوعة للتستّر عليه والّتي كان منها عدالة جميع الصحابة.

(١) م.ن: ٤٤/٢٢.

(٢) مقاتـل الطالبيّين، أبو الفـرج الأصفهاني، تحقيق كاظم المظفّر: ٧٠، منشورات المكتبـة الحيدريّة في النجف الأشرف، ط ٢، ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م.

ثانياً: انكشاف انحراف معاوية وعدم وفائه بالشروط

لقد كشف الصلح نوايا معاوية في عدم الوفاء بالعهود والمواثيق الّتي قطعها على نفسه وقال: «**ألا إنّ كلّ شيء أعطيته للحسن بن عليّ تحت قدميّ هاتين لا أفي به**»[1]. وكان لهذا التصريح دور واضح في كشف حقيقة الصراع وأنّه ليس بين قبيلتين أو شخصين، وإنّما هو صراع بين منهجين: منهج الاستقامة الّذي يمثّله الإمام الحسن وأهل البيت عليهم السلام، ومنهج الانحراف والجاهليّة الّذي يمثّله معاوية والأمويّون.

ثالثاً: توسّع القاعدة الشعبيّة لأهل البيت عليهم السلام

استثمر الإمام الحسن عليه السلام الفرصة المتاحة له في ظروف وأجواء الصلح في توسيع القاعدة الشعبيّة لأهل البيت عليهم السلام بنشر الأفكار والمفاهيم السليمة، ونشر فضائل أمير المؤمنين عليه السلام، ونشر الأحاديث الّتي توجّه الأنظار إلى إمامة أهل البيت عليهم السلام ودورهم القياديّ في الأمّة، ونشر مطلق أحاديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعد أن منع الخلفاء الثلاثة نشرها في العهود السابقة.

واستطاع الإمام عليه السلام أن يضع اللّبنات الأولى لمشروع تعرية الحكم الأمويّ وبيان حقيقته الجاهليّة لكي تأتي اللّبنة الأخرى في مراحل الحركة الرسالية ولتكون الأمّة في حالة تعبئة نفسيّة وروحيّة للتفاعل مع ثورة الإمام الحسين عليه السلام فيما بعد. فقد تفاعل صلح الحسن عليه السلام مع ثورة الحسين عليه السلام ليؤدّيا بالنتيجة إلى تبنّي الجهاد المسلّح لإيقاف انحراف الحاكم وإزالته.

ما بعد الصلح حتّى الشهادة

بقي الإمام الحسن عليه السلام في الكوفة أيّاماً، ثمّ عزم على مغادرة العراق،

(١) م.ن: ٦٩.

والشخوص إلى مدينة جدّه ﷺ. وقد أظهر عزمه ونيّته إلى أصحابه الّذين طلبوا منه المكث في الكوفة فامتنع عليه السلام عن إجابتهم قائلاً: «**ليس إلى ذلك من سبيل**».

ولدى توجّهه عليه السلام وأهل بيته عليهم السلام إلى عاصمة جدّه ﷺ خرج أهل الكوفة بجميع طبقاتهم إلى توديعه وهم ما بين باكٍ وآسف، إلى أن وصل عليه السلام إلى يثرب حيث خرج أهلها جميعاً لاستقباله، فقد أقبل إليهم الخير وحلّت في ديارهم البُشرى والرحمة.

مكث الإمام الحسن عليه السلام عشر سنين، استطاع أن يُبرز فيها مرجعيّته العلميّة والدينيّة والاجتماعيّة والسياسيّة، وهذا ما سنعرضه بإيجاز:

١ - مرجعيّته عليه السلام العلميّة والدينيّة

وتمثّلت في تربيته لكوكبة من طلّاب المعرفة، وتصدّيه للانحرافات الدينيّة الّتي كادت تؤدّي إلى مسخ الشريعة، كما تصدّى لمؤامرة مسخ السنّة النبويّة الشريفة الّتي كان يخطّط لها معاوية بن أبي سفيان من خلال تنشيط وضع الأحاديث واختلاقها والمنع عن تدوين الحديث النبويّ.

وأنشأ الإمام عليه السلام مدرسته الكبرى في المدينة، وراح مجدّاً في نشر الثقافة الإسلاميّة في المجتمع الإسلاميّ. وقد تخرّج من مدرسته كبار العلماء وعظماء المحدّثين والرواة. وقد ذكر المؤرّخون بعض أعلام تلامذته ورواة حديثه وهم: ابنه الحسن المثنّى، والمسيّب بن نجبة، وسويد بن غفلة، والعلا بن عبد الرحمن، والأصبغ بن نباتة، وعيسى بن مأمون بن زرارة وإلخ...، وقد ازدهرت المدينة المنوّرة بهذه الكوكبة من العلماء والرواة فكانت من أخصب البلاد الإسلاميّة علماً وأدباً وثقافةً.

٢ - مرجعيّته الاجتماعيّة

والّتي تمثّلت في عطفه على الفقراء وإحسانه إليهم وبذله المعروف لهم، وتجلّت في استجارة المستجيرين به للتخلّص من ظلم الأمويّين وأذاهم.

لقد كان الإمام عليه السلام موئلاً للفقراء والمحرومين، وملجأً للأرامل والأيتام، وكان عليه السلام في عاصمة جدّه صلى الله عليه وآله وسلم كهفاً منيعاً لمن يلجأ إليه، وكان عليه السلام مثالاً في الكرم والإحسان. وقد روي أنّه قاسم الله تعالى ماله مرّتين، ولنعم ما قال فيه الشاعر:

يا ابن النبيّ المصطفى	وابن الوصيّ المرتضى
يا ابن الحطيم وزمزم	وابن المشاعر والصفا
يا ابن السماحة والندى	وابن المكارم والنُّهى[1]

٣ - مرجعيّته السياسيّة

لقد صالح الإمام الحسن عليه السلام معاوية من موقع القوّة، كما نصّت المعاهدة على أن يكون الأمر من بعده للإمام الحسن عليه السلام وأن لا يبغي معاوية له الغوائل والمكائد.

ومن الطبيعيّ أن يكون الإمام عليه السلام محور المعارضة وأن ينغّص على بني أميّة ومعاوية ملكهم، ولذا نجد في لقاءاته بالولاة ورسائله وخطبه نشاطاً سياسيّاً واضحاً تمثّل في:

أ - مراقبته للأحداث ومتابعتها ومراقبة سلوك الحكّام وعمّالهم، وأمرهم بالمعروف وردعهم عن المنكر.

ب - النشاط السياسيّ المنظّم والّذي كان يتمثّل في استقباله لوفود المعارضة، وتوجيههم.

(١) مناقب آل أبي طالب، مشير الدين أبو عبد الله بن شهرآشوب: ٣/١٨١، المكتبة الحيدريّة، النجف الأشرف، ١٣٧٦هـ - ١٩٥٦م.

ج - عدم تعاطفه مع أركان النظام الحاكم بالرغم من محاولاتهم لكسب عطف الإمام عليه السلام، وقد تمثّل هذا الجانب في رفضه لمصاهرة الأمويّين[١]. وفضحه لخططهم وكشفه لواقعهم المنحرف وعدم استحقاق معاوية للخلافة، وتجلّى ذلك بوضوح في مناظراته مع معاوية وبطانته في المدينة ودمشق على حدّ سواء[٢].

شهادة الإمام عليه السلام

حاول معاوية أن يجعل الخلافة ملكاً عضوضاً ووراثةً في أبنائه، ومن هنا قرّر اغتيال الإمام المجتبى عليه السلام بما اغتال به من قبلُ مالكاً الأشتر وسعد بن أبي وقّاص وغيرهما. وقد دعا معاوية مروان بن الحكم وطلب منه إقناع «**جعدة بنت الأشعث بن قيس الكنديّ**» - وكانت من زوجات الإمام عليه السلام - بأن تسقي الحسن عليه السلام السمّ، فإن هو قضى نحبه زوّجها يزيد، وأعطاها مائة ألف درهم، وتمّ لمعاوية ما أراد حيث دسّت السمّ للإمام الحسن عليه السلام، واستشهد عليه السلام بالمدينة يوم الخميس لليلتين بقيتا من صفر سنة خمسين من الهجرة أو تسع وأربعين.

سياسة معاوية

استمرّ معاوية في منهجه المعادي للإسلام، وقام بخطوات شكّلت مخطّطاً متكاملاً لهدم الإسلام وإعادة الجاهليّة إلى المجتمع الإسلاميّ باسم الإسلام وخلافة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وإمرة المؤمنين، وتتلخّص هذه الخطوات بما يلي:

١. إشاعة الإرهاب والتصفية الجسديّة لكلّ القوى المعارضة للحكم الأمويّ، لا سيّما أتباع الإمام عليّ عليه السلام منهم، وكان في طليعة ضحايا تلك المجازر

(١) كتب معاوية إلى عامله على المدينة مروان بن الحكم أن يخطب ليزيد زينب بنت عبد الله بن جعفر على حكم أبيها في الصِّداق، وقضاء دينه بالغاً ما بلغ.

(٢) جرت عدّة مناظرات بين الإمام الحسن عليه السلام ومعاوية، بيّن فيها الإمام عليه السلام دور أهل البيت عليهم السلام القيادي في الأمّة، وفضلهم، وأعطى للمعارضة زخماً جديداً وفاعليّة كبيرة.

الرهيبــة كوكبة مــن الصحابة الأبــرار أمثال: حِجْر بن عــديّ وجماعته، ورشيد الهجريّ وعمرو بن الحمق الخزاعيّ، وسواهم الكثير...

٢. إغداق الأموال من أجل شراء الضمائر والذمم إمعاناً في إذابة الشخصيّة الإسلاميّة، وقد تمّ فعلاً شراء نوعين من الناس:

أ - بعضـ الوعّـاظ والمحدّثين الّذيـن كان لهم دور مفضـوح في العمالة لمعاوية وافتراء الأحاديـث الكاذبة ونسبتها إلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم للنيل من عليّ عليه السلام وأهل بيته قاطبة.

ب - شراء ضمائر الوجوه الاجتماعيّة الّتي يُخشى من تحرّكها ضدّ الحكم الأمــويّ. وليس أدلّ علــى ذلك من إرسال معاوية إلــى مالك بن هبيرة السكونيّ ألف درهم حين بلغه استياؤه من قتل معاوية للصحابي الجليل حجر بن عديّ وأصحابه، فما كان من السكونيّ إلّا أن أخذ ثمن ضميره وتخلّى عن عزمه على التحرّك بوجه الظلم والفساد!.

٣. المضايقة الاقتصاديّة وأسلوب التجويع: وهو أكثر الأساليب الأمويّة تأثيراً فــي نفسيّة الأمّة المسلمــة بإذلالها وإشاعة المسكنة فــي نفوس أبنائها. ومــن الشواهــد على ذلــك - وهي كثيرة - مــا كتبه معاويــة إلى ولاته في جميــع الأمصــار: «**انظروا منْ قامـت عليه البيّنـة أنّه يحبّ عليّـاً وأهل بيته، فامحوه من الديوان وأسقطوا عطاءه ورزقه**»[1].

٤. العمــل على تمزيق أواصر الأمّة الإسلاميّة بإثارة الروح القوميّة والقبليّة بيــن قطاعاتها المختلفة، إمعاناً منه في إلهاء الأمّة في تناقضات جانبيّة علــى حساب تناقضها الأساس مع الحكم الأمويّ الجائر، كالصراع الّذي نشــب بين قيس ومضــر، وأهل اليمن والمدينة، وبيــن قبائل العراق فيما

(١) شرح نهج البلاغة، م.س: ١١/٤٥.

بينها، وإثارة العنصريّة عند العرب ضدّ المسلمين من غير العرب الّذين يُعرفون تأريخياً باسم الموالي.

٥. فرض البيعة لولده (يزيد) المُعلن بفسقه وتحكيمه في رقاب المسلمين.

وهكذا استكمل معاوية مخطّطه الجاهليّ حين نقض كلّ بنود الوثيقة الّتي عقدها مع الإمام الحسن عليه السلام. وكان أعظم تجاوز له على حدود المفهوم الإسلاميّ في الحكم من خلال اتّخاذ الوراثة ذات الطابع الدكتاتوريّ أُطروحة للحكم في دنيا المسلمين.

البيعة ليزيد

لقد تبلور واقع الانحراف الّذي خطّطت له السياسة الأمويّة المتمثّلة في خطط معاوية حينما تسلّط ابنه يزيد على زمام الحكم.

فقد قرّر معاوية أن ينصّب يزيدَ خليفة على المسلمين من بعده، ويأخذ البيعة له بنفسه خلافاً للأعراف والأحكام الإسلاميّة المتّبعة حينذاك في تعيين الخليفة، فأثار هذا القرار الرأي العامّ الإسلاميّ وخصوصاً الشخصيّات الإسلاميّة البارزة كالإمام الحسين بن عليّ عليهما السلام وعبد الرحمن بن أبي بكر، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عمر.

ومن شدّة مكره ودهائه استطاع عندما كان في مكّة للحجّ أن يُوهم الناس ويقنعهم بأنّ هذه الشخصيّات قد بايعت يزيد بالخلافة، فقال الناس: بايع ابن عمر، وابن أبي بكر، وابن الزبير، وهم يقولون: لا والله ما بايعنا، فيقول الناس: بلى، وارتحل معاوية فلحق بالشام[١].

(١) تاريخ الخلفاء، م.س: ١٩٦ ـ ١٩٧. وهذه البيعة أخذها معاوية ليزيد من الناس في مكة المكرّمة عندما حجّ إلى بيت الله سنة إحدى وخمسين.

إنّ منح يزيد السلطة ليقود الأمّة الإسلاميّة ويخطّط لمستقبلها، معناه الإنهاء العمليّ للوجود الإسلاميّ على الإطلاق.

فيزيد - كما تؤكّد المصادر التاريخيّة - كان يغلب عليه طابع الشذوذ في شتّى أفكاره وممارساته ومشاعره.

قال البلاذريّ: كان ليزيد قرد يجعله بين يديه ويكنّيه أبا قيس، ويقول: هذا شيخ من بني إسرائيل أصاب خطيئة فمُسخ، وكان يسقيه النبيذ ويضحك ممّا يصنع، وكان يحمله على أتان وخشبة ويرسلها مع الخيل[١].

وقال المسعوديّ: وكان يزيد صاحب طرب وجوارح[٢] وكلاب وقرود وفهود ومنادمة على الشراب، وغلب على أصحابه وعمّاله ما كان يفعله من الفسوق، وفي أيّامه ظهر الغناء بمكّة والمدينة، واستُعملت الملاهي، وأظهر الناس شرب الشراب[٣].

وهكذا وقفت الأمّة على عتبة تأريخ جديد من حياتها وأصبحت أمام خيارين:

١. إمّا أن تتبنّى سياسة الرفض القاطع للواقع الّذي فُرض عليها مهما كان الثمن.

٢. أو القبول بسياسة الأمر الواقع، حيث عليها أن تتنازل عن رسالتها وسرّ عظمتها وعنوان عزّتها في الحياة.

(١) أنساب الأشراف، أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري تحقيق الشيخ محمّد باقر المحمودي: ٤/١ -٢. مؤسسة الأعلمي، ط ١، بيروت، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.

(٢) تاريخ الخلفاء، م.س: ١٩٦ ـ ١٩٧، والجوارح: السباع والطير ذات الصيد.

(٣) مروج الذهب ومعادن الجوهر، م.س: ٦٧/٣.

خلاصة الدرس

- كشف صلح الإمام الحسن عليه السلام زيف السياسة الأمويّة، ووضع الحقيقة الناصعة أمام الأمّة الّتي اكتشفت حكمة الإمام الحسن عليه السلام ودوره في تفويت الفرصة على معاوية بالفتنة.
- طارد معاوية أنصار الإمام عليّ عليه السلام والحسن عليه السلام ونكّل بالمؤمنين شرّ تنكيل وأدخل في الإسلام ما ليس منه، ومهّد الطريق أمام تنفيذ الحكم الأمويّ بالحديد والنار.
- استثمر الإمام عليه السلام أجواء الصلح في توسيع القاعدة الشعبيّة الّتي ربّاها أبوه عليّ عليه السلام بنشر الأفكار والمفاهيم السليمة.
- تلخّص منهج معاوية في هدم الإسلام بإشاعة الإرهاب والتصفية الجسديّة لكلّ القوى المعارضة وإغداق الأموال لشراء الضمائر وسياسة التجويع وتمزيق أواصر الأمّة بإثارة الروح القوميّة واغتيال الإمام الحسن عليه السلام، وفرض البيعة ليزيد الفاسق، متحدّياً بذلك قيم الرسالة وسنّة جميع الخلفاء السابقين عليه.
- وقف الناس بعد البيعة ليزيد أمام خيارين: إمّا رفض الحكم والحاكم المنحرف، أو الخضوع للانحراف الّذي يمثّل عودة الجاهلية بكلّ ثقلها إلى الساحة السياسيّة من جديد.





الدرس السابع

منهج الإمام الحسين بعد استشهاد الإمام الحسن عليه السلام



أهداف الدرس:

١. أن يتعرّف الطالب إلى المنهج الحسينيّ في التصدّي للانحرافات.

٢. أن يستذكر العوامل التي أدّت للثورة الحسينيّة.

٣. أن يتبيّن واقع الأمّة ما قبل الثورة.

تمهيد

بعد شهادة الإمام الحسن عليه السلام نهض الإمام الحسين عليه السلام بأعباء الإمامة وتحـرّك وفـق مسؤوليّته تجـاه شريعة ربّـه وأمّة جدّه صلى الله عليه وآله وسلم بصفتـه وريث النبوّة، مراعياً ظروف الأمّة ومراقباً لمدى تدهورها وساعياً للمحافظة على ثمرة جهود الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد عمل الإمام عليه السلام في فترة حكم معاوية على تحصين الأمّة ضدّ الانهيار التـامّ وإعطائها مـن المقوّمات القدر الكافي، كي تتمكّـن من البقاء صامدةً في مواجهة المحن الّتي تستولدها الجاهليّة الأمويّة.

ويمكن أن نلخّص مجمل نشاطه في هذه الفترة بما يلي:

١ - مواجهة معاوية وبيعة يزيد

بعـد شهادة الإمام الحسـن عليه السلام قرّر معاوية أن يُسافـر بنفسه إلى المدينة ليأخـذ البيعة لابنه يزيد ويقنع المعارضين. وبعـد أن اجتمع بالإمام عليه السلام وعبد اللّه بـن العبّاس أشـاد بالنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وأثنى عليه، وعرض بيعـة ابنه ومنحه الألقاب الفخمة ودعاهما إلى بيعته، فانبرى الإمام عليه السلام وواجهه بكلام ذُهِل له معاوية.

وقد اتّسـم موقف الإمام عليه السلام مـن معاوية بالشدّة والصرامـة، وأخذ يدعو المسلمين علناً إلى مقاومة معاوية، ويحذّرهم من سياسته الهدّامة.

٢ - جمع الكلمة والاستجابة للجماهير

أخـذت الوفود تترى على الإمام الحسين عليه السلام من جميع الأقطار الإسلاميّة، وهي تستغيث به نتيجة الظلم والجور الّذي حلّ بهم، وتطلب منه القيام بإنقاذها مـن الاضطهاد. ورفع والي المدينة مروان بن الحكم كتاباً إلى معاوية يصف له فيه تجمّع الناس واختلافهم إلى الإمام عليه السلام.

٣ - فضح جرائم معاوية

كتـب الإمام الحسين عليه السلام إلى معاوية مذكّرةً خطيـرةً كانت جواباً لرسالته يحمّلـه فيها مسؤوليّات جميع ما وقع في البـلاد من سفك الدماء وفقدان الأمن وتعريـض الأمّـة للأزمات، وممّا جاء فيها: «**... ألسـت قاتل حِجْـر بن عديّ أخا كِندَة وأصـحابه المصـلّين العابدين... قتلتهم ظلماً وعدواناً... أولسـتَ قاتل عمرو بن الحمق الخزاعيّ صـاحب رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم... أولسـتَ بمدّعي زياد بن سميّة المولود على فراش عُبيد ثقيف، فزعمت أنّه ابن أبيك؟... أولستَ قاتل الحضرميّ الّذي كتب فيه إليك زياد أنّه على دين عليّ فكتبت إليه أن اقتل كلّ من كان على دين عليّ؟**»[١].

ولم يصل إلينـا وثيقة سياسيّة في ذلك العهد عرضت لعبث السلطة وسجّلت الجرائـم الّتـي ارتكبهـا معاوية غير هـذه الوثيقة، وهي صرخة فـي وجه الظلم والاستبداد.

(١) شرح نهج البلاغة، م.س: ٤/٣٢٧.

٤ - استعادة الحقوق المضيّعة

كان معاويــة يُنفق أكثر أموال الدولة علــى تدعيم ملكه، كما كان يهب الأموال الطائلــة لبني أميّة لتقويــة مركزهم السياسيّ والاجتماعــيّ. وكان الإمام عليه السلام يشجب هذه السياسة، ويرى ضرورة إنقاذ الأموال من معاوية الّذي يفتقد حكمه لأيّ أساس شرعيّ، ولا يقوم إلّا على القمع والتزييف والإغراء. وقد اجتازت على المدينة أمــوال من اليمن إلى خزينة دمشق، فعمــد الإمام عليه السلام إلى الاستيلاء عليها ووزّعها على المحتاجين[١].

إنّ الإمام الحسين عليه السلام دلّ بعمله على أنّ الخليفة غير الشرعيّ ليس من حقّه أن يتصرّف بأموال المسلمين، وأنّ ذلك من حقوق الحاكم الشرعيّ، وهو الإمام الحسين عليه السلام نفسه الّذي ينفق أموال بيت المال وفق المعايير الإسلاميّة.

٥ - تذكير الأمّة بمسؤوليّتها

عقــد الإمام عليه السلام مؤتمــراً سياسيّاً عامّاً دعا فيه جمهــوراً غفيراً ممّن شهد موسم الحجّ من المهاجرين والأنصــار والتابعين وغيرهم من سائر المسلمين، وانبرى عليه السلام خطيباً فيهم، وتحدّث بما ألمّ بعترة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وشيعتهم من المحن الّتي صبّها عليهم معاوية... وألزم الحاضرين بإذاعة ذلك بين المسلمين.

وكان هــذا المؤتمــر يتضمّن الإعــداد لوضــعٍ مستقبليّ كان قــد خطّط له الإمــام عليه السلام.

الثورة الحسينيّة: العوامل والأهداف

١ - لماذا وقّت الإمام عليه السلام ثورته بموت معاوية؟

بعــد استشهاد الإمــام الحسن عليه السلام بمؤامرة من قبــل معاوية ونقض معاوية

(١) الإمامة والسياسة، م.س: ١/ ٢٨٤.

لبنود الصلـح تحرّكت الشيعة وطالبت الإمام الحسيـن عَلَيْهِ السَّلَامُ بالتحرّك والثورة ضدّ معاوية، حيث إنّ الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ كان يملك الدليل المقبول لثورته، ولكنّه لم يستجب لطلباتهم وآثر السكون ما دام معاوية حيّاً.

والسرّ - كما يبدو - كان يكمن في أمرين على الأقلّ:

الأوّل: أنّ الوفـاء بالعهـد خُلـق إسلاميٌّ رفيـع يمثّله الإمـام المعصوم أحسن تمثيل، ولا يسوِّغ الإمام لنفسه أن يهبط إلى مستوى معاوية في نقضه للعهد، بالرغم من أنّ نقض العهـد من قِبل معاوية مسوّغ شرعيّ وأخلاقيّ للخروج من تعهّده.

الثانـي: أنّ السبب الّذي من أجله عقد الإمام الحسن عَلَيْهِ السَّلَامُ الصلح مع معاوية ما زال مستمرّاً ونافذ المفعول. والإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ لن يتحرّك ولن يثور، إلّا إذا تهيّأت الظروف الموضوعيّة الّتي تضمن لثورته تحقيق أهدافها.

وكان السبب في إبرام الصلح أنّ الأمّة الإسلاميّة كانت قد سيطرت عليها حالة الضجر والملل من القتال حينما لاحظت مرارة الصراع بين الإمام عليّ عَلَيْهِ السَّلَامُ ومعاوية في صفّين، وبينه وبين عائشة وطلحة والزبير في الجمل، وبينه عَلَيْهِ السَّلَامُ وبين الخوارج في النهروان. وقد سرى هذا الملل والضجر إلى جمعٍ من الموالين لأهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، ولم يكن بالإمكان علاج هذه الظاهرة حتّى بالتضحية، فكان لا بدّ من الصبر والتأنّي ليتّضح لعامّة المسلمين مدى دَجَل معاوية في تظاهره بالإسلام، ومدى التزام أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ بمبادئهم الرساليّة وتفانيهم في الدفاع عن الإسلام.

٢ - الدوافع الحقيقيّة للثورة الحسينيّة

هناك أكثر من دافع وسبب لتعليل النهضة الحسينيّة. وقد تكون متداخلة ومترتّبة بعضها على بعض. والأسباب الحقيقيّة لا بدّ أن نستلهمها من صاحب

الثورة نفسه ولا يكفي أن نستند فيها إلى تحليلات الآخرين.

ونلاحـظ في أكثر من مشهد حسينيّ، ومنذ بداية الحركة إلى نهايتها، إعلان الإمام الحسين عليه السلام أنّه إنّما قام لطلب الإصلاح في أمّة جدّه صلى الله عليه وآله وسلم ولمهمّة الأمر بالمعـروف والنهـي عن المنكر المتمثّل فـي التصدّي للحاكـم الجائر المستحلّ لحرمـات اللّه. وحيث لا يتحقّق ذلك إلّا بالتضحية والشهادة في سبيل اللّه، تعيّن هذا الأسلوب للأمـر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا سيّما إذا كان تركه يؤدّي إلى محق الشريعة وضياع الرسالة الّتي لا شيء أغلى منها في ميزان اللّه تعالى.

وللوصول إلى الدوافع والأسباب الّتي حتّمت على الإمام الحسين عليه السلام اختيار طريـق التضحية، لا بدّ أن نقف على أبعـاد المشكلة الحقيقيّة الّتي كانت تعانيها الأمّـة الإسلاميّة فـي عصر الإمام الحسين عليه السلام لتتّضـح لنا مدى سلامة هذا الطريق والاختيار.

وهنـاك أكثر من مشهد لتصويـر مدى عمق مرض فقـدان الإرادة في جسم الأمّـة وعلى مختلـف المستويات والقطاعات الاجتماعيّة بـدءً بأقرب الناس إلى أهل البيت عليهم السلام وانتهاءً بالبعيدين عنهم وعن ثقافتهم.

فـلا بدّ أن نستعرض بعض النماذج لرسم صورةٍ عن هذا الواقع المؤلم الّذي كان يلمسه الإمام الحسين عليه السلام بكلّ وضوح.

١. لقد أجمعت كلمة عقلاء المسلمين على تخويف الإمام الحسين عليه السلام يوم صمّم أن يرفض بيعة يزيد ويثور عليه. وكانوا يقترحون عليه الحلول الّتي يؤمـن معها علـى حياته عليه السلام وإن كان ذلك على حسـاب الدِّين وبقائه، ومـن هؤلاء: محمّد بن الحنفيّة وعبد اللّه بن جعفر وعبد اللّه بن العبّاس وعبـد اللّه بن عمر، وكانت نصائحهم تعبّر عن نـوعٍ من الانهيار النفسيّ الّذي شمل زعماء المسلمين فضلاً عن الجماهير.

٢. موقف عامّة زعماء البصرة الموالين لخطّ الإمام عليّ عليه السلام الّذين كاتبهم الإمام الحسين عليه السلام واستنصرهم فلم يستجيبوا لندائه، وكان إقدام الحسين عليه السلام يُعدُّ عند هؤلاء نوعاً من العجلة وقلّة الأناة، فمثلاً كان جواب الأحنف بن قيس الّذي تربّى على يدي الإمام عليّ عليه السلام آية واحدة يأمره فيها بالتصبّر والتريّث.

٣. حينما لقي الإمام الحسين عليه السلام عبيد الله بن الحرّ الجعفيّ استنصره، وكان عبيد الله ممّن عرف الحسين عليه السلام، وعرف خطّ الحسين عليه السلام، لكنّه كان مستعدّاً لأن يقدّم فرسه لمولاه وعزّ عليه أن يقدّم قطرة من دمه في سبيل الله.

٤. ذهب حبيب بن مظاهر الأسديّ ليدعو عشيرته بني أسد لنصرة الإمام الحسين عليه السلام، وما كان من العشيرة إلّا أن غادرت بأجمعها تلك الليلة المنطقة واختارت أن تبقى حياديّة لا إلى الحسين عليه السلام ولا إلى عدوّ الحسين عليه السلام، وهل هذه إلّا الهزيمة النفسيّة الّتي مُنيت بها قطاعات الأمّة بمختلف مستوياتها يومذاك؟

٥. لقد استطاع عبيد الله بن زياد خلال أسبوعين أو ثلاثة بعد مقتل مسلم بن عقيل أن يجنّد الألوف من أبناء الكوفة - ممّن كانوا يحملون الولاء لعليّ عليه السلام وبنيه - ضدّ الإمام الحسين عليه السلام، وهم كانوا قد حاربوا إلى جانب أبيه عليه السلام في صفّين والجمل والنهروان.

أمام هذا الواقع والهزيمة النفسيّة الّتي كانت تعيشها الأمّة الإسلاميّة كان على الإمام الحسين عليه السلام أن يقدّم الموقف النظريّ تجاه الوضع القائم ويضع النقاط على الحروف بنحوٍ ينتهي معه إلى اجتثاث جذور هذا المرض الخبيث.

ومـن هنا كانـت الثورة المسلّحـة لاستنهاض النفوس الميّتـة وإيقاظها من سباتها وتبديل جُبنها إلى الشجاعة.

وتفصيل ذلك: إنّ الحسين عليه السلام كانت أمامه عدّة حلول ممكنة بعد أن طلب يزيد منه البيعة وهدّده بالقتل إن لم يبايع:

الأوّل: أن يُبايع يزيد.

الثانـي: أن يرفض البيعة ويبقى في مكّة أو المدينة، مع علمه بأنّه سيُقتل حينئذ ولو كان متعلّقاً بأستار الكعبة.

الثالـث: أن يلجأ إلى بلدٍ من بلاد العالـم الإسلاميّ كما اقترح عليه أخوه محمّد ابن الحنفيّة.

الرابـع: أن يتحرّك ويذهب إلى الكوفـة مستجيباً للرسائل الّتي وردته من أهلها ثمّ يستشهد بالطريقة الّتي وقعت.

وكان اختيـاره للموقـف الرابـع قائماً علـى أسـاس إدراكه لطبيعـة الظرف الّـذي يعيشـه، فإنّه كان عليـه أن يقف موقفاً يعالـج فيه عدّة مشـاكل في الأمّة الإسلاميّة.

واقع الأمّة ما قبل الثورة الحسينيّة

يُمكـن للباحث أن يعرف ظروف وواقع الأمّة الإسلاميّة من خلال بيان أقسام وفئات الأمّة في ذلك الزمن، وهذه الفئات هي:

الأولـى: وكانت تُشكِّل جـزءاً كبيراً من الأمّة، وهي الّتي فقدت خلال عهد معاويـة إرادتهـا وقدرتهـا على مواجهة الوضـع القائم وهـي تشعر بالذلّ والاستكانة، وأنّ خسارة كبيرة تحيق بالأمّة الإسلاميّة وهي تبديل الخلافة إلى كسرويّة وهرقليّة.

الثانيـة: وهــي الّتي هان عليهــا الإسلام، فلــم تعد تهتــمّ بالرسالة بقدر اهتمامها بمصالحها الشخصيّة، وتضاءلت عندها الرسالة.

الثالثة: وهي الفئة المغفّلة الّتي كان بالإمكان أن تنطلي عليها حيلة بني أميّة لو سكت الإمام الحسين عليه السلام عن تحويل الخلافة إلى قيصريّة وكسرويّة... فـإنّ الخلافة وإن انحرفـت عن خطّها المستقيم منـذ توفّي النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم لكن بقي مفهومها هو مفهوم الخلافة، غاية الأمر اغتصبها أبو بكر ومن ثمّ عمر وعثمــان. بينما في عهد معاوية ابن أبي سفيان طرأ على نفس المفهوم تغيّر أساسـ إذ لم تعد الخلافة حكماً للأمّــة، وإنّما حوّلها معاوية إلى حكم ملكي كحكـم كسرى وقيصر، وهو تحويل خطير في المفهوم أراد معاوية أن يُلبسه ثوب الشرعيّة.

الرابعـة: وهــي الّتي ترتبـط بقضية الصلـح الّذي أبرمه الإمـام الحسن عليه السلام مـع معاوية، فإنّ الواقـع الّذي من أجله صالح الإمام الحسن عليه السلام لـم يكن مكشوفاً إلّا داخل دائرة الجماهيـر الّتي كانت تعيش المأساة عن قـرب كالعراق بشكل عامّ دون من كان يعيش في أطراف العالم الإسلاميّ كأقاصي خراسان حيث لم يعيشوا المحنة يوماً بعد يوم، ولم يكتووا بالنار الّتي اكتوى بها الإمام الحســن عليه السلام في الكوفة من قواعده وأعدائه معاً. وهذه الفئة لم تكن تميّز هل أنّ هذا التنازل هو اعتراف بشرعيّة الأطروحة الأمويّــة، أم هو تصرّف اقتضته الضرورة والظروف الموضوعيّة الّتي كان يعيشها الإمام الحسن عليه السلام؟

فكان لا بدّ للإمام الحسين عليه السلام أن يختار موقفاً يُعالج فيه مشكلة كلّ واحدة مـن هذه الفئـات الأربع من الأمّة، وكان لا بدّ أن يختــار الموقف الّذي يُرجع فيه للفئـة الأولـى إرادتها الّتي فقدتهـا بسبب الإرهـاب الأمويّ، وإلـى الفئة الثانية

إيمانهــا بالرسالة وشعورها بأهميّة الإسلام، فيختار حينئذٍ الموقف الّذي يشرح فيه - حتّى لمن كان بعيداً عن الأحداث - أنّ تنازل الإمام الحسن عليه السلام لم يكن إمضــاءً لعمليّة التحويل، ويوقظ فيه الفئة الثالثة من غفلتها ويظهر للفئة الرابعة الواقع الّذي ألجأ الإمام الحسن عليه السلام إلى الصلح.

تقويم مواقف الفئات الأربع

إنّ تقويم المواقف الأربعة لهذه الفئات المتقدّمة من حيث قدرة كلّ منها على تحقيق الأهداف المُشار إليها يمكن بيانه كما يلي:

أمّـا الموقـف الأوّل: وهــو أن يبايع يزيــد، فهو لا يحقّق مكسبــاً على مستوى معالجــة تلك الفئــات من الأمّــة... لأنّ قصّة يزيد لم تكن قصّــة أبي بكر وعمر وعثمــان، لأنّ التحويل هنا على مستوى المفهــوم، ولم يكن بالإمكان أن تمرّ دون أن يقــف أهل البيت عليهم السلام الّذين هم القــادة الحقيقيّون للأمّــة الموقف الدينيّ الواضح المحدّد من عمليّة التغيير هذه.

وأمّا الموقف الثاني: فهو لا يحقّق ذلك المكسب الّذي يريده الحسين عليه السلام أيضــاً، وذلــك لأنّ الإمام الحسين عليه السلام كان يؤكد أنّه لــو بقي في المدينة أو في مكّــة رافضاً البيعــة لقُتل من قِبل بني أميّــة حتّى ولو كان معلّقــاً بأستار الكعبة، وهــذا القتل لن يُحرِّك المسلمين تجاه رسالتهم ودينهم. وإرجاع الأمّة إلى دينها وعقيدتهــا لا يمكن أن يتحقّق مــن خلال قتلٍ عابرٍ سهل من هذا القبيل، بل لا بدّ أن تُحشد له كلّ المثيرات والمحرِّكات.

وأمّـا الموقـف الثالـث: فهــو وإن كان أسلــم مــن الأوّل والثانــي على المدى القصير إذ يمكنه أن يعتصم بشيعته في اليمن مثلاً إلى برهةٍ معينة لكنّه سوف ينعزل، ويحيط نفسه بإطار منغلق عن مسرح الأحداث بينما لا بدّ أن يباشر عمله التغييريّ على مسرح الأحداث الّذي كان وقتئذٍ هو الشام والعراق ومكّة والمدينة

كي يمكن لهذا العمل أن يؤثّر تربويّاً وروحيّاً وأخلاقيّاً في كلّ العالم الإسلاميّ.

وعليه كان لا بدّ للإمام الحسين عليه السلام أن يختار الموقف الرابع الّذي استطاع أن يهزّ به ضمير الأمّة من ناحية، ويشعرها بأهميّة الإسلام وكرامة هذا الدِّين من ناحية ثانية، وأن يدحض عمليّة تحويل الخلافة إلى كسرويّة وقيصريّة من ناحية ثالثة، وأن يوضّح لكلّ المسلمين مفهوم الصلح عند الإمام الحسن عليه السلام وأنّه لم يكن موقفاً إمضائيّاً وإنّما كان أسلوباً تمهيديّاً لموقفه عليه السلام.

ومن أجل هذا كلّه كانت الثورة الحسينيّة الّتي استطاع من خلالها الإمام الحسين عليه السلام أن يفضح المخطّطات الأمويّة، ويحطّم الإطار الدينيّ المزيّف الّذي أحاطوا به سلطانهم، ويحرّك مشاعر الأمّة الإسلاميّة لتعود إلى دينها وعقيدتها وتشعر بتقصيرها الفادح تجاه رسالة محمّد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم.

خلاصة الدرس

- كان للإمام الحسين عليه السلام بعد استشهاد الإمام الحسن عليه السلام نشاط سياسيّ واضح تجاه معاوية، فهو لم ينقض بنود الصلح الّتي أمضاها أخوه الحسن عليه السلام مع معاوية كما نقضها معاوية، ولكنّه بدأ يتحرّك باتّجاه إعداد وتجنيد الطاقات المستعدّة للمعارضة، وابتدأ بمواجهة معاوية بكلّ جرأة وصرامة لأخذه البيعة اللّامشروعة ليزيد كوليّ للعهد بعده.
- لم يتحرّك الإمام الحسين عليه السلام قبل موت معاوية لأنّه لم يكن مستعدّاً لنقض بنود الصلح الموقّعة في زمن الإمام الحسن عليه السلام بحالٍ من الأحوال. وهو كان ينتظر توفّر كلّ الشروط اللّازمة للثورة الّتي لم تكن متوفّرة عند استشهاد الإمام الحسن عليه السلام.

- يعـود الدافع الحقيقيّ للثورة الحسينيّة بهـذا الشكل الّذي تحقّق وإن لم يكـن فيهـا مكسب آنيّ من حيث الوصـول إلى الحكم إلـى أنّ إرادة الأمّة كانت قد أصبحت ميّتة بعد أن عرفت حقيقة خطّ أهل البيت عليهم السلام .
- لم يكن أيّ إجراء بقادرٍ على تحريك ضميرها إلّا الشهادة والتضحية الّتي تغرسـ في أعماق وجودها عظمة الدِّين ورخصـ النفس والحياة الماديّة بالنسبـة إلى دين الله الّذي جاء بكرامـة الإنسان واستهدف إيصاله إلى الكمال اللائق به.



الدرس الثامن

الثورة الحسينيّة: المقوِّمات والنتائج



أهداف الدرس:

١. أن يستذكر الطالب مقوّمات الثورة الحسينيّة.

٢. أن يعدّد نتائج الثورة وآثارها.

٣. أن يتعرّف إلى ثورات ما بعد كربلاء.

مقوّمات الثورة الحسينيّة

ثـار الإمـام الحسيـن عليه السلام ليكشف للأمّـة الوجـه الحقيقيّ للحـكّام الّذين يحكمون باسم الدِّين، وليفضح للمسلمين حقيقة الطواغيت الّذين حكموا الناس باسم خلافة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

وكانت واقعة الطفّ صورة متكاملة للصراع بين الحقّ والباطل، ففيها المعصوم الّـذي لا يُخطـىء، والمجرم الّذي لا يتورّع عـن فعل أدنى الأفعـال وأبشعها. في معسكر الإمام الحسيـن عليه السلام المرأة والطفل الرضيع والصبيّ والشيخ العجوز وكلّ مظاهر السموّ والرفعة بخلاف المعسكر المقابل.

وجـاءت واقعة الطـفّ كقضيّة مأساويّة مثيـرة للأشجان، لتحـرِّك في الأمّة ضميرها وتعيدها نحو رسالتها وتبعث شخصيّتها العقائديّة من جديد. وكان من الـلازم أن يقوم بهـذا الدور مجموعة من الناس تمتلك قـدرات ومقوّمات تجعل دورها فاعلاً ومؤثّراً في حياة هذه الأمّة الميتة، وكان أهمّ هذه المقوّمات - الّتي اجتمعت في ثورة الإمام الحسين عليه السلام - ما يلي:

١ - **المقوّمـات الشخصـيّة للثائـر:** فالثائر الّذي يقود جبهة الحقّ كان إماماً

معصوماً يمتلك كلّ المواصفات القدسيّة بنصّ الرسول ﷺ وهذا ما كانت تدركه الأمّة، خصوصاً مع وجود عدد غير قليل من الصحابة الّذين عاصروا الرسول ﷺ وسمعوا منه تلك الأحاديث بشأن الإمام عليه السلام.

٢ - **قيام الحجّة:** لكي لا تكون الثورة هامشيّة، فلا تعطي ثمرتها المرجوّة، فقد كان الثائر يمتلك الوثائق الكفيلة بإضفاء المشروعيّة على هذه الثورة، وأنّها الحلّ الوحيد والخيار الّذي لا بديل له. فقد كانت رسائل زعماء العراق إلى الإمام عليه السلام تطلب منه القدوم بإلحاح، كقولهم: «**أمّا بعد، فقد اخضرّ الجناب وأينعت الثمار فإذا شئت فأقبل على جندٍ لك مجنّدة**»[١].

ولا شكّ أنّ عدم تلبية الإمام عليه السلام لهذه الطلبات سيُلزمه عليه السلام الحجّة في تفويت الفرصة، وبالعكس فإنّ المجيء سيُلزم الأمّة الحجّة إن هي خانت.

وكذلك الحال بالنسبة إلى التهديد الأمويّ للإمام عليه السلام إن لم يبايع، ولو بايع فإنّه في مثل هذه الحالة سيُعطي الوثيقة الشرعيّة للحكّام الأمويّين.

٣ - **الشعار:** ولكي لا تشوّه هذه الثورة ـ خصوصاً وأنّ الإمام عليه السلام قد علم بخيانة أهل الكوفة ـ أعلن الإمام عليه السلام عن أهدافها وطرح شعاراتها ابتداءً من المدينة حتّى يوم الملحمة الكربلائيّة. ثمّ إنّه وضع الأمّة أمام الخيارات الّتي لا مناص منها ليجعل من ثورته الأسلوب الوحيد أمام التحدّيات الكافرة.

٤ - **المقوّم العاطفيّ:** أي عمليّة إثارة المشاعر في نفوس المسلمين الّذين لم تحرِّك الأفكار المنطقيّة عقولهم. ويُلاحظ المقوّم العاطفي لهذه الثورة من خلال أسلوبين:

(١) المجالس الفاخرة في مصائب العترة الطاهرة، السيّد عبد الحسين شرف الدين: ١٩٠.

أوّلهما: إشراك العقائل من الهاشميّات في الثورة بالإضافة إلى الأطفال، ممّا أثار في النفوس العطف وفي القلوب الانكسار مهما كانت تلك النفوس متوحّشة والقلوب قاسية.

ثانيهما: هو أسلوب التذكير والوعظ الّذي استخدمه الإمام وصحبه، فلقد ذكّر الإمام القوم بقوله: «**انسبوني من أنا، ألست ابن بنت نبيّكم؟**» ثمّ يقول: «**لمَ تحاربونني، ألسنّةٍ غيّرتها أم لبدعةٍ ابتدعتها؟**».

نتائج الثورة وآثارها

إذا أردنا أن نعرف مدى نجاح الإمام الحسين عليه السلام في تحقيق أهدافه فإنّنا نلمس انتصاره في يوم عاشوراء نفسه حيث استطاع أن يستقطب جمعاً ممّن خرج لقتاله وانضوى تحت لواء الجيش الأمويّ، وتوالت الاستجابة لنداء الإمام الحسين عليه السلام بعد عاشوراء حيث استطاعت هذه النهضة أن تُزلزل عروش الظالمين وتُسقط عنهم كلّ الأقنعة أوّلاً ثمّ تؤدّي بهم إلى الانهيار والزوال.

ولم يستطع الحكم العبّاسيّ الغاشم أيضاً أن يتخلّص من شرر هذه الثورة المقدّسة. وأصبحت الثورة على الظلم هي الشعار الأوّل لأهل البيت عليهم السلام وأتباعهم ومحبّيهم، واستطاع المسلمون أن يصمدوا بوجه الاستعمار الصليبيّ الّذي عمّ العالم الإسلاميّ بعد سقوط الخلافة العثمانيّة. وما الثورة الإسلاميّة في إيران إلّا أثرٌ واحدٌ من آثار تلك النهضة المقدّسة. وعلى الرغم من ذلك فإنّ هذا لم يمنع الكثير من المؤرّخين والحاقدين من اتّهام الثورة الحسينيّة بالفشل، بحجّة أنّها لم تحقّق نصراً سياسيّاً آنيّاً يطوّر الواقع الإسلاميّ إلى حالٍ أحسن ممّا كان عليه قبل هذه الثورة.

ولكي نفهم ثورة الحسين عليه السلام علينا أن نفتّش عن أهدافها ونتائجها في غير النصر الآنيّ الحاسم، وفي غير الاستيلاء على مقاليد الحكم، وأن لا نبحث فيما

تعوّدناه في سائر الثورات، وإنّما نلتمس نتائجها في الميادين التالية:

١ - **تحطيم الإطار الدينيّ المزيّف:** الّذي كان الأمويّون وأعوانهم يحيطون به سلطانهم، وفضح الروح اللادينيّة الجاهليّة الّتي كانت أطروحة الحكم آنذاك، وخاصّة بعد أن شاعت هذه الروح في جميع طبقات المجتمع، وكان الإمام عليه السلام هو الشخص الوحيد الّذي يملك رصيداً من المحبّة والإجلال والقادر على فضح الحكّام وكشف حقائقهم.

٢ - **الشعور بالإثم:** أثار استشهاد الإمام الحسين عليه السلام موجة عنيفة من الشعور بالإثم في ضمير كلّ مسلم استطاع نصره فلم ينصره، خصوصاً أولئك الّذي كفّوا أيديهم عن نصره بعد أن عاهدوه على الثورة.

وقد قُدِّر لهذا الشعور بالإثم أن يبقى مشتعلاً في النفوس وحافزاً دائماً على الثورة والانتقام، وقدّر له أن يدفع الناس إلى الثورات على الأمويّين كلّما سنحت الفرصة لهم.

٣ - **الأخلاق الجديدة:** كان لا بدّ لثورة الإمام الحسين عليه السلام من أن تدعو إلى نموذج من الأخلاق أسمى ممّا يُمارسه المجتمع وأن تغيّر نظرة الإنسان إلى الحياة وإلى نفسه وإلى الآخرين، ليمكن إصلاح المجتمع.

ولقد قدّم الإمام الحسين عليه السلام وآله وأصحابهم - في ثورتهم على الأمويّين - الأخلاق والقيم الإسلاميّة العالية بكلّ صفائها ونقائها، ولم يقدّموا إلى المجتمع الإسلاميّ هذا اللون من الأخلاق بألسنتهم، وإنّما كتبوه بدمائهم وحياتهم.

لقد اعتاد الرجل العاديّ إذ ذاك أن يرى الزعيم القبليّ أو الدينيّ يبيع ضميره بالمال، وبعرَض من الحياة الدنيا، وأن يرى الهامات تنحني خضوعاً لطاغية حقير... وأصبح همّ المسلم دُنياه وحياته الخاصّة، يعمل لها ويكدح في سبيلها ولا يفكّر إلّا فيها.

أمّا أصحاب الإمام الحسين عليه السلام فقد كان لهم شأن آخر حتّى قال فيهم عليه السلام: «... **أمّا بعد، فإنّي لا أعلم أصحاباً أوفى ولا خيراً من أصحابي**».

٤ - انبعاث الروح الجهاديّة: كانت النهضة الحسينيّة السبب في انبعاث الروح الجهاديّة في الإنسان المسلم من جديد بعد فترة طويلة من الخمود أو الخنوع والتسليم، فقد حُطّمت كلّ الحواجز النفسيّة والاجتماعيّة الّتي حالت دون الثورة.

فواقع الإنسان المسلم كان يدعوه إلى الاستسلام والمساومة والدعة، فجاءت ثورة الإمام الحسين عليه السلام، وقدّمت للإنسان المسلم أخلاقاً جديدة لتقول له: لا تستسلم، لا تساوم على إنسانيّتك، ناضل قوى الشرّ ما وسعك، ضحّ بكلّ شيء في سبيل مبدئك.

ونلاحظ انبعاث الروح الجهاديّة في الأمّة بعد الثورة في كلّ الثورات الّتي حملت شعار الثأر لدم الإمام الحسين عليه السلام والّتي جاءت صدى لثورته، وكذلك في ردود الفعل الّتي بدأت بالظهور مع دخول السبايا إلى الكوفة. فبالرغم من القمع والإرهاب اللذين مارسهما ابن زياد مع كلّ من كان يُبدي أدنى معارضة ليزيد فإنّ أصواتاً بدأت ترتفع محتجّةً على الظلم السائد[١].

وظهرت في الشام أيضاً بوادر السخط والاستياء، الأمر الّذي جعل يزيد ينحو باللّائمة في قتل الإمام الحسين عليه السلام على ابن زياد.

إلّا أنّ أشدّ ردود الفعل كانت تلك الّتي برزت في الحجاز، حيث انتقل عبد اللّه بن الزبير إلى مكّة واتّخذها قاعدة لمعارضته للشام، وقام بتوظيف فاجعة كربلاء للتنديد بنظام يزيد.

(١) ومن الأمثلة على ذلك أنّ ابن زياد صعد على المنبر وأثنى على يزيد وحزبه وأساء إلى الإمام الحسين عليه السلام فقام عبد الله بن عفيف الأزدي وقال له: يا عدوّ الله إنّ الكذّاب أنت وأبوك والّذي ولّاك وأبوه. يابن مرجانة، تقتل أولاد النبيّين وتقوم على المنبر مقام الصدّيقين؟! فقال ابن زياد: عليّ به، فأخذته الجلاوزة فنادى بشعار الأزد فاجتمع منهم سبعمائة فانتزعوه من الجلاوزة. فلّما كان الليل أرسل إليه ابن زياد من أخرجه من بيته فضرب عنقه وصلبه. الإرشاد، الشيخ المفيد: ٢٤٤.

الإمام السجّاد عليه السلام وإكمال مسيرة النهضة

ذكـر المؤرّخـون أنّ موكب السبايا سار به ابن سعـد، من كربلاء إلى الكوفة، وعلـى رأس الموكب الإمام عليّ بن الحسين عليه السلام الّذي استطاع أن يواجه القتلة والمجرميـن ويقف متحدّياً جبروتهـم وطغيانهم كما حصل فـي المواجهة بينه عليه السلام وبيـن ابن زيـاد والّتي قال في نهايتها الإمـام عليه السلام: «**أبالقتل تهدّدني يا بن زياد؟ أما علمت أنّ القتل لنا عادة وكرامتنا من الله الشهادة؟**»[1]. فأمر ابن زيـاد بنساء الإمام الحسين عليه السلام وصبيانـه وبالإمام عليّ بن الحسين عليهما السلام ثمّ سـرّح بهم في إثر الرؤوس وحملهم على الأقتاب، وساروا بهـم إلى الشام، تلك المدينـة الّتـي خضعت منذ فتحها بأيدي المسلمين لحـكّام مثل خالد بن الوليد ومعاويـة بن أبي سفيان، فلـم يشاهد الشاميون النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، ولـم يسمعوا حديثه الشريف منه مباشرة، ولم يطّلعوا على سيرة أصحابه عن كثب. أمّا النفر القليل من صحابة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم الّذين انتقلوا إلى الشام وأقاموا فيها فلم يكن لهم أثر في النـاس بقدر مـا كان يقوم به معاوية من دور لتمثيل الإسـلام ورسم معالمه كما يحلو له لدى الشاميّين.

لـذا كان على الإمام السجّاد عليه السلام أن يقـوم بتعريف أهل الشام إلى ما جرى فـي كربلاء، وإلى حقيقة أهل بيت النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم الّذيـن سُفكت دماؤهم في الطّف، وإلـى السبايا من آل محمّد صلى الله عليه وآله وسلم الّذين عندما دخلوا الشام اعتقد أهلها أنّهم من الخارجيـن على الإسلام. وليس أدلّ على ذلك من تلك الحادثة الّتي اقترب فيها شيـخ شاميّ من الإمام السجّاد قائـلاً له: الحمد لله الّذي أهلككم وأمكن الأمير منكـم، فجـرى حوار بينهما كانت نهايتـه أن بكى ذلك الشيـخ ورمى عمامته ثمّ رفـع رأسه إلى السمـاء وقال: «**اللّهم إني أبرأ إليك من عـدوّ آل محمّد**». وحين



(١) أعيان الشيعة، السيّد محسن الأمين: ٤/١٤٦، دار التعارف، بيروت، ط ٢، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م.

استقبل إبراهيم بن طلحة الإمام السجّاد عليه السلام قال: يا عليّ بن الحسين، من غلب؟ والإمام عليه السلام مغطٍّ رأسه وهو في المحمل، فقال له عليه السلام: «**إذا أردت أن تعلم من غلب، ودخل وقت الصلاة فأذّن ثمّ أقم**»[1].

لقد كان جواب الإمام عليه السلام: إنّ الصراع إنّما هو على الأذان وتكبير الله تعالى والإقرار بوحدانيّته والإقرار بنبوّة محمّد صلى الله عليه وآله وسلم وليس على الرئاسة، وإنّ استشهاد الإمام الحسين عليه السلام والصفوة من أهل بيته وأصحابه هو سبب بقاء الإسلام المحمّديّ وثباته أمام جاهليّة بني أميّة ومن حذا حذوهم ممّن لم يذوقوا حلاوة الإيمان والتسليم لشريعة الله سبحانه.

هذا بالإضافة إلى المواجهة العنيفة في ذلك الحوار الّذي جرى بين الإمام السجّاد عليه السلام والطاغية يزيد عندما أدخلوا عليه في قصره رأس الإمام الحسين عليه السلام ونساءه وأهل بيته وهم مقرّنون في الحبال والإمام زين العابدين عليه السلام مغلول، وفي ذلك المجلس وأمام أهل الشام وبفضل بيان الإمام السجّاد عليه السلام وكلماته تبيّن للناس أنّ بني أميّة غارقون في الإثم، وأنّ الحكم الأمويّ قد جهد في إغوائهم وإضلالهم.

الثورات بعد كربلاء

كان من نتائج النهضة الحسينيّة - كما ذكرنا - انبعاث الروح الجهاديّة في الأمّة، وبدأت الأمّة ترقب زعيماً يقودها. وكلّما وُجد القائد وُجدت الثورة على الظلم الأمويّ. هذا فضلاً عن الدور الّذي قام به الإمام السجّاد عليه السلام والسيّدة زينب عليها السلام في تعريف وبيان حقيقة ما جرى بعد أن أوهم الحكم الأمويّ الأمّة الإسلاميّة - خصوصاً في الشام - أنّ أصحاب الثورة هم من الخارجين عن طاعة الأمير وما شاكل ذلك.

---

(١) أمالي الطوسي، أبو جعفر، محمّد بن الحسن: ٦٧٧، تحقيق مؤسسة البعثة، دار الثقافة، قم، ط١، ١٤١٤هـ.

فالثـورة وتحرّكات الإمام السجّـاد عليه السلام كان لهما الصدى الكبير في إشعال الـروح الجهاديّـة لدى الأمّة الّتي أطلقـت العديد من الثـورات الّتي حملت شعار الثأر لدم الإمام الحسين عليه السلام ، ونذكر من هذه الثورات:

١ - ثورة أهل المدينة

أراد عثمان بن محمّد بن أبي سفيان أن يكسب رضا أهل المدينة فأرسل وفداً من أبنـاء المهاجرين والأنصار إلى دمشق ليشاهـدوا الخليفة وينالوا نصيبهم من هداياه. إلّا أنّ الوفد رأى من سلوك يزيد ما يشين ويقبح.

ولمّـا رجعوا إلى المدينة أظهروا شتـم يزيد وعيبه، وقال عبد اللّه بن حنظلة (غسيل الملائكـة): لو لم أجد إلّا بنيّ هؤلاء لجاهدته بهم... فخلع النـاس يزيد وبايعـوا عبـد اللّه بن حنظلة وولّوه عليهم[١]. كما أنّهـم أخرجوا عامل يزيد على المدينة وحاصروا بني أميّة وأتباعهم.

ولمّا بلغ أمر الثورة إلى مسامع يزيد أرسل مسلم بن عقبة - السفّاك - ليقضي علـى ثورة أهـل المدينة. وبعد قتالٍ عنيف مع أهلها قُتِل فيـه أغلب الثوّار ومنهم عبد اللّه بن حنظلة ومجموعة من صحابة رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم نفّذ قائد الجيش أوامر يزيـد باستباحـة المدينة، فهجـم الجند على البيـوت وقتلوا الأطفـال والشيوخ واستباحوا النساء.

قـال ابـن كثير: «... **ووقعوا على النسـاء حتّى قيل إنّه حبلـت ألف امرأة في تلـك الأيّام من غير زوج**»[٢]. وذكـر المؤرّخون أنّ الإمام السجّاد عليه السلام كفل في واقعـة الحرّة أربعمائة أسرة مـن عبد مناف، وظلّ ينفق عليها حتّى خروج جيش ابن عقبة من المدينة.

---

(١) الكامل في التاريخ، م.س/٤/٣.

(٢) البداية والنهاية، أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي، تحقيق علي شيري: ٨/٢٢٠، دار الفكر، بيروت، ١٣٩٨هـ.

٢- ثورة ابن الزبير وثورة التوّابين

صعّد عبد اللّه بن الزبير بعد واقعة كربلاء معارضته للأمويّين ودعا الحجازيّين لمبايعته، فاستجابت له الأكثريّة الساحقة منهم. وشهد العراق أيضاً تحرّكاً جديداً بعد الندم الّذي أخذ يقضّ مضاجع الكوفيّين نتيجة شعورهم بالإثم إذ خذلوا الإمام الحسين عليه السلام، وتركوا نصرته بعد أن استدعوه بكتبهم إلى الكوفة. فرأوا أن يغسلوا عارهم بالانتقام من قتلته عليه السلام فكانت ثورتهم سنة ٦٥ للهجرة.

٣- ثورة المختار

استنهض المختار ابن أبي عبيدة الثقفيّ أهل العراق لأخذ الثأر من قتلة الإمام الحسين عليه السلام، وبدأ بإعداد الشيعة للثورة بعد فشل ثورة التوّابين، وكاتب الإمام السجّاد عليه السلام الّذي لم يُعلن عن تأييده الصريح له، لكنّه عليه السلام أمضى عمله عندما ثأر من قتلة أبيه الإمام الحسين عليه السلام.

وأرسل المختار رأسي عبيد اللّه بن زياد وعمر بن سعد إلى الإمام عليه السلام فسجد عليه السلام شكراً للّه تعالى وقال: «**الحمد لله الّذي أدرك لي ثأري من أعدائي وجزى الله المختار خيراً**»[1].

ويقول بعض المؤرّخين: إنّ الإمام زين العابدين عليه السلام لم يُرَ ضاحكاً منذ أنّ استشهد أبوه إلّا في اليوم الّذي رأى فيه رأس ابن مرجانة.

هذه نماذج من الثورات الّتي تأثّرت بوضوح بروح الثورة الّتي بثّها الإمام الحسين عليه السلام في الشعب المسلم، والّتي استمرّت طيلة الحكم الأمويّ، حتّى قضت عليه بثورة العبّاسيّين، والّتي لم تكن لتنجح لو لم تعتمد على إيحاءات ثورة الإمام الحسين عليه السلام واستغلالها لشعار «**الرضا من آل البيت** عليهم السلام».

(١) بحار الأنوار، م. س: ٤٥/٣٨٦.

انهيار الحكم السفياني وانشقاق البيت الأمويّ

هلـك يزيـد في ربيع الأوّل من سنة ٦٤ هجريّة وهـو في الثامنة والثلاثين من عمره. وكانت صحيفة أعماله في مدّة حكمه – الّذي استمرّ ثلاث سنوات وبضعة أشهـر - سوداء بسبب قتله ابن بنـت النبيّ ﷺ وأسر أهل بيت رسول الله ﷺ في السنـة الأولى والقتل الجماعيّ لأهل المدينة في السنـة الثانية وهدم الكعبة في السنة الثالثة من حكمه.

ثمّ بايع أهل الشام ولده معاوية، إلّا أنّ حكمه لم يستمرّ أكثر من أربعين يوماً، إذ أعلن تنازله عن العرش، ومات بعدها في ظروف غامضة حتّى قيل إنّه مات مسموماً. فانشقّت القيادة المؤيّدة لبني أميّة على نفسها إلى كتلتين:

كتلـة أيّدت زعامة مروان بن الحكم، وقد مثّل هـذا الاتجاه القبائل اليمانيّة، بقيـادة حسّـان الكلبيّ، بينمـا أيّدت قـوى القيسيّين بقيادة الضحّـاك بن قيس الفهري، عبد الله بن الزبير.

وإبّان خلافة يزيد القصيرة امتدّت أيدي الكلبيّين تدريجيّاً إلى مراكز السلطة فمارسوا ضغوطاً شديدة على القيسيّين، الأمر الّذي أزعج الضحّاك كثيراً فانتهز الفرصة بعد موت يزيد ليبايع ابن الزبير، واشتبك الكلبيّون والقيسيّون في «**مرج راهط**»[1] في معركة أسفرت عن انتصار الكلبيّين، فأصبح مروان بن الحكم خليفة، واستقرّت الأوضاع المضطربة في الشام نسبيّاً.

(١) منطقة في شرق دمشق.



خلاصة الدرس

- تقوّمت ثورة الإمام الحسين عليه السلام بقائد جعله الله إماماً للمسلمين بنصّ من الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم، وكان يمتلك كلّ الأدلّة الكفيلة بإثبات مشروعيّة ثورته.

- كانت الشعارات الّتي رفعها الإمام منذ بداية حركته صريحة واضحة؛ بحيث لا تقبل التشويه والتزييف على مدى العصور.

- كان من نتائج هذه الثورة الّتي كان رائدها الحقّ وعدل السماء:

١. تحطيم الإطار المزيّف الّذي كان الأمويّون يحيطون به سلطانهم.

٢. أثارت موجة عنيفة من الشعور بالإثم في ضمير كلّ مسلم لم ينصر الإمام الحسين عليه السلام.

٣. بعثت نموذجاً من الأخلاق أسمى ممّا يمارسه المجتمع.

٤. بعثت الروح الجهاديّة في الإنسان المسلم من جديد.

- أكمل الإمام السجّاد عليه السلام مسيرة الثورة وفضح بني أميّة خلال تنقّل موكب السبايا من الكوفة إلى الشام.

- كان من نتائج الثورة الحسينية حصول العديد من الثورات بعدها، ومنها: ثورة أهل المدينة، وثورة التوّابين، وثورة المختار.

- انهيار الحكم السفيانيّ مع موت يزيد سنة ٦٤ هجرية، بعد أن ترك صحيفة سوداء من الأعمال السيّئة الّتي مارسها خلال حياته.



الحياة السياسيّة والفكريّة للإمام السجّاد عليه السلام



أهداف الدرس:

١. أن يتعرّف الطالب إلى حالة المجتمع أيّام الإمام زين العابدين عليه السلام.

٢. أن يتبيّن ما قام به الإمام السجّاد عليه السلام لمواجهة التحدّيات.

٣. أن يعدّد أبرز ما قام به الإمام عليه السلام على صعيد التبليغ والمواجهة.

الإمام السجّاد عليه السلام وانحراف الحكّام

فـي نظـرةٍ سريعة إلى عصــر الإمام زيـن العابدين عليه السلام، بـدءاً باستلامه لمهامّ الإمامة بعد استشهاد أبيه عليه السلام في العاشر من المحرّم سنة ٦١ للهجرة، نلاحـظ معاصرته لحكومة يزيد الّتي انتهت بهلاكه عـام ٦٤ هجريّة ثمّ حكومة مروان البالغة تسعة أشهر في الشام وحكومة ابن الزبير في مكّة، حيث بويع لعبد الملـك بن مروان بعد هلاك أبيه عام ٦٥ هجريـة. وقد استمرّ التنافس بين ابن الزبير وعبد الملك حتّى عام ٧٣ هجريّة حيث قُتل ابن الزبير وخلا كرسيّ الحكم لعبد الملك حتّى سنة ٨٦ هجريّة، ثمّ بويع للوليد بعد هلاك عبد الملك، واستمرّ حكمه حتّى استشهاد الإمام زين العابدين عليه السلام سنة ٩٤ أو ٩٥ هجريّة.

إذاً، فتـرة حكـم عبـد الملك هي أطـول فترة عاصرها الإمـام عليه السلام، حيث تبلـغ عقدين من الزمن تقريباً. وقد اجتمعت في هذا العصر عدّة عوامل لانهيار الحـزب الأمويّ الحاكم. ولكنّـا نلاحظ استمرار الأمويّين فـي الحكم حتّى عام ١٣٢ هجريّة. فما هي الأسباب الّتي أدّت إلى دوام هذا الحكم الجاهليّ المنحرف بالرغم من توفّر عناصر الهدم والانهيار؟

هنـا لا بـدّ أن ندرس كلّاً من عوامـل الانهيار وعوامل الـدوام، ثمّ نقارن بين المجموعتيـن لنرى الأسبـاب الواقعيّة الّتي وقفت وراء استمـرار الحكم الأمويّ لمـدّة تناهز سبعة عقود بعد ثورة الإمام الحسين عليه السلام. ومن خلالها نقف على طبيعة الظروف الدينيّة والثقافيّة والسياسيّة والاقتصاديّة الّتي اتّصف بها عصر الإمام زين العابدين عليه السلام.

عوامل انهيار الحكم الأمويّ زمن السجّاد عليه السلام

١- ثورة الإمام الحسين عليه السلام

استطاعـت الثورة الحسينيّـة كشف زيف الأقنعة الدينيّـة الّتي كان يتقنّع بها الحكـم الأمـويّ الجاهليّ. واتضّح لـكلّ القطاعات زيف الشعـارات الدينيّة الّتي يرفعهـا الحكّام. وانكشف للغافلين أيضاً أنّ الإمام الحسين عليه السلام لو كان طالب ملك لكان بايع يزيد أوّلاً ثمّ كان لينتهز الفرصة ويستخدم أنواع الأساليب الملتوية للتسلّق إلى الحكم ثانياً.

وقـد أحيت الملحمة الحسينيّة في سنة ٦١هـ روح الإباء والعزّة والكرامة لدى المسلمين. وتجلّت هذه الحقيقة في المعارضة الدمويّة المستمرّة الّتي تمثّلت في الثورات المتتالية حتّى إسقاط الحكم الأمويّ وتصفيته سنة ١٣٢هـ.

٢-حركة الإمام السجّاد عليه السلام وعقائل الرسالة

لقد كانـت خُطب الإمام زين العابدين عليه السلام وعمّته السيّدة زينب عليها السلام في كربـلاء والكوفة والشام والمدينة ـ أهمّ حواضر العالـم الإسلاميّ ـ تشكّل الدور الثانـي والمكمّل للثورة الحسينيّة، لأنّه لولا هذه الخطب الفاضحة للحكم الأمويّ والمفسّرة لأبعاد ومعالم الثورة الحسينيّة والكاشفة عن حقيقتها لكانت شعارات الأمويّين المضلّلة قضت على أهداف هذه الثورة العظيمة.

٣- انهيار الحكم السفيانيّ وانشقاق البيت الأمويّ

هلك يزيد سنة ٦٤هـ بعد أن ارتكب الفضائح العظام الّتي تمثّلت أوّلاً بقتله للإمام الحسين عليه السلام ثمّ استباحته لمدينة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وقتل الصحابة والتابعين فيها سنة ٦٢هـ. ثمّ هدمه الكعبة واستباحتها سنة ٦٣هـ.

ولم يكن ابنه معاوية على استعداد لأن يتحمّل وِزر بني أميّة في اغتصاب منصب الخلافة، فلم يستخلف أحداً، وأدان معاوية الأوّل وأباه يزيد بن معاوية. وبهذا انهار الحكم السفياني. وكاد أن يتبعه الأمويّ لولا تدارك مروان بن الحكم للأمر وتخطيطه لاستلام الخلافة في هذا الظرف المضطرب بعد موت معاوية بن يزيد حيث بايع لابنه عبد الملك، وحاول السيطرة على مصر والشام وهكذا أخذ البيت الأمويّ بالانشقاق والتصدّع.

ولعلّ مسارعة آل مروان إلى الوثوب على الملك بعد آل أبي سفيان كانت تدبيراً هدفه امتصاص النقمة بعد جريمة الطفّ لإطالة عمر الدولة الأمويّة. وقد يجد الباحث في كلمات المروانيّين ما يلمّح إلى ذلك إضافة إلى ظروف وفاة معاوية بن يزيد...

عوامل استمرار الحكم الأمويّ

استفاد الأمويّون المروانيّون من تجربة يزيد الفاشلة، والّتي أبادت حكومته بسبب هتكه لحرمات الشريعة وتنكيله بآل بيت رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم، بالإضافة إلى انكشاف حقيقة الحكم الأمويّ الجاهليّ بعد استشهاد الإمام الحسين عليه السلام.

ومن هنا كان لا بدّ للأمويّين من المقاومة أمام هذين العنصرين المؤدّيين إلى الانهيار، ولذا عملوا نحو تحقيق غطاء شرعيّ ولو مزيّف ليستند إليه الحكم، وكذلك إضعاف عنصر الحماس والجهاد بين أبناء المجتمع، وإليك صورة موجزة عن كلّ واحد من هذه الأسباب:

أ- الغطاء الشرعيّ للحكم المنحرف:

يتمثّل الغطاء الشرعيّ في مفردتين أساسيّتين:

١- **وعّاظ السلاطين:** استخدم الحكم الأمويّ بعض العلماء للتعاون معهم وتوجيه خططه وسلوكه مثل محمّد بن مسلم بن شهاب (الزهريّ) والشعبيّ.

وكان لارتباط مثل هؤلاء بالسلطة دور إيجابيّ في إسباغ الطابع الشرعيّ على الحكم القائم.

٢- **مفاهيم عقائديّة ودينيّة خاطئة:** مثل مفاهيم الجبر وحرمة الخروج على الحاكم المسلم وإسباغ طابع القدسيّة على الحاكم والسلطان وحرمة ترك الجماعة...

ب- عدم التعرّض المباشر والصريح لأهل البيت عليهم السلام

استعمل عبد الملك بن مروان سياسة مرنة تجاه الإمام زين العابدين عليه السلام والهاشميّين من جهة بينما شدّد على أتباعهم من جهة أخرى وذلك امتصاصاً للنقمة ضدّ حكمه.

وقد أرسل عبد الملك إلى الحَجّاج كتاباً جاء فيه: «**أمّا بعد، فانظر دماء بني عبد المطّلب فاحتقنها واجتنبها فإنّي رأيت آل أبي سفيان لمّا ولغوا فيها لم يلبثوا إلّا قليلاً**»[١].

ج- تفتيت جبهة المعارضة

وذلك من خلال عدّة وسائل وقنوات منها:

١- الرقابة التامّة والضغط الشديد الموجّه إلى مراكز التحرّك مثل الكوفة والمدينة، وهي مراكز الولاء لآل البيت عليهم السلام.

---

(١) بحار الأنوار، م.س: ٤٦/١٣٠ - ١٤٦.

٢- الضغـط الاقتصـادي وسياسة التجويع، فقد سلّط عبـد الملك الحَجّاج علـى شيعة آل البيـت عليهم السلام فقتلهم شـرّ قتلة وأخذهم بـكلّ ظِنّة وتهمة حتّـى أنّ الرجل كان أحبّ إليـه أن يقال له زنديق أو كافر من أن يقال له شيعـة علـيّ عليه السلام .

وهكذا استطاع الحكّام المنحرفون بالرغم من توفّر عوامل الانهيار أن يستمرّوا فـي الحكم أكثر من سبعة عقـود، حتّى تغلّبت عناصر الهـدم على عناصر البناء واستطاع أئمّة أهل البيت عليهم السلام أن يزيلوا الغطاء الشرعيّ الّذي اصطنعه الظالمون لأنفسهم، من خلال تعرية الوعّاظ أمام الناس والردّ على المفاهيم الدينيّة الخاطئة وتقوية شيعتهم ثقافيّاً واجتماعيّـاً واقتصاديّاً، حتّى بلغ الأمر أن يتّجه العبّاسيّون لاستلام السلطة تحت شعار الدفاع عن مظلوميّة أهل البيت عليهم السلام وكسب رضاهم، وفي هذا دلالة واضحة على عظمة الدور الّذي قام به الأئمّة المعصومون عليهم السلام .

معالم التخطيط في سيرة الإمام السجّاد عليه السلام

كانت المهامّ الأساس لأهل بيت الرسالة بعد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم هـي صيانة الرسالة والأمّـة والدولة الإسلاميّـة من الضياع. وهذا ما يكشف عظمـة الدور الّذي قام بـه أهل البيت عليهم السلام في الظروف الحرجـة. ولولا صبرهم وجهادهم لما اندحر الباطـل القابع تحت سـتار الشعـارات الإسلاميّة البرّاقة. وكذلـك لولا الحكمة والتخطيط الدقيق لما حصلت هذه النتائج الباهرة.

وإذا استطعنـا أن نصنّف سلوك أهل البيت عليهم السلام لمعالجة الانحراف الّذي أصـاب المجتمـع والدولة والشريعـة، فإنّنا سوف نلاحظ نوعاً مـن المرحليّة فـي العـلاج المستمـرّ، إلى جانب نـوع من العـلاج المشترك الّـذي التزم به كلّ الأئمّـة عليهم السلام وعلى طول الخـطّ الجهاديّ الّذي قطعـوه خلال ثلاثة قرون تقريبـاً.

وكانت المرحلة الأولى من العلاج، حين كان الانحراف طافياً على السطح، لم يأخذ طريقه باتّجاه الأعماق والجذور. وتتمثّل هذه المرحلة في كشف الانحراف وبيـان مصاديقـه. وكان يكفي بيـان أحقّية أهـل البيـت عليهم السلام بالخلافة وعدم شرعيّـة المتربّعين علـى كرسيّها. وتجسّد هذا العلاج في سيـرة الأئمّة الأربعة، علـيّ بن أبي طالب عليه السلام، والحسن والحسيـن عليهما السلام، والمقطع الأوّل من حياة الإمام زين العابدين عليه السلام.

ولكـن بعد تجـذّر الانحـراف واتّسـاع دائرته من خـلال استمراريّـة الحكم المنحـرف، وتسلّـح الحـكّام بالغطاء الشرعـيّ المزيّف، كان لا بـدّ لأهل البيت عليهم السلام مـن تخطيط يتناسب مع هـذه المرحلة. وبداية هـذه المرحلة هي العقود الثلاثـة الأخيرة من حيـاة الإمام زيـن العابدين عليه السلام، والّتي كانـت بعد زوال الحكـم السفيانيّ وبداية استفحـال الحكم المروانيّ الّذي عمل أيضاً على إيجاد غطاء شرعيّ يقبع تحته. وقد قام بعض أهل العلم من رواة وفقهاء العامّة - وممّن عُرفـوا فيما بعد بوعّاظ السلاطين - بدور مهمّ لإيجـاد هذا الغطاء الشرعيّ في نظر عامّة المسلمين، وحقّقوا بذلك غرضين كبيرين هما:

الأوّل: منح الشرعيّة للحاكمين.

الثاني: محاولة عزل أبناء الأمّة الإسلاميّة عن مدرسة أهل البيت عليهم السلام.

متطلّبات مرحلة الإمام السجّاد عليه السلام

إنّ المرحلـة الّتـي عاشها الإمام عليّ بن الحسيـن عليه السلام اقتضت العمل على إحباط المؤامرة الكبيرة المتمثّلة بالغرضين المتقدّمين.

ومـن هنا نفهم لماذا تـركّزت جهود الأئـمّـة عليهم السلام بعد استشهاد الإمام الحسين عليه السلام على بناء جامعة أهـل البيت عليهم السلام العلميّة وتخريج علماء وفقهاء أتقياء يكونون أمناء على الشريعة؛ لا يهادنون السلطة ولا يسيرون في

ركابها ويشكّلون تيّاراً علميّاً وزخماً ثقافيّاً ومدرسةً ذات أصول ومناهج ورموز في شتّى ميادين المعرفة الإسلاميّة. وكانت أولى نتائج هذا الجهد: صيانة الشريعة الإسلاميّة من أنواع التحريف الّذي بدأ يتسرّب إليها.

يقول الشهيد الصدر: «**كان لا بدّ من عمل على الصعيد العلميّ يؤكّد في المسلمين أصالتهم الفكريّة وشخصيّتهم التشريعيّة المتميّزة المستمدّة من الكتاب والسنّة. وكان لا بدّ من حركة فكريّة اجتهاديّة تفتح آفاقهم الذهنيّة ضمن ذلك الإطار... كان لا بدّ إذن من تأصيل للشخصيّة الإسلاميّة، ومن زرع بذور الاجتهاد.**

وهذا ما قام به الإمام عليّ بن الحسين عليه السلام؛ فقد بدأ حلقة من البحث والدرس في مسجد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يحدّث الناس بصنوف المعرفة الإسلاميّة، من تفسير وحديث وفقه، ويفيض عليهم من علوم آبائه الطاهرين عليهم السلام... وقد تخرّج من هذه الحلقة عدد مهمّ من فقهاء المسلمين. وكانت هذه الحلقة هي المنطلق لما نشأ بعد ذلك من مدارس الفقه والأساس لحركته الناشطة»[1].

الإمام السجّاد ومواجهة المسخ الثقافيّ والأخلاقيّ

تميّز عصر الإمام زين العابدين عليه السلام بالانفتاح على الحضارات الأخرى ودخول الأفواج الكبيرة في رحاب الدولة الإسلاميّة المترامية الأطراف والفتوحات ذات الغنائم والمكاسب المادّية الكثيرة المؤدّية بسوء استغلالها إلى المسخ الثقافيّ والأخلاقيّ بالتدريج.

فكانت المرحلة تتطلّب من الإمام عليه السلام أن يقف أمام هذا المسخ الخطير. وكانت جهوده العلميّة والتربويّة هي الحصن المنيع أمام ذلك.

(١) من مقدّمة الشهيد الصدر على الصحيفة السجّاديّة.

وأمّا مواجهة المسخ الأخلاقيّ فكانت تتطلّب جُهداً من نوع آخر توجّه إليه الإمام عليه السلام ووجّه إليه الأمّة بشكلٍ عامّ، والجماعة الصالحة بشكل خاصّ. ومن هنا برزت في مدرسة أهل البيت عليهم السلام ظاهرة الدعاء الّتي ميّزتها عن سائر المدارس الإسلاميّة.

وقد شعر الإمام عليّ بن الحسين عليه السلام بالخطر الكبير فبدأ بعلاجه بما أمكنه في تلك الظروف. واتّخذ من الدعاء أساساً لهذا العلاج، فكانت الصحيفة السجّاديّة من نتاج ذلك. وقد استطاع عليه السلام بما أُوتي من بلاغة فريدة وقدرة فائقة على أساليب التعبير العربي وذهنيّة ربّانيّة تتفتّق عن أروع المعاني وأدقّها أن يصوّر صلة الإنسان بربّه وخالقه وتعلّقه بمبدئه ومعاده، وتجسيد ما يعبّر عن ذلك من قيم خلقيّة وحقوق وواجبات. ونشر من خلال الدعاء جوّاً روحيّاً في المجتمع الإسلاميّ ساهم في تثبيت الإنسان المسلم عندما عصفت به المغريات وشدّه إلى ربّه حينما جرّته الأرض إليها.

وقد جاء في سيرته عليه السلام أنّه كان يخطب الناس في كلّ جمعة ويعظهم ويزهّدهم في الدنيا ويرغّبهم في أعمال الآخرة.

وهكذا تعرف أنّ الصحيفة السجاديّة تعبّر عن عمل اجتماعيّ عظيم، كانت ضرورة المرحلة تفرضه على الإمام عليه السلام إضافة إلى كونها تراثاً ربّانيّاً فريداً، يظلّ على مدى الدهور مصدر عطاء ومشعل هداية ومدرسة أخلاق وتهذيب، وتظلّ الإنسانيّة بحاجة إلى هذا التراث المحمّديّ العلويّ، وتزداد الحاجة إليه كلّما ازداد الشيطان إغراءً والدنيا فتنةً.

مدرسة الإمام السجّاد عليه السلام

أشرنا إلى أنّ انفتاح المسلمين في عصر الإمام السجّاد عليه السلام على ثقافات متنوّعة وأعراف مختلفة للشعوب الّتي دخلت في الإسلام أدّى إلى خطر التأثّر

بهـذه الأعـراف. كما أنّ الحكومـة الأمويّة من أجل إحـكام سيطرتها على رقاب المسلمين سارت فـي خطّ إماتة الوعي ومحاربة العلم وإنشاء مذاهب أو تيّارات عقيديّة تنتهي إلى الجمود الفكريّ والركود العلميّ بالتدريج.

من هنا قام الإمام زين العابدين عليه السلام بتأسيس مدرسة علميّة وإيجاد حركة فكريّة اجتهادية تفتح الآفاق الذهنيّة للمسلمين، وذلك بما بدأه من حلقات البحث والتدريس في مسجد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وبما كان يُثيره في خطبه في صلوات الجُمَع أسبوعيّاً.

وقـد تخـرّج من هـذه الحلقات عدد كبير مـن فقهاء المسلميـن، يحمل وعي الإمـام وروحه وعلمه. وكانـت هذه الحلقات هي المنطلَق لمـا نشأ بعد ذلك من مدارس فقهيّة وشخصيّات علميّة. والتفّ حوله عليه السلام القرّاء والفقهاء والعلماء بنحـوٍ لا نجد له نظيـراً في غيره من العصور، حتّى قال سعيـد بن المسيّب: «إنّ **القـرّاء كانـوا لا يخرجون إلى مكّة حتّى يخرج عليّ بن الحسـين عليه السلام فخرج وخرجنا معه ألف راكب**»[1].

وقام الإمام عليه السلام بأداء دور مهمّ في ميدان الإصلاح الثقافيّ أيضاً فتصدّى لنشـر حديـث الرسـول صلى الله عليه وآله وسلم متحدّياً لحظـر السلطة، ودعـا إلى العمـل بالسنّة الشريفـة واهتمّ بتدريـس القرآن وتفسيره وحفظه وإكـرام حملته، وشيّد قواعد التوحيـد الإلهـيّ وأجاب عن الشبهـات الّتي كان يثيرها دعـاة الجبر والتجسيم والتشبيه والإرجاء.

ولمّا كانت غاية الحكّام إقصاء أئمّة أهل البيت عليهم السلام عن الإمامة والحاكميّة والولاية ونفي إمامتهم الدينيّة، أعلن الإمام السجّاد عليه السلام عن إمامة نفسه بكلّ وضوح وصراحة ومن دون أيّة تقيّة وخفاء، واهتمّ بإرشاد الناس إلى هذا المعين الصافي للشريعة.

(١) بحار الأنوار، م.س: ٤٦/ ١٥٠.

قال أبو المنهال نصر بن أوس الطائيّ: قال لي عليّ بن الحسين عليه السلام: «**إلى مَن يذهب الناس**»؟ قال: قلت: يذهبون ها هنا وها هنا. قال عليه السلام: «**قل لهم: يجيئون إليّ**»[1].

وقد خرّجت مدرسة الإمام السجّاد عليه السلام كوكبة من العلماء الكبار، منهم الفقهاء والمفسّرون، يعود الفضل إليهم في دفع عجلة الإحياء العلميّ في ذلك العصر الرهيب، وفي مقدّمتهم الإمام أبو جعفر الباقر عليه السلام وأخواه زيد والحسين ابنا عليّ بن الحسين عليهم السلام؛ وأبان بن تغلب الّذي كان يقول له الإمام الباقر عليه السلام: «**اجلس في مسجد المدينة وافتِ الناس فإنّي أحبّ أن يُرى في شيعتي مثلك**»[2]، وثابت بن أبي صفيّة (أبو حمزة الثماليّ)، وكانت الشيعة ترجع إليه في الكوفة لإحاطته بفقه أهل البيت عليهم السلام حتّى شُبّه بسلمان الفارسيّ، ورشيد الهجريّ الّذي صلبه الأمويّون لعقيدته وولائه، وأبو خالد الكابليّ الّذي كان باب الإمام وموضع سرّه، وغيرهم كثير.

وحقّق النشاط العلميّ للإمام عليه السلام غاياته المتوخّاة، فالمسجد النبويّ الشريف ودار الإمام عليه السلام شهدا طوال خمسة وثلاثين عاماً - وهي فترة إمامته - نشاطاً فكريّاً من الطراز الأوّل.

وكان انفراط عقد الشيعة بعد استشهاد الإمام الحسين عليه السلام وتَشَتُّتُ قُواهم من أعظم ما واجه الإمام السجّاد عليه السلام لاستجماع القوى وتوسعة القاعدة الموالية لأهل البيت عليهم السلام، وهذا كان بحاجة إلى إعداد نفسيّ وعقيديّ وإحياء الأمل في القلوب وبثّ العزم في النفوس.

وقد تمكّن الإمام عليه السلام بحكمته وعمله الهادئ من تحقيق المراد. وكلّ هذا

(١) تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر: ٤١/٣٦٥، تحقيق علي شيري، دار الفكر - بيروت.

(٢) مستدركات علم رجال الحديث، الشيخ علي النمازي الشاهرودي: ١/٨٦، مطبعة شفق - طهران.

يشيـر إلى تخطيط واضح في سلوك الإمـام عليه السلام ولإيجاد حركة ثقافيّة واسعة يتسنّـى لها أن تقف أمام التّيّـارات المنحرفة والمخطّط الأمويّ الّذي يريد هدم أركان الإسلام.

خلاصة الدرس

- اتّسـم عصر الإمام علـيّ بن الحسين عليه السلام - والّـذي أعقب موجة الفتح الأولى - بانفتاح الأمّة الإسلاميّة على سائر الشعوب ممّا أدّى إلى أن تواجه خطرين كبيرين: خطر المسخ الثقافيّ وخطر الانهيار الأخلاقيّ.
- كانـت نشاطات الإمـام عليه السلام متّجهة إلى معالجة هذيـن الخطرين من خـلال التأصيل العلمـيّ والثقافـيّ والتربيـة الأخلاقيّة عـن طريق ربط الإنسان بربّه من خلال الدعاء.
- يتلخّص نشاط الإمام عليه السلام في كشف الأقنعة المزيّفة الّتي قبع الحاكمون تحتها مستغلّين غطاءً دينياً من فقهاء السلطة ووعّاظ السلاطين.
- وكان نشاط الإمام عليه السلام التثقيفيّ والعلميّ مدرسة حقيقية حتّى أصبحت الأسـاس الأوّل لمدرسـة أهـل البيت عليهم السلام وجامعتهـم العلميّة على مدى القرون حتّى يومنا هذا.
- يعتبـر خرّيجـو مدرسة الإمام عليه السلام وصحابته وخاصّتـه دليلاً آخر على عظمـة النشاط الّذي مارسه الإمام عليه السلام إلى جانـب الأنشطة العباديّة والاجتماعيّـة ذات الآثـار السياسيّـة الحقيقيّة والأصيلة فـي المجتمع الإسلاميّ.



الدرس العاشر

ملامح عصر الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام



أهداف الدرس:

١. أن يتبيّن الطالب ملامح الانهيار والانحراف الأمويّ أيّام الإمامين عليهما السلام.

٢. أن يتعرّف إلى أبرز ما قام به الإمامان عليهما السلام لمواجهة هذا الانحراف.

تمهيد

استكمـل الإمامان الباقر والصادق عليهما السلام ما كان بدأه الإمام السجّاد عليه السلام فـي كشف الغطـاء المزيّف الّـذي تلبّس به الحكـم المنحرف من قبـل الخلفاء الأمويّين والعبّاسيّين. ولم يكتفِ أهل البيت عليهم السلام بالعمل الإيجابيّ وطرح البديل الصحيـح لفضـح الخطّ المنحـرف، وإنّما قاموا بمناظرات جـادّة تكشف مدى انحراف العلماء المنتمين إلى السلطة، وحاربوا كلّ الأفكار والعقائد الخاطئة في عصرهـم، والّتي كان يروّج لها علماء البـلاط. وساهم طلاّب مدرستهم عليهم السلام فـي نشر فضلهم العلميّ وتميّزهم الدينيّ والمعرفيّ على من سواهم. وهكذا بدأ المسلمـون بالرغم من كلّ الظروف المعاكسة لحركة أهل البيت عليهم السلام يشعرون بضـرورة الارتباط بهم. وأصبـح الولاء القلبيّ لأهل البيـت عليهم السلام مَعْلماً واضحاً لـدى عامّة العلماء وبالتدريـج لدى قطاعات كبيرة مـن المسلمين... وبلغ الأمر حدّاً جعل الخلفاء وعلماء البلاط يشعرون بالخطر المحدق بهم من حضور ذكر أهل البيت عليهم السلام في الساحة الإسلاميّة. وتجلّى ذلك بوضوح في عصر الإمامين الباقـر والصادق عليهما السلام ثمّ الكاظـم والرضا عليهما السلام، واستمرّ بالتألّق حتّى عصر الإمـام العسكـريّ عليه السلام. ويدلّ على ذلـك مدى التضييق عليهـم وشدّة الرقابة

المفروضة على نشاطاتهم الاجتماعيّة والفرديّة وحتّى العائليّة، وشؤونهم الداخليّة الخاصّة.

فتشديد النقمة على الحكم الأمويّ ثمّ على الحكم العبّاسيّ وتعميم المواجهة واستمرارها هي من آثار هذا النشاط الثقافيّ الّذي مارسه الأئمّة عليهم السلام في هذه المرحلة، واستمرّ حتّى مراحل متأخّرة من حياتهم في القرن الثالث الهجريّ.

مرحلة ما بعد الإمام السجّاد عليه السلام

بعد استشهاد الإمام عليّ بن الحسين عليه السلام بالسمّ الّذي دسّه إليه الحاكم الأمويّ الوليد بن عبد الملك حاول الوليد أن يمتصّ النقمة، ودبّ الخلاف بين الوليد وأخيه سليمان، حيث أراد الوليد خلعه من ولاية العهد بعده ومبايعة ابنه عبد العزيز بن الوليد، فأبى عليه سليمان، ولم يجبه للبيعة جميع الولاة باستثناء الحجّاج وقتيبة بن مسلم وبعض الخواصّ، فعزم الوليد على السير إليه ليخلعه بالقوّة فمات قبل ذلك.

وانشغل سليمان سنة ١٩٦هـ بمتابعة ولاة الوليد وعزلهم عن مناصبهم[١]، كما حاول إصلاح بعض الأوضاع المترديّة تقرّباً إلى الناس، فأطلق المعتقلين وفكّ الأسرى.

وكانت الأخطار الخارجيّة والداخليّة تحيط بالدولة الإسلاميّة والحاكم الأمويّ[٢]، فانشغلت السلطة عن ملاحقة الإمام الباقر عليه السلام فتصدّى عليه السلام للإصلاح، بعيداً عن المواجهة السياسيّة العلنيّة للحكم القائم. ولم تظهر من قِبَل الحاكم وواليه على المدينة أيّة معارضة للإمام عليه السلام.

(١) الكامل في التاريخ، م.س: ٥/١١.

(٢) م.ن: ٥/١٣.

الانحراف الأمويّ في عصر الإمامين عليهما السلام

أصبح الإنسان المسلم فريسة للأهواء والمطامع نظراً للانحراف الّذي تغلغل في جميع الميادين: ميدان النفس، والحياة الاجتماعيّة، وما ذلك كلّه إلّا لابتعاد الأمّة عن منهج أهل البيت عليهم السلام، وانسياقها وراء التيّارات والأفكار الهدّامة الّتي شجّع عليها حكّام بني أميّة. وتتلخّص أهم مظاهر الانحراف في ذلك العصر بما يلي:

١- الانحراف الفكريّ والعقائديّ

في الفترة الواقعة بين سنة ٩٥هـ و١٢٤هـ. تعدّدت التيّارات الفكريّة والعقائديّة المنحرفة، وأصبحت ذات أتباع وأنصار، وتحوّلت إلى كيانات ذات إفرازات سياسيّة خالف الكثير منها الأسس الواضحة في العقيدة الإسلاميّة، فانتشرت أفكار الجبر والتفويض والإرجاء والتجسيم وتشبيه الله تعالى بخلقه. وتعدّدت تيّارات الغلوّ، وراجت الزندقة، وتزوير الحديث، وازداد الاهتمام بالصحابة كبديل عن أهل البيت عليهم السلام. ومن هنا حاولوا توسيع دائرة الصحبة والصحابة ليدخل في هذا العنوان كلّ من عاصر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بشكلٍ من الأشكال وإن لم يتأثّر بثقافته وروحه. وقد وصف الإمام الرضا عليه السلام دور الحكّام في عملية التزوير للحديث قائلاً: **«إنّ مخالفينا وضعوا أخباراً في فضائلنا وجعلوها على ثلاثة أقسام:**

أحدها: الغلوّ.

وثانيها: التقصير في أمرنا.

وثالثها: التصريح بمثالب أعدائنا»[١].

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام، محمّد بن علي بن بابويه المعروف بالصدوق: ١/٣٠٤، تحقيق الشيخ حسين الأعلمي، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط١، ١٤٠٤هـ.

٢- الانحراف السياسيّ

حوّل الأمويّون الخلافة إلى ملك يتوارثه الأبناء عن الآباء، واستبدّوا بالأمر فلا شورى ولا استشارة إلّا للمنحرفين والفسّاق.

أمّا بالنسبة إلى حكّامهم والسياسة الّتي اتّبعوها فكانت على الشكل التالي:

كان الوليد بن عبد الملك جبّاراً عنيداً ظلوماً غشوماً[1]، وحاول سليمان بن عبد الملك من بعده أن يُصلح الأوضاع تقرّباً إلى الناس فأطلق السجناء، لكن سياسته العامّة لم تتغيّر لأنّ كثيراً من البلدان كان يتولّاها القساة الظلمة من أمثال والي العراق خالد بن عبد اللّه القسريّ[2]. واتّبع الوليد وسليمان ابنا عبد الملك سيرة أبيهما في قتل الرافضين للبيعة لهما.

وحينما تولّى عمر بن عبد العزيز الحكم اتّخذ سياسة جديدة تخالف من سبقه، فقام ببعض الإصلاحات كمنح الحريّة للمعارضين، وألغى سنّة سبّ أمير المؤمنين عليه السلام من على منابر المسلمين، وردّ فدكَ إلى أهل البيت عليهم السلام، وأمر بردّ المظالم[3]. ولكنّ حكمه لم يدم أكثر من سنتين وخمسة أشهر، ثمّ عاد الوضع إلى ما كان عليه سابقاً.

وكَثُرت في هذه المرحلة اختلافات البيت الأمويّ تنافساً على الحكم، كما كثرت الفتن الداخليّة. وقد أفتى بعض المتملّقين إلى الأمويّين أنّه ليس على الخلفاء حساب!

وكانت الأمّة الإسلاميّة محاطة بمخاطر شتّى، ففي سنة ١٠٤هـ ظفر الخزر بالمسلمين وانتصروا عليهم في بعض الثغور. وفي عهد هشام بن عبد الملك ازداد الإرهاب والتنكيل بأهل البيت عليهم السلام وأتباعهم وسائر المعارضين. فقد أقدم هشام

(١) مروج الذهب، م.س: ٣/ ١٥٧.
(٢) م.ن: ٣/ ١٧٩.
(٣) الكامل في التاريخ، م.س: ٥/ ٦٢.

علـى سجن الإمام الباقر عليه السلام ثمّ أخرجه لتأثّـر السجّانين به[1]. وأصدر أوامره بقتـل بعض أتبـاع الإمام الباقر عليه السلام إلّا أنّ الإمام عليه السلام استطاع أن ينقذهم من القتل حيث استفادوا من أسلوب التقيّة الّذي أرشدهم إليه الإمام عليه السلام.

٣- الانحراف الاجتماعيّ والأخلاقيّ

حـوّل الأمويّـون الأنظـار إلـى الغـزوات وفتح البـلاد طلبـاً للغنائـم وإبعاداً للمعارضين. وأدّى التوسّع في غزو البلاد المجاورة إلى خلق أنواع من الاضطراب فـي المجتمع الإسلاميّ مثل تشتيت الأُسَـر بغياب المعيل أو فقدانه، وكثُر العبيد المأسـورون (الجـواري والغلمان) ممّـا أدّى إلى التشجيع علـى اقتناء الجواري والمغنّيات. وانتقل هـذا الانحراف من البلاط إلى الأمّة. وانشغل الحكّام باللهو وانساقـوا وراء الشهـوات دون حدود. ومن هنا تطوّرت ظاهـرة الغزل والتشبيب بالنساء في العهد الأمويّ كما يُفصح عن ذلك تأريخ الأدب العربيّ[2].

٤-الانهيار الاقتصاديّ

خالـف الأمويّـون الأسـس الثابتة للنظام الاقتصـاديّ الإسلامـيّ الّتي تنصّ علـى أنّ الأموال هي أمانـة الله عند الحاكم، وليست ملكاً شخصيّاً له، فتصرّف حكّامهـم بالأموال وكأنّها ملـكٌ شخصيّ لهم، فكانوا ينفقونهـا حسب رغباتهم وأهوائهـم، وبالأخصّ علـى ملذّاتهم. وكان للجواري والمغنّيـن نصيب كبير في بيـت المال، كمـا كانوا ينفقون الأموال لشراء الذمـم والضمائر ويمنحونها لمن يشترك في تثبيـت سلطانهم أو مدحهم والثناء عليهم؛ فقد مدح الشيبانيّ يزيد بن عبد الملك فأمر له بمائة ناقة، وكساه وأجزل صلته[3].

(١) مناقب آل أبي طالب،م.س: ٤/٢٠٦.

(٢) الأغاني، م.س: ٦/٢١٩.

(٣) م.ن: ٧/١٠٩.

وكان الحكّام يعيشون في أعلى مراتب الترف والبذخ، ويبذّرون أموال المسلمين على شهواتهم، وعلى المقرّبين لهم، في وقت كان يعيش فيه كثير من الناس حياة الفقر والجوع والحرمان.

وضاعف هؤلاء الحكّام الضرائب، فأضافوا ضرائب جديدة على الصناعات والحِرَف، خصوصاً في عهد هشام بن عبد الملك الّذي كان يُنفق ما تجمّع لديه منها على الشعراء المادحين له[١].

وانساق الناس وراء شهواتهم ورغباتهم خصوصاً أتباع الأمويّين. وهكذا أخذ الناس يسعون للحصول على المال بأيّ وجه ما دام الحكّام لا همّ لهم إلّا كسب الأموال والترف في هذه الحياة الدنيا، ولزم من ذلك غياب كثير من مشاعر الرحمة والتعاطف والإيثار فيما إذا قيس وضع الأمّة إلى عصر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

الملامح العامّة لعصر الإمامين عليهما السلام

يُعتبر عهد الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام (٩٥ ـ ١٤٨هـ) حتّى بداية أيّام هارون الرشيد (١٧٠هـ) هو عهد الانفراج للنشاط الفكريّ لمدرسة أهل البيت عليهم السلام إذا ما قيس إلى العهود السابقة واللاحقة.

وعلى الرّغم من كلّ مظاهر الانحراف الّتي تحدّثنا عنها إلّا أنّ الحكم الأمويّ كان قد أخذ بالضعف والانهيار حتّى السقوط (سنة ١٣٢هـ) لأسباب قد نتعرّض لها فيما سيأتي. أمّا بداية العهد العبّاسيّ فكانت وفقاً لكيفيّة نشوئه بداية دولة فتيّة لا سيّما وهي ترفع شعار الرضا من آل محمّد صلى الله عليه وآله وسلم.

فتلك النهاية وهذه البداية اجتمعتا لتشكّلا عصر ضعف الدولتين. ومن الطبيعيّ في هذا الظرف أن يشتغل الحكّام وأتباعهم بإحكام القبضة على

(١) م.ن: ١/٣٣٩.

الحكم لئلاّ يفلت من أيديهم زمام الأمر. إنّ تنامي الاضطرابات ضدّ الحكّام الأمويّين من جهة والتناحر بين رموز البيت الأمويّ من جهةٍ ثانية واشتداد نقمة الأمّة على الحكّام هي من جملة أسباب هذا الانهيار وانقراض الحكم الحديديّ الأمويّ.

ومن هنا سُمّي هذا العصر بعصر انتشار علوم آل محمّد. وكان فضلاء الشيعة ورواتهم في تلك السنين آمنين على أنفسهم مطمئنّين مجاهرين بالولاء لأهل البيت عليهم السلام معروفين بذلك بين الناس، ولم يكن للأئمّة عليهم السلام مزاحم في نشر الأحكام، فكان شيعتهم يحضرون مجالسهم العامّة والخاصّة للاستفادة من علومهم. وفي تلك المدّة القليلة كتبوا عن أئمّتهم أكثر ما ألّفوه وبسعيهم نُشرت علوم آل محمّد صلى الله عليه وآله وسلم.

وهناك عامل آخر ساعد الإمامين الصادقين عليهما السلام على القيام بمهامّهما الفكريّة، هو ابتعادهما عن الطموح إلى تولّي السلطة؛ لعلمهما بأنّها لا تصل إليهما وأنّهما لا يصلان إليها؛ لأسباب أدركاها من متابعتهما لما جرى ويجري من أحداث، ولمعرفتهما بواقع المستويات الاجتماعيّة والسياسيّة لأبناء الأمّة الإسلاميّة آنذاك، فلم يقتربا من سلطان ولم يتّصلا بسلطة ولم يتدخّلا بشأن سياسيّ يمتّ إلى النظام الأمويّ أو النظام العبّاسيّ بوجهٍ من الوجوه وسيأتي تفصيل ذلك في الدرس الرابع عشر إن شاء الله تعالى.

وامتاز عهد الإمامين الصادقين عليهما السلام بميزةٍ أخرى هي: غزو الحضارات الرافدة كاليونانيّة والهنديّة والفارسيّة والعبريّة والسريانيّة، بما تحمل من فلسفات وثقافات ونظريّات لا تلتقي مع وجهة النظر الإسلاميّة.

فلا بدّ أن تكون للمسلمين فلسفة منبعثة من واقع النظريّة الإسلاميّة؛ حتّى لا تؤثّر الفلسفات الوافدة والحضارات غير الإسلاميّة سلباً عليهم.

ولم يكن بين المسلمين آنذاك شخصيّة مؤهّلة علميّاً تتصدّى لهذه المسؤوليّة غير الإمامين عليهما السلام، ولا سيّما في عصر الإمام الصادق عليه السلام.

لقد أدرك الإمام الصادق عليه السلام خطورة هذه المرحلة وضرورة التهيّؤ لهذا العمل العسير، ليؤسّس للمسلمين مدرستهم الفلسفيّة الخاصّة بهم، لتحتضن فكرهم الفلسفيّ الإسلاميّ، وتقف أمام تحدّي الحضارات الوافدة وتحدّ من تأثيرها على الذهنيّة الإسلاميّة في مجال العقيدة والتشريع معاً.

قال الإمام الصادق عليه السلام: «**لمّا حضرت أبي الوفاة قال: يا جعفر أوصيك بأصحابي خيراً، قلت: جعلت فداك، والله لأدَعَنَّهم**[1] **والرجلُ منهم يكون في المصر فلا يَسأَلُ أحداً**»[2].

فالإمام الصادق عليه السلام كان قد استعدّ وخطّط لمرحلة تصدّيه للإمامة وذلك بالتركيز على الإعداد العلميّ والإغناء الثقافيّ بحيث يجعل كلّ واحد من تلامذة أبيه الباقر عليه السلام في غنى عن الأخذ من غيره.

وهذا يعني الإعداد لمرجعيّة أصحاب أهل البيت العلميّة فضلاً عن مرجعيّة أهل البيت عليهم السلام أنفسهم.

كما أنّ الإمام الباقر عليه السلام كان قد هيّأ أصحابه وشيعته لأخذ معالم الشريعة من ابنه الإمام الصادق عليه السلام عندما قال لهم: «**إذا افتقدتموني فاقتدوا بهذا**. مشيراً إلى الإمام الصادق عليه السلام. **فإنّه الإمام والخليفة بعدي**»[3].

المرحلة الانتقالية بين الإمامين عليهما السلام

لم يكن الوضع السياسيّ الّذي كان يريد الإمام الصادق عليه السلام أن يتحرّك فيه

(١) أي لأغنينّهم.

(٢) الإرشاد، الشيخ المفيد، محمّد بن النعمان العكبري البغدادي: ٢/ ٤٠، منشورات مكتبة بصيرتي، قم، وبحار الأنوار، م. س: ٤٧/ ١٢.

(٣) بحار الأنوار، م.س: ٤٧/ ١٦.

قـد تبدّل عن عصر أبيه الإمام الباقر عليه السلام ، فهشام بن عبد الملك الّذي أقدم علـى اغتيال الإمام الباقر عليه السلام كان هو الحاكـم الطاغي، وسياسته مع الإمام الصـادق عليه السلام وشيعته كانت هـي مبنيّة على أساس الحقـد الجاهليّ والترويع والاضطهاد.

فقد تعرّض زيد بن عليّ عمّ الإمام الصادق عليه السلام في زمن أخيه الإمام الباقـر عليه السلام لـلإذلال والتوهيـن من قبـل هشام باعتباره أحـد رموز أهل البيـت عليهم السلام . كمـا جعل زيد يـزداد قناعة بضـرورة الثـورة المسلّحة ضد الحـكّام بسبـب فسادهم وجلوسهـم في موقع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، وهـم يحكمون باسمـه فـي الوقت الّـذي يستهينـون فيه بالنبـيّ صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيتـه وهم غير مكترثيـن برسالتـه ولا بمـن يسبّـه عندهـم.

فحينما صمّم زيدٌ على الثورة المسلّحة ضد طغاة بني أميّة جاء إليه جابر بن يزيد الجعفيّ يسأله عن سبب تصميمه على الثورة ويخبره بأنّه لو خرج يُقتل.

فقال زيد لجابر: «**يا جابر لم يَسَعْنِي أن أسكت وقد خولف كتاب الله وتحوكم بالجبت والطاغوت، وذلك أنّي شاهدت هشاماً ورجل عنده يسبّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقلت للسابّ: ويلك يا كافر أما إنّي لو تمكّنت منك لاختطفتُ روحك وعجّلتك إلى النار. فقال لي هشام: مَه جليسنا يا زيد**».

ثـمّ قـال زيد لجابر: «**فـوالله لو لم يكـن إلّا أنـا ويحيى ابنـي لخرجتُ عليه وجاهدته حتّى أفنى**»[1].

زيد وإعلان الثورة

جمع زيد بن علـيّ الأنصار والدعاة وأعلن ثورته، والتحق به عدد غفير وأيّده جمع من الفقهاء والعلماء على ذلك.

---

(١) أعيان الشيعة،م.س: ١١٦/٧.

لكنّ المتتبّـع للوضع السياسيّ والأخلاقيّ لتلـك المرحلة يرى أنّ الاضطراب العقائـديّ والأخلاقـيّ كان سمة مـن سمات ذلك العصر. وبالرغـم من التذمّر الصـارخ مـن بني أميّة وجورهـم، وبالرغم من بحثهم عن بديـل سياسيّ يتمثّل فـي خط أهل البيت عليهم السلام، نجـد أنّ هاتين المفردتين لم تفيـا بكامل الشروط الموضوعيّـة لنجـاح الثورة، بل نجـد ظاهرة التخذيل والتشكيـك في حركة زيد سمة بارزة في هذه المرحلة أيضاً.

إذاً، فَجّـرَ زيد ثورته وحقّق نصـراً حاسماً ضد الأمويّين، وخاض حرباً كادت أن تنتهـي لصالحه لولا وقوع الفتنة في صفـوف أتباعه المقاتلين، حيث تعمّدت بعض العناصر الدخيلة تفريق جيشه وأتباعه، لكنّه صمد وقاتل حتّى استشهد.

وبعد قتله نبش الأمويّون قبره وصلبوه في كناسة الكوفة ثمّ أُنزل فأُحرق جسده وذرّوه في الهواء، سلام اللّه عليه[1].

وبعـد هذا المصـاب نجد الإمام الصـادق عليه السلام في مواقف متعـدّدة يتبنّى الدفاع عن عمّه زيد، ويترحّم عليه ويوضّح منطلقاته وأهدافه ويرسّخ في النفوس مفهوماً إسلاميّاً عن ثورته، حيث يعتبر هذه الثورة جزءاً من حركة الإمام عليه السلام وليسـت حدثاً خارجاً عنها، كما نجده يردّ على الإعـلام المضادّ للثورة في عدّة مواقف وتصريحات منها:

ما رواه الفضيل بن يسار قال: ذهبت إلى المدينة بعد قتل زيد لألتقي بالإمام الصـادق عليه السلام وأخبـره بنتائج الثورة، وبعـد أن التقيته وسمـع منّي ما دار في المعركة قال:

«**يا فضـيل شـهدت مع عمّي قتال أهل الشـام؟**» قلت: نعـم، قال: «**فكم قتلتَ منهم؟**» قلت: ستّة، قال: «**فلعلّك شاكٌّ في دمائهم؟**» قال: فقلت: لو كنت شاكّاً ما

(١) راجع: مقاتل الطالبيّين، م. س: ٩٠.

قتلتهم. ثمّ قال: سمعته وهو يقول: «**أشركني الله في تلك الدماء، مضى والله زيدٌ عمّي وأصحابه شهداء، مثل ما مضى عليه عليّ بن أبي طالب وأصحابه**»[1].

خلاصة الدرس

- زخر عصر الإمامين الصادقين عليهما السلام بالاضطرابات السياسيّة الحادّة والصراعات الفكريّة العميقة، نتيجة السياسة الأمويّة المنحرفة.
- شهدت تلك الحقبة الزمنية من عصر الإمامين عليهما السلام مظاهر من الانحراف الفكريّ والعقائديّ تمثّل في تزوير الحديث، وظهور حركة الزندقة، والانحراف السياسيّ المتمثّل بتحويل الخلافة إلى ملك، والانحراف الأخلاقيّ والاجتماعيّ المتمثّل بضياع مكارم الأخلاق وإشاعة الفساد الخلقيّ، والانحراف الاقتصاديّ حيث تحوّلت الأموال في ظلّ الحكم الأمويّ إلى ملك شخصيّ يتصرّف به الحاكم كما يشاء.
- خلال هذه الفترة توجّه الإمام الباقر عليه السلام إلى بناء المدرسة العلميّة والفكريّة لأهل البيت عليهم السلام.
- كانت الملامح العامّة لعصر الصادقين عليهما السلام هي بداية ضعف الحكم الأمويّ وانشغال الحكّام بالمحافظة على مصالحهم، ومن هنا سُمّي هذا العصر بعصر انتشار علوم آل محمّد صلى الله عليه وآله وسلم.
- عمل الإمامان الصادقان عليهما السلام على الإعداد العلميّ والإغناء الثقافيّ بحيث جعلا كلَّ واحدٍ من تلامذتهم في غنى عن الأخذ من غيره، وهذا يعني الإعداد لمرجعيّة أصحاب أهل البيت عليهم السلام العلميّة.

(١) أمالي الصدوق، محمّد بن علي بن بابويه المعروف بالصدوق: ١/٢٨٦، تحقيق الشيخ حسين الأعلمي، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٩٨٠م.



الدرس

الحادي عشر

الإمام الباقر عليه السلام والإصلاح في الأمّة



أهداف الدرس:

١. أن يتعـرّف الطالب إلـى منهج الإصلاح الـذي اعتمده الإمام الباقر عليه السلام.

٢. أن يعدّد أبرز محاور هذا الإصلاح.

تركّز عمل الإمام الباقر عليه السلام ونشاطه على إصلاح الواقع الفاسد والّذي كان يدور حول محورين أساسين:

١- محور الأمّة الإسلاميّة وهو محور النشاط العامّ.

٢- محور أتباع أهل البيت عليهم السلام وهو محور النشاط الخاصّ.

المحور الأوّل: النشاط العامّ

١- الإصلاح الفكريّ والعقائديّ

بعد نشوء التيّارات السياسيّة والفكريّة المنحرفة تطلّب الأمر إصلاحاً فكريّاً وعقائديّاً يتراوح بين ردّ الشبهات والأفكار المنحرفة من جهة، وبيان البديل الصالح والفكر السليم من جهةٍ أخرى، وتمّ ذلك بأساليب عديدة، منها:

أ- المواجهة العلنيّة للحركات المنحرفة: فقد واجه الإمام عليه السلام حركة الغلاة الّتي نشطت بقيادة المغيرة بن سعيد العجلي، فكان يلعنهم أمام الناس، وحركة المرجئة[1] الذين قال عليه السلام فيهم:

(١) المرجئة: وهم القائلون: «**قدّموا الإيمان وأخّروا العمل**»، وأشاروا إلى الاكتفاء في تفسير الإيمان بالشهادة اللفظيّة والمعرفة القلبيّة، وأنّ عصاة المؤمنين لا يعذّبون، واقتحام الكبائر لا يضرّ.

«اللّهم العن المرجئة فإنّهم أعداؤنا في الدنيا والآخرة»[1]، وحركة المفوّضة والمجبّرة[2]. وكان عليه السلام يحذّر منهما بقوله: **«إيّاك أن تقول بالتفويض فإنّ الله عزّ وجلّ لم يفوّض الأمر إلى خلقه وهناً وضعفاً، ولا أجبرهم على معاصيه ظلماً»**[3].

وجرت بينه عليه السلام وبين أرباب الأديان والمذاهب مناظرات متعدّدة.

ب - محاسبة الفقهاء المخالفين: فحاسب أمثال أبي حنيفة لقوله بالقياس، وفي ذلك يقول محمّد أبو زهرة[4]: **«تتبيّن إمامة الباقر عليه السلام للعلماء، بمحاسبتهم على ما يبدو منهم، وكأنّه الرئيس يحاكم مرؤوسيه ليحملهم على الجادّة، وهم يقبلون طائعين تلك الرئاسة»**[5].

ج - نشر حديث الرسول صلى الله عليه وآله وسلم والأئمّة عليهم السلام.

د - الدعوة إلى أخذ العلم من مصادره النقيّة، حيث حذّر عليه السلام من الإفتاء بالرأي وقال عليه السلام لبعض من سأله: **«شرّقا وغرّبا فلا تجدان علماً صحيحاً إلّا شيئاً خرج من عندنا»**[6].

٢- الإصلاح السياسيّ

استثمر الإمام عليه السلام بعض أجواء الانفراج السياسيّ النسبيّ لبناء وتوسعة القاعدة الشعبيّة، وتسليحها بالفكر السياسيّ السليم، وتجلّى دوره الإصلاحيّ في الممارسات التالية:

(١) بحار الأنوار، م.س: ٤٦/ ٢٩١.

(٢) المفوّضة: هم القائلون بتفويض الأمور إلى العباد، وإنّه ليس لله سبحانه أيّ صُنع في أفعالهم. - المجبّرة: وهم من يعتقدون أنّ الله تعالى أجبر الإنسان على أفعاله، وينسبون إليه عزّ وجلّ كلّ قبيح.

(٣) م.ن: ٥/ ٢٩٨.

(٤) من مشايخ الأزهر، أستاذ الشريعة بكليّة الحقوق في جامعة القاهرة، ت ١٣٩٤هـ.

(٥) تاريخ المذاهب الإسلاميّة: ٣٦١.

(٦) الكافي، محمّد بن يعقوب الكليني: ١/ ٣٩٩، تحقيق علي أكبر الغفاري، دار الكتب الإسلاميّة، قم، ١٩٨٦م.

أ - الدعوة إلى تطبيق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: لكونهما يحرّران الإنسان والمجتمع من جميع ألوان الانحراف في الفكر والعاطفة والسلوك، يقول عليه السلام:

«إنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبيل الأنبياء ومنهاج الصالحين، وفريضة عظيمة بها تُقام الفرائض وتأمن المذاهب... وتُردّ المظالم وتعمر الأرض، ويُنتصف بها من الأعداء»[1].

ب - نشر المفاهيم السياسيّة السليمة: وجّه الإمام عليه السلام الأنظار إلى دور أهل البيت عليهم السلام في قيادة الأمّة نحو الرشاد فقال: «**نحن ولاة أمر الله وخزائن علم الله، وورثة وحي الله، وحملة كتاب الله، وطاعتنا فريضة، وحبّنا إيمان، وبغضنا كفر، محبّنا في الجنّة، ومبغضنا في النار**»[2]. وحذّر الأمّة من الابتعاد عن نهج أهل البيت عليهم السلام، وحثّ على نصرتهم عليهم السلام، وأكّد أنّ تولّي الإمام لمنصب الإمامة منحصر بالنصّ.

ج - الدعوة إلى مقاطعة الحكم القائم: فبالإضافة إلى كشف الإمام عليه السلام حقيقة الحكم الأمويّ، والجرائم الّتي ارتكبها بقوله: «**... وكان عِظم ذلك وكبره زمن معاوية بعد موت الحسن، فقُتلت شيعتنا بكلّ بلدة، وقطعت الأيدي... ثمّ لم يزل البلاء يشتدّ ويزداد إلى زمان عبيد الله بن زياد قاتل الحسين**»[3]، فقد دعا عليه السلام إلى مقاطعة الحكم الجائر ونهى عن إسناده، فقال - في معرض جوابه عن العمل معهم -: «**ولا مدّة قلم، إنّ أحدهم لا يصيب من دنياهم شيئاً إلّا أصابوا من دينه مثله**»[4].

(١) تهذيب الأحكام في شرح المقنعة، محمّد بن الحسن، المعروف بالطوسي: ٦/١٨٠، دار الكتب الإسلامية، قم، ط٤.
(٢) مناقب آل أبي طالب، م.س: ٤/٢٢٣.
(٣) شرح نهج البلاغة، م.س: ١١/٤٢-٤٣.
(٤) الكافي، م.س: ٥/١٠٧.

د - موقفه من الجهاد المسلّح: وقف الإمام عليه السلام موقف الحياد من الثورات الّتي قادها الخوارج، فلم يصدر عنه تأييد ولا معارضة. وفي عهده عليه السلام لم تنطلق أيّ ثورة علويّة لأنّه كان مشغولاً بتوسعة القاعدة الشعبيّة، لكي تنطلق فيما بعد لإكمال العدّة والعدد. وكان يوجّه الأنظار إلى ثورة أخيه زيد الّتي ستنطلق في المستقبل، ويحذّر من خذلانه، فيقول: «**إنّ أخي زيد بن عليّ خارج فمقتول على الحقّ، فالويل لمن خذله والويل لمن حاربه، والويل لمن قاتله**»(١).

٣-الإصلاح الاجتماعيّ والأخلاقيّ

بذل الإمام الباقر عليه السلام عناية خاصّة لإصلاح أخلاق أبناء المجتمع الإسلاميّ بدءاً بالمقرّبين منه، ثمّ في سائر الأوساط الاجتماعيّة والمؤسسات الحكوميّة، وذلك عبر أساليب متعدّدة منها:

أ - توظيف السُنّة النبويّة لإيجاد التغيير:

لأنّها تتضمّن عناصر التغيير الأخلاقيّ والإصلاح الاجتماعيّ. ومن هنا أخذ الإمام عليه السلام يهتم بنشر الحديث الشريف محقّقاً بذلك هدفين مهمّين:

١- كسر طوق الحظر الّذي كان قد فرضه الحكّام على أبناء الأمّة لإبعادها عن مصدري عزّتها وكمالها وهما سنّة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وسيرته الشريفة.

٢- إيجاد عامل التغيير الأخلاقيّ معتمداً على تقديس الأمّة لنبيّها العظيم والتأسّي بأخلاقه. ومن أصول التغيير الأخلاقيّ الّذي اعتمده عليه السلام هو تغيير العناصر المؤثّرة في بناء المجتمع كما ورد في الحديث الشريف: «**صنفان من أمّتي إذا صلحا صلحت أمّتي، وإذا فسدا فسدت أمّتي...**

(١) مقتل الحسين عليه السلام، الخوارزمي: ٢/١١٣.

الفقهاء والأمراء»[1]، ونشر الإمام عليه السلام المفاهيم الأخلاقيّة فأكّد على العفّة والحياء، وحُسْنِ الخلق وإدخال السرور على المؤمنين، وصلة الرحم وغيرها من المفاهيم الّتي برزت في أحاديثه وكلماته عليه السلام.

ولم يكتفِ عليه السلام بنشر الأحاديث الشريفة والدعوة إلى تجسيد محتواها في الواقع، وإنّما قام بأداء دور القدوة في ذلك. فكان عليه السلام يعالج الواقع الفاسد معالجة عمليّة من خلال سيرته الحسنة.

ب - الدعوة إلى اكتساب مكارم الأخلاق:

كثّف الإمام عليه السلام دعوته إلى إصلاح النفوس واكتساب مكارم الأخلاق لتكون العلامة الفارقة لتعامل المسلمين فيما بينهم، فكان عليه السلام يدعو إلى إفشاء السلام، وهو مظهر من مظاهر الإخاء والودّ والصفاء في العلاقات الاجتماعيّة، كما دعا عليه السلام إلى تطهير اللسان فقال عليه السلام: «**قولوا للناس أحسن ما تحبّون أن يقال لكم، فإنّ الله يُبغض اللّعّان السبّاب الطعّان على المؤمنين، الفاحش المتفحّش، السائل الملحف. ويحبّ الحييّ الحليم، العفيف المتعفّف**»[2]. ودعا إلى الارتباط بأهل التقوى وتعميق أواصر العلاقات معهم. وأوضح عليه السلام حقوق المؤمن على المؤمن، وحذّر من ظلم الآخرين أو الإعانة على ظلمهم، ودعا عليه السلام إلى مقابلة الإساءة والقطيعة بالإحسان والصلة.

وهكذا نلاحظ تنوّع أساليب الإمام عليه السلام لإيجاد التغيير الأخلاقيّ في عامّة طبقات المجتمع.

(١) الخصال، محمّد بن عليّ بن بابويه المعروف بالصدوق: ١/ ٢٦٠، تحقيق علي أكبر الغفاري، المكتبة الإسلامية، طهران، ١٣٤٨هـ ش.

(٢) تحف العقول عن آل الرسول صلى الله عليه وآله، الحسن بن عليّ الحرّاني، تحقيق: علي أكبر الغفاري: ٢٢٠، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، ط ٢، ١٤٠٤ هـ - ١٣٦٣ هـ. ش.

٤-الإصلاح الاقتصاديّ

لم يكن الإمام الباقر عليه السلام على رأس سلطة حتّى يستطيع إصلاح الأوضاع الاقتصاديّة إصلاحاً عمليّاً جذريّاً. ومن هنا اقتصر عليه السلام على نشر المفاهيم الإسلاميّة الصحيحة المرتبطة بالحياة الاقتصاديّة، والنظام الاقتصاديّ الإسلاميّ. وهنا نلاحظ أنّ الإمام عليه السلام حدّد أوّلاً الأهداف المتوخّاة من التصرّف بالأموال، فهي وسيلة للتفرّغ إلى عبادة الله تعالى، فقال عليه السلام: «**نِعْمَ العون الدنيا على طلب الآخرة**»[1].

وذكر عليه السلام مصاديق طلب الآخرة فقال: «**من طلب الرزق في الدنيا استعفافاً عن الناس وتوسيعاً على أهله... لقي الله عزّ وجل يوم القيامة ووجهه مثل القمر ليلة البدر**»[2].

وأكّد على حرمة بعض التصرّفات الماليّة كالتطفيف في المكيال.

وقدّم عليه السلام مهمّة سدّ احتياجات المسلمين على أهمّ العبادات المستحبّة مثل الحجّ تطوّعاً، فقال: «**لئن أحجّ حجّة أحبّ إليّ من أن أعتق رقبة ورقبة - حتّى انتهى إلى سبعين - ولئن أعول أهل بيت من المسلمين؛ أشبع جوعتهم وأكسو عورتهم وأكفّ وجوههم عن الناس أحبّ إليّ من أن أحجّ حجّة وحجّة حتّى انتهى إلى سبعين**»[3].

ثمّ إنّه عليه السلام دعا إلى التعالي على الحرص والطمع، ووجّه الأنظار إلى الآثار السلبية لهما، وحثّ على القناعة لأنّها إحدى مقدّمات السعادة الروحية، ودعا إلى الاقتصاد والاعتدال في مختلف الظروف، وحذّر من الاعتداء على أموال الآخرين.

---

(١) الكافي، م.س: ٥/٧٣.

(٢) م.ن: ٥/٧٨.

(٣) م.ن: ٤/٢.

المحور الثاني: النشاط الخاصّ، أتباع أهل البيت عليهم السلام

وهـو عمليّة بنـاء الجماعة الصالحـة من أتباع أهل البيـت عليهم السلام ، حيث قام الإمـام الباقر عليه السلام بنشاط كبيـر لتربية أجيال صالحـة وتوعيتهم على حقائق الرسالة. وهذا ما يكشف عن التخطيط البعيد المدى الّذي حرص الإمام عليه السلام علـى تحقيقه لبـثّ الوعي المطلوب فـي الأمّة. وتمثّلت حصيلة هـذه التربية في كوكبـة مـن أصحاب الإمـام عليه السلام وعلى رأسهـم: زرارة بن أعيـن، وأبو بصير الأسـديّ، والفضيـل بـن يسار، ومحمّـد بن مسلـم الطائفيّ، وبريد بـن معاوية العجلـيّ... وهؤلاء الطليعة المتقدّمـة من أصحابه تلتها طبقة ثانية من صحابته مثل: حمران بن أعين، وإخوته، ومحمّد بن مروان الكوفيّ، وإسماعيل بن الفضل وآخـرون[1]. وتنوّعت توجّهات الجماعة الصالحة، فمنهـم الفقهاء ومنهم قادة الثـورات ومنهم المصلحـون الّذين كانوا يجوبـون الأمصار لتعميـق منهج أهل البيت عليهم السلام في قلوب النـاس.

أهمّ خصائص الجماعة الصالحة

إنّ الأهـداف الكبـرى للجماعـة الصالحة الّتـي بناها الإمـام الباقر عليه السلام تتلخّـص في حفظ الشريعة الإسلاميّـة من التحريف، والمحافظة على المجتمع الإسلامـيّ. وهذا يتطلّب توفّر مواصفات خاصّة وبمستوى عالٍ في الجماعة الّتي يُراد تحقيقها، ويمكن أن نجمل هذه الخصائص والمواصفات فيما يلي:

١. **العقيدة الصحيحة والثقافة الإسلاميّة**، فالعقيدة هي أساس أيّة حركة أصوليّـة سليمة، وبمقدار قوّة العقيـدة ووضوحها وانسجامها مع الركائز النظريّـة للإنسـان يكون النجاح والثبـات والاستمرار والتطـوّر مضموناً لأصحابها. ولهذا حرص أهل البيت عليهم السلام على بيان معالم العقيدة السليمة

(١) مناقب آل أبي طالب، م.س: ٢٢٩.

وإعطاء تفاصيلها إلى أتباعهم باستمرار، ونلمس ذلك في التراث الّذي حفظه لنا أتباعهم، وهو ثروة كبرى في هذا المضمار[1].

٢. **الرجوع إلى أهل بيت الوحي عليهم السلام:** في معرفة الدِّين وفهم تفاصيل الشريعة وحقائق الرسالة والولاء السياسيّ والفكريّ لهم. وقد تميّز أتباع أهل البيت بهذه الصفة فإنّهم لا يتعدّون نصوص وتراث أهل البيت عليهم السلام الغني كلّ الغنى في هذا الجانب؛ فإنّ أهمّ ما عكف عليه أهل البيت عليهم السلام إلى جانب كلّ نشاطاتهم الاجتماعيّة والفرديّة هو بيان ضرورة رجوع الأمّة إليهم لمعرفة الدين. وقد أعلنوا ذلك ضمن احتجاجهم على علماء سائر فرق المسلمين، وأمام أعين الخلفاء وطلّاب الحقيقة، يقول الإمام الباقر عليه السلام: «**والله إنّا لخزّان الله في سمائه وأرضه، لا على ذهب ولا على فضّة إلّا على علمه**»[2].

وعنه عليه السلام قال: «**إنّ العلم الّذي نزل مع آدم عليه السلام لم يُرفع، والعلم يُتوارث، وكان عليّ عليه السلام عالم هذه الأمّة وإنّه لم يهلك منّا عالم قطّ إلّا خلفه من أهله من علم مثل علمه أو ما شاء الله**»[3].

٣. **الاتّصاف بدرجةٍ عُليا من الكمالات النفسيّة والعمليّة:** اهتمّ أهل البيت عليهم السلام بتربية أتباعهم تربية تجعلهم في مستوى رفيع من الكمالات بحيث تجعلهم في مستوى القدوة الحسنة للآخرين، حتّى عُرف شيعة أهل البيت بهذه الميزة على مدى القرون والأجيال...

قال الإمام الباقر عليه السلام لجابر بعد بيانه لكيفية تقييم الإنسان الشيعيّ لنفسه

(١) ونستطيع أن نجد بغيتنا فيما جاء في القسم العقائديّ من أصول الكافي وكتاب الاحتجاج والقسم العقائديّ من موسوعة بحار الأنوار للعلاّمة المجلسي قدس سره.

(٢) الكافي، م.س: ١/٢٢٨.

(٣) م.ن: ١/٢٢٢.

بشكل دائم، ذاكراً خصائص ومميّزات هذا المسلم: «**وما كانوا يُعرفون - يا جابر - إلّا بالتواضع والتخشّع والأمانة وكثرة ذكر الله والصوم والصلاة والبرّ بالوالدين، والتعاهد للجيران من الفقراء وأهل المسكنة والغارمين والأيتام، وصدق الحديث وتلاوة القرآن وكفّ الألسن عن الناس إلّا من خير، وكانوا أمناء عشائرهم في الأشياء**»[١].

منهج الإمام عليه السلام في التربية والتزكية لشيعته

اعتبر الإمام الباقر عليه السلام أنّ الجهاد الأكبر هو جهاد النفس، وكلّ جهاد سواه يُعدّ إلى جانبه جهاداً أصغر منه لأنّه جهاد على مدى العمر، وفي كلّ زمان ومكان لا يكاد يفارق الإنسان حتّى يتسامى على كلّ الشهوات والنزوات. ومن هنا ركّز الإمام عليه السلام على أهمّ المقوّمات الّتي تدفع النفس للتزكية ومنها:

١. **استشعار الرقابة الإلهيّة:** فلا تتمّ التزكية إلّا باستشعار الرقابة الإلهية في العقل والضمير والوجدان، والإحساس بأنّ الله تعالى محيط بالإنسان يُحصي عليه حركاته وسكناته. وفي موعظته عليه السلام لبعض شيعته: «**ويلك... كلّما عرضت لك شهوة أو ارتكاب ذنب سارعت إليه وأقدمت بجهلك عليه، فارتكبته كأنّك لست بعين الله أو كأنّ الله ليس لك بالمرصاد**»[٢].

٢. **التوجّه إلى اليوم الآخر:** وجّه الإمام عليه السلام الجماعة الصالحة إلى ذلك اليوم ليجعلوه نصب أعينهم وليكون حافزاً لهم لإصلاح النفس وتزكيتها. وممّا جاء في موعظته لجماعة منهم: «... **يا طالب الجنّة ما أطول نومك وأكلّ مطيّتك، وأوهى همّتك، فلله أنت من طالب ومطلوب...**»[٣].

(١) م.ن: ٢/ ٧٤.
(٢) تحف العقول، م.س: ٢١٢.
(٣) م.ن: ٢١٢ و٢١٣.

٣. **تحكيم العقل:** فالله تعالى خلق الإنسان مزوّداً بعقل وشهوة، ومنحه سبل الهداية من خلال البيّنات والحقائق الثابتة. ولهذا ركّز الإمام عليه السلام على تحكيم العقل على جميع الرغبات والشهوات، وأنّه لا بدّ أن يكون للإنسان واعظ من نفسه ليقوم بتزكيتها، فقال عليه السلام: «**من لم يجعل الله له من نفسه واعظاً، فإنّ مواعظ الناس لن تغني عنه شيئاً**»[1].

الإمام الباقر عليه السلام وبناء المؤسّسات الثقافيّة

كان للإمام الباقر عليه السلام دور كبير في تشييد وتوسيع المؤسّسات الثقافيّة الإسلاميّة، الّتي تنهج نهج أهل البيت عليهم السلام في نشر العلم والمعرفة. وكان له عليه السلام دورٌ رئيس في بناء وتأسيس مدرسة المدينة، حيث ازدهرت في أيّامه وإلى آخر أيّام الإمام الصادق عليه السلام قبل أن تنتقل إلى الكوفة ومن بعدها إلى قمّ. وقد انتظمت الحلقات الدراسيّة، وكان بيته عليه السلام جامعةً يزدحم فيها طلّاب العلوم وحملة الحديث، ينهلون من معينه الّذي لا ينضب.

الإمام الباقر عليه السلام وإحياء الروح الثورية

كان لثورة الإمام الحسين عليه السلام دور كبير في إحياء الروح الثوريّة، وإلهاب الحماس في العقول والقلوب والإرادة، لمقاومة الظالمين. ولهذا أكّد الإمام الباقر عليه السلام على جعل الثورة حيّة تمنح الناس طاقة ثوريّة لخوض المواجهة في دقّتها وظرفها المناسب.

وتجسّد إحياؤه للروح الثورية في مظهرين:

١- **إقامة الشعائر الحسينيّة:** فكان عليه السلام يقوم بنفسه بإحياء الشعائر الحسينيّة من خلال إقامة مجالس العزاء الحسينيّ في منزله. وبهذا

(١) م.ن: ٢١٤.

الأسلوب العملي كان يحثّ شيعته وأتباعه على إقامة مجالس العزاء. وشجّع عليه السلام على ظاهرة البكاء لمصاب جدّه الإمام الحسين عليه السلام وأهل بيته الأحرار وذلك من أجل أن تتجذّر الرابطة العاطفية به عليه السلام. وحثّ على زيارة قبر الحسين عليه السلام بهدف تعميق الارتباط به فكراً ومنهجاً واستلهام روح الثورة منه، ومعاهدته على الاستمرار على نهجه.

٢- **إنشاد الشعر في الإمام الحسين عليه السلام:** حيث كان عليه السلام يشجّع على قول الشعر في الإمام الحسين عليه السلام لما في ذلك من إبقاء لمظلوميّة الإمام الحسين عليه السلام في الوجدان، وتخليد لذكرى مصاب أهل البيت عليهم السلام.

الإمام عليه السلام ونشر حقيقة الإمام المهديّ عجل الله فرجه الشريف

إنّ الصراع بين الإسلام والجاهليّة، وبين الحقّ والباطل، لا ينتهي ما دام كلّ منهما موجوداً وله كيان وقيادة وأنصار. ويستمر الصراع إلى أن ينتصر الحقّ على الباطل في نهاية الشوط. ويمثّل ظهور الإمام المهديّ عجل الله فرجه الشريف آخر حلقة من سلسلة الصراع حيث يختفي الباطل ولا يبقى له وجود وكيان مستقلّ.

وانتظار الإمام عجل الله فرجه الشريف هو حركة إيجابيّة تتطلّب تعبئة الأفكار والطاقات للاشتراك في عمليّة الخلاص والإنقاذ.

وقد أكّد الأئمّة عليهم السلام على هذه الحقيقة ومنهم الإمام الباقر عليه السلام لكي تتعمّق في العقول والنفوس، قال عليه السلام: **«إنّما نجومكم كنجوم السماء كلّما غاب نجم طلع نجم حتّى إذا أشرتم بأصابعكم، وملتم بحواجبكم غيّب الله عنكم نجمكم، واستوت بنو عبد المطّلب فما يُعرف أيٌّ من أيّ فإذا طلع نجمكم، فاحمدوا ربّكم»**[١].

(١) بحار الأنوار، م.س: ١٣٨/٥١.

وجعـل قيام الإمـام المهديّ عجّل الله فرجه الشريف من المحتوم حين قال: «**مـن المحتوم الّذي حتمـه الله قيـام قائمنـا**»[1]. وكان عليه السلام يُهيّىء الأذهـان للتعبئة إلى ذلك اليوم ويقـول: «**إذا قام قائمنـا وظهر مهديّنا كان الرجل أجرأ من ليث، وأمضـى من سنان**»[2].

وبهـذا كان الإمـام عليه السلام يُحيي الأمـل بانتصار الحقّ وأفـول الباطل. ويكون هذا الأمـل عاملاً للانتظار الإيجابيّ البنّاء، انتظـاراً يتضمّن الاستعداد الدائم والمستمرّ للنهوض تحت راية الحقّ.

خلاصة الدرس

- انصـبّ دور الإمـام الباقر عليه السلام على إصلاح الواقـع الفاسد والّذي كان يدور حول محورين أساسين:

١- محور الأمّة الإسلاميّة، وهو محور النشاط العامّ.

٢- محور أتباع أهل البيت عليهم السلام، وهو محور النشاط الخاصّ.

- فـي المحـور الأوّل: عمـل الإمام عليه السلام علـى مجموعة مـن الإصلاحات الفكريّـة والعقائديّـة حيث واجه الحـركات المنحرفـة، وحاسب فقهاء السلطـة ونشر أحاديث النبـيّ صلى الله عليه وآله وسلم، والإصلاح السياسـيّ، حيث دعا إلى تطبيـق الأمر بالمعـروف والنهي عن المنكر، ونشـر المفاهيم السياسيّة السليمـة، والإصلاح الاجتماعـيّ والأخلاقيّ، حيث وظّـف السنّة النبويّة لإيجاد التغيير، وإلى اكتساب مكارم الأخلاق، والإصلاح الاقتصاديّ.

(١) م.ن: ٥١/١٣٩.

(٢) حليـة الأوليـاء وطبقات الأصفياء، الحافظ أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني: ٣/١٨٤، منشورات دار الكتب العلميّة، بيروت، ط ١، ١٤٠٩ هـ.

- في المحور الثاني: عمل الإمام عليه السلام على بناء الجماعة الصالحة، وجعل لها مميّزات حيث أسّس لهم العقيدة والثقافة الإسلاميّة، وجعل مرجعيّتها أهل بيت الوحي.
- كان للإمام عليه السلام منهج مميّز في التربية والتزكية لشيعته، من خلال إشعارهم بالرقابة الإلهيّة وتوجيههم إلى اليوم الآخر وتحكيم العقل.
- كان للإمام الباقر عليه السلام دور كبير في تأسيس الثقافة العلميّة ونشر المعرفة.
- أحيا الإمام عليه السلام الروح الثورية في الأمّة، وأقام الشعائر الحسينيّة، ونشر حقيقة الإمام المهديّ عجل الله فرجه الشريف.





الدرس

الثاني عشر

الإمام الصادق عليه السلام وبناء الأمّة الصالحة



أهداف الدرس:

١. أن يتعـرّف الطالـب إلى النشــاط الفكريّ والعقائـديّ للإمام الصادق عليه السلام.

٢. أن يعدّد مميّزات مدرسة الإمام الصادق عليه السلام.

٣. أن يتبيّن نشاط الإمام الصادق عليه السلام السياسيّ.

النشاط الفكريّ والعقائديّ للإمام الصادق عليه السلام

إذا راجعنا حوارات واحتجاجات الإمام الصادق عليه السلام في كتب الاحتجاج أو السيرة الخاصّة به، لاحظنا عدّة ظواهر ملفتة للنظر:

١. إنّ أكبر نسبة من الاحتجاجات هي مع رموز الملاحدة والزنادقة في عصره مثل الديصانيّ وابن أبي العوجاء.

٢. يأتي الاحتجاج مع أصحاب الرأي والقياس في الدرجة الثانية من مجموعة الاحتجاجات المأثورة عنه.

٣. تتنوّع أطراف الحوار مع الإمام عليه السلام إلى أنواع المعتقدات بدءاً من الإنكار لوجود اللّه تعالى وانتهاءً بالسلوكيّات المنحرفة وأصحاب الفهم الخاطئ لمسيرة الشريعة.

ويُمكن تقسيم مجموعة هذه الظواهر الّتي تكشف عن تنوّع الاتجاهات والتيّارات في عصره إلى ما يلي:

أ - التيّارات الّتي تنكر المبدأ والرسالة، ويُعدّ أصحابها خارجين عن دين الإسلام، وتتمثّل في تيّار الزندقة وتيّار الغلوّ وما شاكلها.

ب - التيّـارات الّتـي تُشـكّل انحرافـات داخـل المسلمين، وهـي تيّارات: الاعتزال والتفويض والإرجاء والتصوّف والرأي والقياس.

وتنقسم هذه التيّارات بدورها إلى تيّارات عقائديّة وأخرى فقهيّة.

٤. ونلاحـظ أيضاً أنّ الإمام عليه السلام في حواره مع الزنادقة والملحدين يُمثّل العالِـم الحليم الهـادئ المسيطر على كلّ نواحي المعرفـة، ممّا أدّى إلى رجوع بعض الملحدين وإيمانهم باللّه على يديه.

بينما نجده، في مواجهته لتيّار الغلوّ، ذلك القائد الهادر الّذي لا يقِرّ له قرار، وهو يكيل أنواع اللعن له ويتمنّى الإبادة التامّة للغلاة.

وقـد حفلت كتب السيرة والتاريخ بالحوارات والروايات الّتي نقلت لنا تصدّي الإمام الصادق عليه السلام ومواجهته لهذه التيّارات كافّة.

بناء جامعة أهل البيت عليهم السلام

واصـل الإمام الصادق عليه السلام تطويره للمدرسة الّتـي أسّسها آباؤه الطاهرون عليهم السلام مـن قبلـه وانتقل بها إلى آفاق أرحب، فاستقطبـت الجماهير من مختلف البلاد الإسلاميّـة؛ لأنّها استطاعت أن تُلبّي رغباتهم، وحاولت ملء الفراغ الّذي كانت تُعانيه الأمّة آنذاك.

مميّزات جامعة الإمام الصادق عليه السلام

١. تتميّـز مدرسة الإمـام الصادق عليه السلام عـن غيرها في أنّها لـم تنغلق في المعرفـة على خصوصـ العناصر الموالية فحسـب، وإنّما انفتحت لتضمّ طـلّاب المعرفة والعلم من مختلف الاتّجاهات، فهذا أبو حنيفة الّذي كان يخالـف الإمام عليه السلام في منهجه، روى وحـدّث عنه عليه السلام ، واتّصل به في المدينة مدّة من الزمن، وقد اشتهر قوله «**لولا السنتان لهلك النعمان**».

٢. لـم يقتصر علم الإمام عليه السلام على حقل واحد - كالفقه أو الكلام مثلاً ليكون سبباً لمخاطبة وجذب فئة محدودة من الناس - وإنّما تناولت جامعته العلميّة مجموعة العلوم الدينيّة وغير الدينيّة، وتربّى فيها كبار العلماء في مختلف فروع المعرفـة الإسلاميّة والبشريّة. والعلوم الّتـي تناولتها جامعته عليه السلام بالبحث والتدريس هي علم الفلك والطبّ، والحيـوان، والنبات، والكيمياء والفيزياء، فضلاً عن الفقه والأصول والكلام والفلسفة وعلم النفس والأخلاق.

٣. تألّقـت جامعـة الإمام عليه السلام بمنهجهـا العلميّ السليـم وعمقها الفكريّ واتجاههـا العقائـديّ التربـويّ الإصلاحـيّ، فقد خرّجت هـذه الجامعة شخصيّـات كبـرى ونمـاذج مُثلى بالعطـاء السخيّ للأمّـة، بحيث أصبح الانتماء إلى مدرسـة الإمام عليه السلام وجامعته يعدّ من المفاخر، وقد جاوز عـدد طلّابها أربعة آلاف طالب علم. واتّسعـت فيما بعد لتُنشأ عدّة فروع لها في الكوفة والبصرة وقمّ ومصر.

٤. لم يجعل الإمام عليه السلام من الجامعة والجهد المبذول فيها نشاطاً منفصلاً عـن حركتـه وأنشطته الأخرى، بـل كانت جزءاً لا ينفصـل عن برنامجه التغييريّ بحيث ساهمت في خلق مناخ يمهّد لبناء الفرد الصالح ومن ثمّ المجتمع الصالح.

٥. حقّقت مدرسة الإمام عليه السلام إنجازاً في خصوص تدوين الحديث والحفاظ علـى مضمونه، بعد أن كان قد تعرّض في وقـت سابق للضياع والتحريف والتوظيف السياسيّ، بسبب المنع من تدوينه.

يقـول عليه السلام: «**إنّ عندنا ما لا نحتاج معه إلـى الناس وإنّ الناس ليحتاجون إلينا، وإنّ عندنا كتاباً بإملاء رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم وخطّ عليّ عليه السلام؛ صـحيفة فيها كلّ حلال وحرام**».

وجـاء عنه عليه السلام أنّه قال: «**علمنا غابـر، ومزبور، ونكتٌ في القلوب ونقرٌ في الأسماء. وإنّ عندنا الجفر الأحمر، والجفر الأبيض، ومصحف فاطمة. وإنّ عندنا الجامعة فيها جميع ما يحتاج الناس إليه...**»[1].

وكان عليه السلام يأمـر طلّابه ويؤكّد لهم ضرورة التدويـن والكتابة كما نجد ذلك فـي قوله عليه السلام: «**احتفظوا بكتبكم فإنّكم سوف تحتاجون إليها**». وكان عليه السلام يشيـر إلـى نشاط زرارة في مجال الحديـث ويقول: «**رحـم الله زرارة، لولا زرارة لاندرست أحاديث أبي**»[2].

٦. اعتنى الإمام عليه السلام بالتخصّص العلميّ في تلك المرحلة لأنّ للاختصاص دوراً كبيـراً فـي تنمية الفكـر الإسلاميّ وتطويـره، وبالتخصّـص تتميّز العطاءات، ويكون الإبداع وعمق الإنتاج، لذا وجّه الإمام عليه السلام التخصّص العلميّ، وتصدّى للإشراف على كلّ التخصّصات.

ففـي الفلسفـة وعلم الـكلام ومباحث الإمامـة تخصّص كلٌّ مـن: هشام بن الحكـم وهشام بن سالم، ومؤمـن الطاق وغيرهم، وفي الفقـه وأصوله وتفسير القـرآن الكريـم تخصَّص كلٌّ من: زرارة بن أعين، ومحمّد بن مسلم، وجميل بن درّاج، وبريد بن معاوية، وإسحاق بن عمّار، وأبو بصير، وأبان بن تغلب والفضيل بن يسـار، وأبو حنيفة ومالك بن أنس، وسفيان بـن عُيينة، وسفيان الثوريّ. كما تخصَّـص في الكيميـاء جابر بن حيّان الكوفيّ، وفي حكمـة الوجود المفضّل بن عمر الّذي أملى عليه الإمـام الصادق عليه السلام كتابه المشهور المعروف بـ (توحيد المفضّل).

٧. خطّط الإمام عليه السلام في مدرسته لتنشيط حركة الاجتهاد وتخريج

(١) المناقب، م.س: ٣٩٦، وبحار الأنوار، م.س: ٢٦/٤٧.

(٢) وسائل الشيعة، م.س: ٨/٥٧ـ ٥٩.

الفقهاء والمجتهدين، والاجتهاد المشروع هو: طريق الاستنباط الصحيح للحكم الشرعيّ كما رسمه أهل البيت عليهم السلام. وقد سأل رجلٌ أبا عبد الله الصادق عليه السلام عن مسألة فأجابه فيها، فقال الرجل: إن كان كذا وكذا ما كان القول فيها؟ فقال عليه السلام: «**مهما أجبتك فيه بشيء فهو عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، لسنا نقول برأينا من شيء**»[1].

وعليه فالاجتهاد في مذهب أهل البيت عليهم السلام هو اجتهاد في دائرة النصّ الشرعيّ. ومن هنا رسم الإمام عليه السلام منهج الاجتهاد في فهم النصّ وحارب اجتهاد الرأي المتمثّل في القياس والاستحسان كما حاربه القرآن وسائر الأئمّة عليهم السلام.

الإمام الصادق عليه السلام وبناء الأمّة الصالحة

تعرّفنا في سيرة الإمام الباقر عليه السلام إلى أنّ أهمّ ما ركّز عليه أئمّة أهل البيت عليهم السلام لبناء المجتمع الصالح بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو بناء الجماعة الصالحة الّتي تستطيع أن تقوم بمهمّة التغيير الحقيقيّ في أوساط المجتمع الصالح.

ويعتبر عصر الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام هو عصر التأهيل النظريّ والتوسّع الاجتماعيّ وتكامل البناء وتحديد المعالم، وتشخيص الهويّة لهذه الجماعة المتميّزة بالفكر والعقيدة والقيم والسلوك.

وقد اعتنى الإمام الصادق عليه السلام بعملية بناء الأمّة من خلال التركيز على إيجاد الكوادر والعناصر الصالحة من شيعته. وفي قراءتنا لأهمّ الخطوات الّتي قام بها من أجل عمليّة البناء هذه نرى أنّه عليه السلام قد اتّبع ما يلي:

(١) بحار الأنوار، م.س: ١٧٢/٢.

أوّلاً: تحديد الهويّة لشيعته

أ - الاسم: أطلق الإمام الصادق عليه السلام على شيعته عدّة أسماء لتشخيص هويّة شيعته وجماعته وفرزها وتمييزها عن غيرها، ومنها:

١. شيعة عليّ.

٢. شيعة فاطمة.

٣. شيعة آل محمّد.

٤. شيعة ولد فاطمة.

وأقرّ عليه السلام على جماعته اسم الرافضة بعد أن سمّاهم أتباع السلطان بذلك، فحينما شكا إليه بعض أصحابه هذه التسمية قال له: «**وأنا من الرافضة**» قالها ثلاثاً[١].

ب - الصفات: أطلق أهل البيت عليهم السلام عدّة صفات قرآنيّة على شيعتهم مثل: الصالحون وأولو الألباب وأولياء الله وأصحاب اليمين وخير البريّة.

قال عليه السلام: بعد ذكر قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ ..﴾ «**نحن الصدّيقون والشهداء وأنتم الصالحون، أنتم والله شيعتنا**»[٢].

وفي حديث آخر يقول عليه السلام: «.. **فنحن الّذين نعلم وأعداؤنا الّذين لا يعلمون وشيعتنا أولو الألباب**»[٣].

ج - الانتماء إلى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته عليهم السلام: فقد أكّد الإمام الصادق عليه السلام انتماء شيعته إليهم وإلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وهذا

---

(١) المحاسن، أحمد بن محمّد بن خالد البرقي:١٥٧، دار الكتب الإسلامية، طهران، ١٣٧٠هـ.

(٢) بحار الأنوار، م.س: ٢٧/١٢٤.

(٣) م.ن: ٢٧/١٢٥.

الانتماء الفكريّ والروحيّ والاتّباع العمليّ هو الّذي يُعطي الرفعة والمكانة السامية في الدنيا والآخرة.

فقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال لعمر بن يزيد وهو من شيعته وأصحابه الثقاة: «**يا بن يزيد أنت والله منّا أهل البيت عليهم السلام. قال: جُعلت فداك من آل محمد؟ قال: إي والله من أنفسهم يا عمر، أما تقرأ كتاب الله تعالى:** ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾[1]»[2].

د- منزلتهم في الدنيا والآخرة: قال الإمام الصادق عليه السلام: «**والله ما بعدنا غيركم وإنّكم معنا في السنام الأعلى، فتنافسوا في الدرجات**»[3].

ثانياً: المرجعيّة الدينيّة والفكريّة والسياسيّة

خطّط الإمام الصادق عليه السلام وسائر الأئمّة عليهم السلام من أجل إيجاد وتوفير نظام المرجعيّة الدينيّة لأتباعهم؛ وذلك بتنصيب المجتهد الجامع لشرائط الإفتاء والقضاء والحكم مرجعاً فكريّاً وسياسيّاً، يحكم فيهم على أساس شريعة الله الخالدة وقيمها الربّانيّة، مع اعتباره امتداداً لإمامتهم المشروعة. وبدأوا بالعمل على طرحه وتطبيقه في حياتهم وحضورهم ليتركّز وتستقر دعائمه وتتّضح معالمه.

فقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال في باب اختيار القاضي بين المتخاصمين أنّهما: «**ينظران من كان منكم ممّن روى حديثنا ونظر في حلالنا وحرامنا وعرف أحكامنا فليرضوا به حكماً**»[4].

(١) سورة آل عمران، الآية: ٦٨.
(٢) بحار الأنوار، م.س: ٦٥/ ٢٠.
(٣) م.ن: ٦٥/ ٢٧.
(٤) وسائل الشيعة، م.س: ١٨/ ١٩.

وبدأ الطرح النظريّ والتطبيق العمليّ لهذا الأصل المميّز لنظام الجماعة الصالحة في عصر الصادقَين عليهما السلام. واستمرّ التأهيل النظريّ والتطبيق العمليّ حتّى نهاية الغيبة الصغرى حيث أصبح لأتباع أهل البيت نظام متكامل ووجود مستقلّ ضمن المجتمع الإسلاميّ بالرغم من غياب القيادة المعصومة المتمثّلة في الإمام المهديّ المنتظر عليه السلام.

ثالثاً: التشكيلات السرّيّة

أولى الإمام عليه السلام اهتماماً خاصّاً للنظام الأمنيّ حفاظاً على سلامة الأفراد والجماعات المحيطة به، لأنّ أيّ خلل في الوضع الأمنيّ يؤدّي إلى سجن أو قتل أو تهجير من له أثرٌ إيجابيٌّ في الأمّة. والاهتمام بالنظام الأمنيّ يضمن للأمّة بقاء القيادة وهي الإمام المعصوم عليه السلام الّذي يرشدهم ويوجّههم ويربّيهم، ويعلّمهم أحكام الدّين وسبل الشريعة.

وللنظام الأمنيّ معالم ومظاهر يمكن تحديدها على ضوء ما ورد في توجيهات الإمام عليه السلام وذلك من قبيل تشريع التقيّة والعمل بها، وكتمان الأسرار كما في قوله عليه السلام: «**اكتموا أسرارنا ولا تحملوا الناس على أعناقنا**»[1]، وأيضاً من خلال دعوته إلى التوازن في العلاقة مع الحكّام، ففي الوقت الّذي كان عليه السلام يأمر بمقاطعة الحاكم الجائر كان يُراعي المصلحة الإسلاميّة العليا في عدّة موارد فيجوّز بيع السلاح أو حمله إلى أتباع السلطان في زمن الخوف على الدولة الإسلاميّة من الأعداء الخارجيّين.

(١) بحار الأنوار، م.س: ٧١/٢٢٥.

النشاط السياسيّ للإمام الصادق عليه السلام

استهدف العمل السياسيّ عند الإمام الصادق عليه السلام لونين من الانحراف:

١- انحراف الحكّام.

٢- انحراف الفكر السياسيّ الاجتماعيّ الناشئ من فقدان الفكر والوعي السياسيّ السليم.

ولهذا ركّز الإمام عليه السلام على ما يلي:

أ- التثقيف على عدم شرعيّة الحكومات الجائرة والّتي ليس لها رصيد شرعيّ. ورتّب على ذلك تحريم الرجوع إليها لحلّ النزاعات والخصومات كما ورد عنه قوله عليه السلام: «**إيّاكم أن يُحاكم بعضكم بعضاً إلى أهل الجور، ولكن انظروا إلى رجل منكم يعلم شيئاً من قضايانا فاجعلوه بينكم فإنّي قد جعلته قاضياً فتحاكموا إليه**»[1]، وقال عليه السلام: «**أيّما مؤمن قدّم مؤمناً في خصومة إلى قاضٍ أو سلطان جائر فقضى عليه بغير حكم الله فقد شركه في الإثم**»[2].

إنّ تفتيت الأسس الّتي يعتمد عليها الظالمون في حكمهم يُعتبر عملاً سياسيّاً مهمّاً لزعزعة عرشهم، والقضاء على الجور.

ب- مارس الإمام عليه السلام التثقيف على الصيغة السياسيّة السليمة من خلال تبيان موقع الولاية المغصوب واستخدام الخطاب القرآنيّ في هذا المجال الّذي حاولت فيه المدارس الفكريّة الأخرى تجميد النصّ بحدود الظاهر، وكمثال على ذلك تفسيره عليه السلام لقوله تعالى: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ

(١) وسائل الشيعة، م.س: ١٨/ ٤.

(٢) م.ن: ١٨/ ٢.

﴿ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗۖ وَنَحۡنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴾[١] بأنّ الصبغة هي الإسلام، وفي قولٍ آخر عنه عليه السلام: الصبغة هي صبغ المؤمنين بالولاية، يعني الولاية للإمام الحقّ الإمام أمير المؤمنين عليه السلام. وعلّق العلّامة الطباطبائي على ذلك بقوله: وهو من باطن الآية[٢].

ج- قام عليه السلام بدعم الحركات المسلّحة وتوجيهها الوجهة الصحيحة؛ ليحافظ على الروح الثوريّة ضدّ الباطل، وليبقى الطغاة على وجل من عاقبة طغيانهم، من دون أن يتدخّل بشكل مباشر في هذا الحقل، كما لوحظ ذلك في مواقفه من ثورتي زيد ويحيى.

الاستغلال العبّاسيّ لقيادة الإمام الصادق عليه السلام

تألّق الإمام الصادق عليه السلام ودخل صيته كلّ بيت وأصبح مرجعاً روحيّاً تهوى إليه القلوب من كلّ مكان، وتلوذ به لحلّ مشكلاتها الفكريّة والعقائديّة والسياسيّة. ومن جانب آخر اتسع نفوذ أهل البيت عليهم السلام وامتدّ خطّهم وكثرت أنصاره حتّى أصبح له وجود في مختلف البلاد الإسلاميّة.

وممّن كان يغتنم الفرص ليحضر عند الإمام ويستمع منه، أبو حنيفة مؤسّس المذهب الحنفيّ، وكان يقول بحقّ الإمام عليه السلام: «**ما رأيت أفقه من جعفر بن محمّد** عليه السلام»[٣].

كان مالك بن أنس أيضاً ممّن يحضر عند الإمام عليه السلام ليهتدي بهديه، فكان يقول: «**ما رأت عين ولا سمعت أذن ولا خطر على قلب بشر أفضل**

(١) سورة البقرة، الآية: ١٣٨.

(٢) الميزان في تفسير القرآن، محمّد حسين الطباطبائي: ١/٣١٥، منشورات جماعة المدرّسين، قم، عن طبعة مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٩٧٣م.

(٣) سير أعلام النبلاء، شمس الدين الذهبي: ٦/٢٥٨، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٩، ١٤١٣هـ ١٩٩٣م.

من جعفر بن محمّد الصادق علماً وعبادة وورعاً»[1].

وقد شهد المنصور بحقّه - وهو ألدّ أعدائه - فقال: «**إنّ جعفر بن محمّد كان ممّن قال الله فيه: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾**[2]، **وكان ممّن اصطفى الله وكان من السابقين بالخيرات»**[3].

ولم يكن الإمام مرجعاً للعلماء والفقهاء والمحدّثين وقائداً للنهضة الفكريّة والعلميّة في زمانه فحسب، بل كان مرجعاً للساحة والثوّار من أمثال زيد بن عليّ الثائر الشهيد الّذي كان يرجع إليه في قراراته، وكان يقول بحقّ الإمام عليه السلام:

«**في كلّ زمان رجل منّا أهل البيت يحتجّ الله به على خلقه، وحجّة زماننا ابن أخي جعفر لا يضلّ من تبعه ولا يهتدي من خالفه»**[4].

وكان الإمام الصادق عليه السلام يدعم الثورة بالمال والدعاء والتوجيه.

أمّا العلويّون من آل الحسن كعبد الله بن الحسن، وعمر الأشرف ابن الإمام زين العابدين عليه السلام، فقد كانوا يرجعون إليه ويستشيرونه في مسائل حياتهم، ولم يتجاوزه أحد في الأعمال المسلّحة والنشاطات الثوريّة.

من هنا كانت القناعة السائدة آنذاك في أوساط الأمّة أنّ البديل للحكم الأمويّ هو الخطّ الّذي كان يتزعّمه الإمام عليه السلام. وهذه الحقيقة لم يكن تغافلها ممكناً بحال، فإنّ قادة الحركة العبّاسيّة ورموزها المدبّرين لها وقادتها العسكريّين لم يتجاوزوا الإمام عليه السلام حينما قرّروا الثورة على الأمويّين بالرغم من عدم إيمانهم بضرورة تسليم الحكم إلى شخص الإمام عليه السلام، ولهذا استغلّوا هذا الامتداد الجماهيريّ للإمام الصادق عليه السلام ولأهل البيت عموماً ورفعوا شعارهم

(١) الشيعة في الميزان، محمّد جواد مغنيّة: ١٠٧.

(٢) سورة فاطر، الآية: ٣٢.

(٣) تاريخ اليعقوبي، م.س: ٢/٣٨٣.

(٤) المناقب، م.س: ٢/١٤٧.

الزائف لاستقطاب الجماهير إلى ثورتهم خداعاً ونفاقاً، لأنّ الطريق الوحيد لهم للاستيلاء على الحكم كان هو شعار «**الرضا من آل محمّد**»، وهذا ما سيتّضح لنا في الدرس القادم إن شاء اللّه تعالى.

خلاصة الدرس

- الحوارات والاحتجاجات الّتي دارت بين الإمام الصادق عليه السلام مع أصحاب الرأي والقياس، والزنادقة والملحدين تكشف لنا عمق النشاط الفكريّ والعقائديّ الّذي مارسه الإمام الصادق عليه السلام.
- استطاع الإمام عليه السلام أن يُشيّد معالم أعظم جامعة ثقافيّة إسلاميّة والّتي تميّزت بانفتاحها على الثقافات الأخرى، وسعة علومها ومعارفها، ومنهجها الإصلاحيّ، والّتي تميّزت أيضاً بأسلوب التخصّص العلميّ.
- ركّز الإمام عليه السلام على بناء المجتمع الصالح من خلال إيجاد العناصر الصالحة حيث حدّد لشيعته هويّتهم العقائديّة، وصفاتهم، وانتماءهم الفكريّ لأهل البيت عليهم السلام ومنزلتهم.
- اهتمّ الإمام عليه السلام بالنظام الأمنيّ والتشكيلات السرّية حفاظاً على سلامة الأفراد والجماعات المحيطة به.
- كان للإمام عليه السلام نشاط سياسيّ لمنع الانحراف السياسيّ المتمثّل في انحراف الحكّام، وانحراف الفكر السياسيّ الاجتماعيّ الناشئ من فقدان الفكر والوعي السياسيّ السليم.
- استغلّ العبّاسيّون نفوذ الإمام عليه السلام وتأثيره على الجماهير لأجل الترويج لثورتهم الخادعة.



الدرس

الثالث عشر

الإمام الصادق عليه السلام ونشوء الحكم العبّاسيّ



أهداف الدرس:

١. أن يتعرّف الطالب إلى كيفيّة نشوء الحكم العبّاسيّ.

٢. أن يتبيّن الأساليب التي اعتمدها العبّاسيّون في الوصول للحكم.

٣. أن يتبيّن موقف الإمام عليه السلام من الحركة العبّاسيّة.

الدولة العبّاسيّة (النشأة والأساليب)

كان هشــام بن عبد الملك يحــذر وجود أبي هاشم - وهو من رجال بني هاشم البارزين - لوجود لياقات علميّة وسياسيّة عنده كانت تؤهّله للقيادة، فحاول هشام اغتياله. ولمّا أحسّ أبو هاشم بالمكيدة ضدّه احترز من ذلك فأوصى إلى محمّد بن عليّ بن عبد اللّه بن العبّاس بإدارة أتباعه في مقاومة الأمويّين سنة ٩٩هـ.

وكانــت هذه الوصيّة هي بــذرة الطمع الّتي حرّكت محمّد بن عليّ بن عبد اللّه بن العباس ما جعلته يشعر بأنّه القائد والخليفة مستقبلاً. وكانت الفرصة سانحة فــي ذلك الوقت بالتبليغ لشخصه، لذا شرع في إرسال الدعاة إلى خراسان سرّاً لهــذا الغرض، واستمرّ بدعوته إلــى أن مات سنة ١٢٥هـ وترك مــن بعده أولاده وهــم: إبراهيم الإمــام، والسفّاح، والمنصور. وقــد كان «**إبراهيم الإمــام**» أكثر دهاءً وحنكة من أخويه فخطّط لقيام الدولة العبّاسيّة.

نشط إبراهيم بالدعوة وأخذ يتحدّث بأهميّة الثورة وإنقاذ المنكوبين، وشارك البسطاء من الناس آلامهم وأخذ يعطف على المظلومين ويلعن الظالمين. وانتشر دعاة إبراهيــم في بلاد خراسان وكان لهم كبير الأثر هناك. وقد تعرّضوا للقتل

فـي سبيل دعوتهم ومُثّل ببعضهم وحبس بعضهم الآخر. وكان في طليعة الدعاة الأكثر نشاطاً وقوّة ودهاءً أبو مسلم الخراسانيّ...[1].

وتضمّـن المنهج السياسيّ العبّاسيّ لكسب الأُمّة عدّة أساليب كانت منسجمة مـع الواقع ومقبولة عند عامّة الناس، ولذا لقيت الدعوة استجابة سريعة وانضمّ المحرومون والمضطهدون إليها، ومن هذه الأساليب:

الأوّل: الدعوة لأهل البيت عليهم السلام: روّج العبّاسيّون أفكار الدعوة بقوّة وحرّكوا العواطـف تجاههـا وحاولوا إقناع النـاس بأنّ الهدف من دعوتهـم هو الانتصار لأهل البيت عليهم السلام الّذين تعرّضوا للظلم والاضطهاد، وأُريقت دماؤهم في سبيل الحقّ.

وركّز العبّاسيّون. بيـن صفوف دعاتهم على أنّ الهدف المركزيّ من دعوتهم هـو رجوع الخلافة المغصوبة إلـى أهلها، ولهذا تفاعل الناس مع شعار «**الرضا لآل محمّد**» ووجدوا بهذا الشعار ضالّتهم.

وكان يعتقـد الدعـاة أنّ هـذه الدعـوة تنبّئ بظهـور عهد جديـد يضمن لهم حقوقهم كما عرفوه من عدالة الإمام عليّ عليه السلام.

وقـد حقّق هذا الشعار نجاحاً باهـراً خصوصاً في البلاد الّتي كانت قد لاقت البؤس والحرمان، وكانت تترقّب ظهور الحقّ على أيدي أهل بيت النبوّة عليهم السلام.

الثانـي: إخفاء اسـم الخليفة: حيث ركّز العبّاسيّـون على اسم الّذي يدعون إليه، وتكتّموا على أمره، وأقنعوا الناس بأنّ الخليفة لا يمكن إظهار اسمه إلّا بعد زوال سلطان الأمويّين حيث يُعلن اسمُه الّذي يعرفه القادة والنقباء[2].

الثالـث: لبس السـواد: كان العبّاسيـون يلبسون السواد، وكانـوا يرمزون به

(١) الأخبار الطوال، أحمد بن داود الدينوري: ٣٦٠، دار إحياء الكتاب العربي، ط ١، ١٩٦٠م.
(٢) راجع الإمام الصادق والمذاهب الأربعة.

إلى محاربة الظالمين وإظهار الحزن والتألّم لأهل البيت عليهم السلام والشهداء الّذين لحقوا بهم. وهكذا قامت الدعوة العبّاسيّة باسمهم للانتقام من الأمويّين.

وتركيـزاً لهذا الشعار الّذي كان له وقع بالغ في النفوس أرسل إبراهيم الإمام لواءً يُدعى الظِلّ أو السحاب على رمح طويل. وكان ثلاثة عشر ذراعاً. وكتب إلى أبي مسلم: إنّي قد بعثت إليك براية النصر[1]. وقد تأوّلوا الظلّ أو السحاب: بأنّ السحاب يُطبق الأرض، وكما أنّ الأرض لا تخلو من الظلّ كذلك لا تخلو من خليفة عبّاسـيّ[2]، وأنّ ذلك يمثّل لواء رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأنّهم ذكروا أنّ لواءه في حروبه وغزواته كان أسود!

اجتماع الأبواء[3]

كان الهـدف من عقد هذا الاجتمـاع الصوريّ معرفة نوايا العلويّين من خلال اقتراح تعيين خليفة من جهة، وتهيئة الأجواء الودّيّة وإشاعة روح المحبّة والوئام بينهـم وبين العبّاسيّين، وتطميناً لخواطرهم من جهـة أُخرى أو على أقلّ تقدير جعلهـم محايديـن في هذا الصـراع ليتـمّ للعبّاسيّين، ما يهدفـون إليه، وبذلك يقـدرون علـى حشد ما استطاعوا مـن قوّة لصالحهم، فكان محـلّ الاجتماع هو منطقة الأبواء.

وقـد دُعي إلى الاجتماع كبـار العلويّين والعبّاسيّين، فحضـر كلٌّ من إبراهيم الإمام والسفّاح والمنصور وصالح بن عليّ وعبد الله بن الحسن وابناه محمّد ذو النفس الزكيّة وإبراهيم وغيرهم.

وقام صالح بن عليّ خطيباً فقال: «**قد علمتم أنّكم الّذين تمدّ الناس أعينهم**

(١) تاريخ الطبري، م.س: ٩/٨٢.

(٢) الكامل لابن الأثير، م.س: ٥/١٧٠ والطبري، م. س:٩/٨٥.

(٣) منطقة قريبة من المدينة المنوّرة.

إليهم، وقد جمعكم الله في هذا الموضـع، فاعقدوا بيعةً لرجل منكم تعطونه إيّاها من أنفسكم، وتواثقوا على ذلك حتّى يفتح الله وهو خير الفاتحين».

ثـمّ قام عبد الله بن الحسن، فحمـد الله وأثنى عليه ثمّ قال: «**قـد علمتم أنّ ابنـي هذا هـو المهديّ فهلّموا لنبايعـه**». وقال أبو جعفر المنصور: «**لأيّ شـيء تخدعون أنفسكم؟ ووالله لقد علمتم ما في الناس أحد أطول أعناقاً، ولا أسرع إجابـة منهـم إلـى هـذا الفتى. يريـد محمّد بن عبـد الله. قالوا: قـد - والله - صـدقت إنّ هذا لهو الّذي نعلم**». فبايعوا جميعاً محمّداً، ومسح على يده كلّ من إبراهيـم الإمام والسفّـاح والمنصور وكلّ من حضر الاجتمـاع[1]. وبعد أن أنهى مؤتمرهم أعماله بتعيين محمّد بن عبد الله بن الحسن خليفة للمسلمين، أرسلوا إلـى الإمام الصادق عليه السلام فجـاء فقال: «**لماذا اجتمعتم؟**» قالـوا: نبايع محمّد بـن عبد الله فهو المهديّ، فقـال الإمام جعفر الصـادق عليه السلام: «**لا تفعلوا فإنّ الأمر لم يأت بعد، وهو ليس بالمهديّ**»، فقال عبد الله، ردّاً على الإمام عليه السلام: يحملـك على هذا الحسد لابنـي! فأجابه الإمام عليه السلام بخُلُـق الأنبياء: «**والله لا يحملنـي ذلـك ولكن هذا وإخوتـه وأبناؤهم دونكـم**» وضرب بيده على ظهر أبي العباسـ، ثمّ قال لعبد الله: «**ما هي إليك ولا إلى ابنيـك، ولكنّها لبني العبّاس، وإنّ ابنيـك لمقتـولان**»، ثمّ نهضـ عليه السلام، وقال: «**إنّ صـاحب الرداء الأصـفر. يقصـد بذلـك أبا جعفـر. يقتله**». قال الراوي: والله مـا خرجت من الدنيا حتّى رأيتـه قتله. وانفضّ القوم، فقال أبو جعفر المنصـور للإمام جعفر عليه السلام: تتّم الخلافة لي؟ فقال: «**نعم أقوله حقّاً**»[2].

(١) مقاتل الطالبيّين، م. س: ٢٥٦.

(٢) الخرائج والجرائح، قطب الدّين الراوندي:٢/٧٦٥، المطبعة العلميّة، قم، ط ١، ١٤٠٩هـ. وبحار الأنوار، م.س: ٤٧/١٢٠، ومقاتل الطالبيّين، م. س: ٢٥٦.



تحرُّك العبّاسيّين بعد اجتماع الأبواء

بعد أن حقّق اجتماع الأبواء غرضه وأنِسَ الحاضرون بقراره الكاذب نشط إبراهيم الإمام بالاتّجاه الآخر؛ ليواصل عمله بلا رجوع لأعضاء المؤتمر ولا للخليفة المرشَّح فأصدر عدّة قَرارات كعادته سرّاً.

منها: أنّه كتب إلى شيعته في الكوفة وخراسان: إنّي قد أمرت أبا مسلم بأمري فاسمعوا له وأطيعوا. قد أمّرته على خراسان وما غلب عليه. وكان ذلك سنة (١٢٨هـ). وكان أبو مسلم لا يتجاوز عمره التسع عشرة سنة، وكان يقظاً فاتكاً غادراً لا يعرف الرحمة ولا الرأفة، وكان ماهراً في حبك الدسائس. ودهش الجميع لتعيين أبي مسلمٍ في هذا المنصب الخطير نظراً لحداثة سنّه وقلّة تجاربه، وأبى جمع من الدعاة طاعته والانصياع لأوامره إلّا أنّ إبراهيم الإمام ألزمهم السمع والطاعة[1]. وقد أقدم أبو مسلم فيما بعد على إعدام جميع من عارض اختياره لقيادة هذه المنطقة.

أمّا ما هو الخطّ الّذي سوف يتحرّك بموجبه أبو مسلم لإعلان ثورته هناك، فقد جاء هذا الخطّ في وصيّة إبراهيم الإمام له عندما قال: «**يا عبد الرحمن إنّك منّا أهل البيت فاحفظ وصيّتي. انظر هذا الحيّ من اليمن فأكرمهم، وحلّ بين ظهرانيهم، فإنّ الله لا يتمّ هذا الأمر إلّا بهم. وانظر هذا الحيّ من ربيعة فاتّهمهم في أمرهم، وانظر هذا الحيّ من مُضَرَ فإنّهم العدوّ القريب الدار، فاقتل من شككت في أمره ومن وقع في نفسك منه شيء، وإن شئت أن لا تدع بخراسان من يتكلّم العربيّة فافعل، فأيّما غلام بلغ خمسة أشبار فاقتله**»[2].

وهذه الوصيّة تلخّص السياسة العامّة التي اعتمدها العبّاسيّون مع المسلمين.

---

(١) الكامل في التاريخ، م.س: ٤/١٩٥.

(٢) م.ن: ٤/٢٩٥.

وقد أثّـر أبو مسلم الخراسانيّ في الناس لتعاطفه معهم إذ كان يتمتّع بصفات تؤهّله لهذا الموقع، فهو: خافض الصوت، فصيح بالعربيّة والفارسيّة، حلو المنطق، راويـةٌ للشعر، لم يُر ضاحـكاً ولا مازحاً إلّا في وقته، ولا يـكاد يُقطّب في شيء من أحوالـه، تأتيه الفتوحـات العظام فلا يظهر عليه أثر السـرور، وتنزل به الحوادث الفادحة فلا يُرى مكتئباً. وعندما سئل إبراهيم الإمام عن أهليّة أبي مسلم قال: إنّي قد جرّبت هذا الأصفهانيّ، وعرفت ظاهره وباطنه فوجدته حَجَر الأرض[1].

وفجّر الثورة هناك. وكان يبذر الشقاق بين جنود الأمويّين ليحصل الانقسام بينهـم. وقـد استفاد من ذلـك ونجح في مهمّتـه. وقد انجفـل الناس من هرات والطالقان ومرو وبلخ، وتوافروا جميعاً مسوّدين الثياب[2].

وباشر أبو مسلم إبادة الأبرياء فقتل - فيما ينقل المؤرّخون - ستمائة ألف عربيّ بالسيف صبراً عدا من قتل في الحرب. وتقدّمت جيوش أبي مسلم بعد أن هزمت ولاة الأمويّين في خراسان نحو العراق - وهي كالموج - تخفق عليها الرايات السود فاحتلّـت العراق. وبهذا أُعلن الحكـم العبّاسيّ على يد أبي مسلم الخراسانيّ في الكوفة سنة ١٣٢هـ.

موقف الإمام الصادق عليه السلام من الحركة العبّاسيّة

التزم الإمام الصادق عليه السلام إزاء المستجدّات السياسيّة موقف الحياد، لكنّه من جانب آخر كان يتحرّك ويعمل لتوسعة دائرة الأفراد الصالحين في المجتمع. ومن هذا المنطلق أصدر جملة من التوصيات لشيعته كان من شأنها أن تجنّبهم الدخول في المعادلات السياسيّة المتغيّرة الّتي تؤدّي بنتيجتها إلى استنزاف الوجود الشيعيّ في نظر الإمام عليه السلام، محذّراً من أساليب العنف والمواجهة لهذه المرحلة.

(١) وفيّات الأعيان، لابن خلكان: ٣/٢٤٥، دار صادر، بيروت.

(٢) الأخبار الطوال، م. س: ٣٦٠.

يقول الإمام الصادق عليه السلام: «**اتّقوا الله وعليكم بالطاعة لأئمّتكم، قولوا ما يقولون، واصمتوا عمّا صمتوا، فإنّكم في سلطان من قال الله تعالى فيه: ﴿وَإِن كَانَ مَكۡرُهُمۡ لِتَزُولَ مِنۡهُ ٱلۡجِبَالُ﴾[1] (يعني بذلك ولد العبّاس)، فاتّقوا الله فإنّكم في هدنة، صلّوا في عشائرهم واشهدوا جنائزهم وأدّوا الأمانة إليهم**»[2].

ويمكن بلورة سيرة الإمام الصادق عليه السلام ومنهجه السياسيّ مع الأطراف الطامعة في الحكم، أو العبّاسيّين - الّذين كانوا يرون في الإمام الصادق عليه السلام وخطّه خطراً حقيقيّاً على سلطانهم ولو على المدى البعيد - من خلال المواقف التالية:

١. **موقف الإمام عليه السلام من أبي سلمة الخلّال:** كان أبو سلمة أحد الدعاة العبّاسيّين النشطين في الكوفة، ولعب دوراً مميّزاً في نجاح الدعوة العبّاسيّة. ولمّا أدرك أبو سلمة بعد موت إبراهيم الإمام أنّ الأمور تسير على خلاف ما كان يطمح إليه كتب إلى الإمام الصادق عليه السلام بأنّه يريد البيعة له، ولكنّ الإمام عليه السلام رفض العرض وقال: «**ما لي ولأبي سلمة وهو شيعة لغيري**»[3].

وأكّد عليه السلام رفضه القاطع عندما قام بحرق الرسالة جواباً لأبي سلمة.

٢. **موقف الإمام عليه السلام من أبي مسلم الخراسانيّ:** وهو الّذي قاد الانقلاب على الأمويّين في خراسان وتمّ تأسيس الدولة العبّاسيّة على يديه، كتب إلى الإمام عليه السلام يبايعه، فأجابه عليه السلام: «**ما أنت من رجالي ولا الزمان زماني**»[4].

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٤٦.
(٢) الكافي، م.س: ٨/٢١٠.
(٣) مروج الذهب، م.س: ٣/١٨٤.
(٤) الملل والنحل، أبو الفتح، محمّد بن عبد الكريم الشهرستاني: ١/٢٤١، دار المعرفة، بيروت، ط ٢.

ولـم يحدّثنا التاريخ عن أيّة علاقة بينه وبيـن الإمام عليه السلام، لا عقائديّة، ولا سياسيّة، سوى لقاء واحدٍ لم يتمّ فيه التعارف بينهما أو التفاهم، وكان أبو مسلم قد سفك دماء الآلاف من الأبرياء.

٣. **موقف الإمام عليه السلام من العلويّين:** الّذين خدعهم العبّاسيّون في اجتماع الأبواء، وبايعوا في حينه محمّد بن عبد اللّه المحض. وقد كان للإمام عليه السلام موقفه الواضح - الذي سبق وأشرنا إليه - في ذلك. وقد تكرّر هذا الموقف لمّا جاء عبد اللّه بن الحسن إلى الإمام الصادق عليه السلام مسروراً يبشّره بعرض قدّمه له أبو سلمة بعد رفضه من قبل الإمام عليه السلام، فأجابه الإمام عليه السلام قائلاً: «**يا أبا محمّد (وهي كنية عبد الله المحض)، ومتى كان أهل خراسان شيعة لك؟ أنت بعثت أبا مسلم إلى خراسان؟! وأنت أمرتهم بلبس السواد؟!..**» فنازعه عبد اللّه بن محمّد بأنّ ولده مهديّ هذه الأمّة، فقال الإمام عليه السلام: «**ما هو مهديّ هذه الأمّة ولئن شهر سيفه ليقتلنّ**»، فقال عبد اللّه: كان هذا الكلام منك لشيء، فقال الإمام الصادق عليه السلام: «**قد علم الله أنّي أوجب النصيحة على نفسي لكلّ مسلم، فكيف أدّخرها عنك فلا تمنّ نفسك الأباطيل، فإنّ هذه الدولة ستتمّ لهؤلاء وقد جاءني مثل الكتاب الّذي جاءك**»[1].

ولو أنّنا تأمّلنا قليلاً في هذه الكلمات التي ذكرها الإمام عليه السلام لشعرنا بمقدار الألم الذي كان يعتصر قلبه عليه السلام ممّا آلت إليه حال هذه الأمّة، بل حال أقربائه من العلويّين الذين أعمت الرياسة أبصارهم عن رؤية الحقّ ومعرفة أهله.

(١) مروج الذهب، م.س: ٣/ ١٨٤.

خلاصة الدرس

- في العقود الأخيرة من العهد الأمويّ أخذت الأمّة تزداد قناعة بضرورة التخلّص من الحكم الأمويّ الفاسد. وكان خطّ أهل البيت عليهم السلام قد أخذ بقلوب الناس وعقولهم. ومن هنا تحرّك العبّاسيون مستغلّين هذا التوجّه لأهل البيت عليهم السلام رافعين شعار الدعوة إلى (الرضا من آل محمّد صلى الله عليه وآله وسلم)، واكتسحوا الساحة بهذا الشعار مستعملين عدّة أساليب تبليغيّة كان يستتر خلفها مخطّطو الثورة ضدّ الحكم الأمويّ. كما استطاعوا أن يقوموا بتصفية العناصر الّتي تطلب الحكم من العلويين وأتباعهم من خلال ما عرفوه في اجتماع الأبواء.
- كان موقف الإمام الصادق عليه السلام سلبياً وصريحاً وكاشفاً عن عدم طمعه في الحكم، وعدم توجّهه إلى الخلافة، ومخبراً بوصول الحكم إلى العبّاسيّين.
- لم يتدخّل الإمام الصادق عليه السلام في شؤون الحكم العبّاسيّ لا من قريب ولا من بعيد، ولم يستجب لأيّ واحد من العروض الّتي عرضت عليه قبل انتصار العبّاسيّين وبعده.



الدرس

الرابع عشر

الإمام الصادق عليه السلام ودولة العبّاسيّين



أهداف الدرس:

١. أن يتبيّن الطالب تحدّيات السلطة لمرجعيّة الإمام عليه السلام.

٢. أن يستذكر إجراءات الإمام عليه السلام لضمان المسيرة.

٣. أن يتعرّف إلى موقف الإمام عليه السلام من بعض الاعتقادات الخاطئة.

تحدّيات السلطة لمرجعيّة الإمام عليه السلام الصادق الدينيّة

اتّجـه الناس إلى الإمـام الصادق عليه السلام والتفّوا حولـه، لا سيّما أثناء وجوده المبارك في «**الحيرة**»، المدينـة القريبة من الكوفة، فاجتمعوا عنده لينهلوا من علومـه ويستفيدوا من توصياته وتوجيهاته، حتّى قال محمّد بن معروف الهلاليّ: مضيـت إلى الحيـرة إلى جعفر بن محمّد فما كان لي مـن حيلة من كثرة الناس فلمّا كان اليوم الرابع رآني، فأدناني...

وهـذا الحشد الجماهيريّ الكبير الّذي يؤمـن بأهليّة الإمام عليه السلام وأعلميّته، والتفافه المستمرّ حول الإمام عليه السلام، قد دفع الحكومة العبّاسيّة إلى أن تحدّ من هذه الظاهرة، لكنّ الإمام عليه السلام انطلاقاً من محافظته على مسيرة الأمّة ودفاعاً عن الإسلام، نجده قد مارس مع السفّاح (الخليفة العبّاسيّ) أسلوباً مرناً.

فعـن حذيفة بن منصور، قال: كنت عند أبـي عبد اللّه عليه السلام بالحيرة، فأتاه رسول أبي العبّاس السفّاح الخليفة، يدعوه، فدعا بطمر (ثوب) أحد وجهيه أسود والآخر أبيض، فلبسه، ثمّ قال أبو عبد اللّه عليه السلام: «**أما إنّي ألبسه، وأنا أعلم أنّه لباس أهل النار**»[1].

(١) الكافي، م.س: ٦/٤٤٩.

واستمرّت إجراءات العبّاسيّين للحدّ من ظاهرة الالتفاف حول الإمام عليه السلام والاستفادة من علومه. فقد روى هارون بن خارجة أنّه كان رجل من أصحابنا طلّق امرأته ثلاثاً فسأل أصحابنا، فقالوا: ليس بشيء، فقالت امرأته: لا أرضى حتّى تسأل أبا عبد الله عليه السلام، وكان عليه السلام في الحيرة إذ ذاك، أيّام أبي العبّاس السفّاح. قال: فذهبت إلى الحيرة ولم أقدر على مكالمته، إذ منع الخليفةُ الناسَ من الدخول على أبي عبد الله، وأنا أنظر كيف ألتمس لقاءه، فإذا سواديّ[1] عليه جبّة صوف يبيع خياراً، فقلت له: بكم خيارك هذا كلّه؟ قال: بدرهم. فأعطيته درهماً، وقلت له: أعطني جبّتك هذه، فأخذتها ولبستها وناديت: مَنْ يشتري خياراً؟ ودنوت منه، فإذا غلام من ناحية ينادي: يا صاحب الخيار. فقال عليه السلام لي، لمّا دنوت منه: ما أجود ما احتلت، أيّ شيء حاجتك؟

قلت: إنّي ابتُليت: فطلّقت أهلي ثلاثاً في دفعة، فسألت أصحابنا فقالوا: ليس بشيء، وإنّ المرأة قالت: لا أرضى حتّى تسأل أبا عبد الله، فقال عليه السلام: «**ارجع إلى أهلك فليس عليك شيء**»[2].

وهكذا انطلق العبّاسيّون من هذه النقطة لمواجهة الإمام الصادق عليه السلام والعمل على تصفيته وتجميد نشاطه لأنّهم كانوا يرون فيه البديل القويّ عنهم لاستلام الحكم على المدى البعيد، بالرغم من عدم ممارسة أيّ نشاط سياسيّ ظاهر له، وانشغاله بالفقه وعلوم الشريعة والتصدّي للتحدّيات الفكريّة الحضاريّة آنذاك.

لكنّ هذا النشاط بدوره ينتهي إلى المرجعيّة الفكريّة والعلميّة وهي مصدر خطر للسياسة لأنّها ـ ترشّح الفرد المرجع إلى مركز الحكم فيكون قويّاً بفكره وبأنصاره، وهو تهديد حقيقيّ للحكم غير المشروع.

(١) سواديّ: نسبة إلى العراق الّذي سمّي بأرض السواد أو إلى السواديّة وهي قرية بالكوفة.

(٢) بحار الأنوار، م.س: ١٧١/٤٧.

الإمام الصادق عليه السلام والمنصور العبّاسيّ

استولى أبو جعفر المنصور على الحكم بعد وفاة أخيه السفّاح سنة ١٣٦هـ. وعُرِف المنصور بأنّه كان خدّاعاً لا يتردّد في سفك الدماء، وكان متمادياً في بطشه مستهتراً في فتكه[١]. وبمجرّد أن استلم زمام الحكم بادر إلى قتل أبي مسلم الخراسانيّ الّذي يبغضه، على الرغم من كونه القائد الأوّل للانقلاب العبّاسيّ. وكان المنصور قد أعدّ له مكيدةً وأغراه بالمجيء إلى بغداد بعد أن جرّده من كلّ مناصبه العسكريّة.

ولمّا دخل أبو مسلم الخراسانيّ على المنصور قابله بقساوة بالغة، وأخذ يعدّد عليه أعماله وأبو مسلم يعتذر عن ذلك. وهنا صفّق المنصور عالياً، فدخل الحرّاس وبأيديهم السيوف فقال أبو مسلم للمنصور متوسّلاً: استبقني لعدوّك، فصاح له: «**وأيّ عدوٍّ أعدى لي منك؟**». وبمثل هذا الأسلوب قد غدر بعمّه عبد اللّه بن عليّ؛ حيث أرسل إليه بعد أن كان قد أعطاه الأمان، وقتله بعد ذلك[٢].

وبالرغم من كلّ تحفّظات الإمام الصادق عليه السلام تجاه العبّاسيّين وعدم الدخول في أيّ شأنٍ سياسيّ يختصّ بهم أو يمتّ إليهم بصلة، لم يتركه المنصور العبّاسيّ حرّاً في نشاطه، بل بدأ يخطّط للتآمر على الإمام عليه السلام.

وقد مرّ مخطّط المنصور ضدّ الإمام الصادق عليه السلام ونهضته العلميّة بشكل عامّ بثلاث مراحل:

الأولى: المرونة والاستفادة من جهد الإمام عليه السلام لاحتوائه ضمن سياسة الخلافة العبّاسيّة، فقد كتب إليه: لِمَ لا تغشانا كسائر الناس؟! فأجابه الإمام عليه السلام: «**ليس لنا من الدنيا ما نخافك عليه ولا عندك من أمر**

(١) الكامل في التاريخ، م.س: ٤/٣٥٥.

(٢) تاريخ الطبري، م.س: ٦/٢٦٦.

الآخرة ما نرجوك له، ولا أنت في نعمة فنهنئك بها ولا تراها نقمة فنعزّيك بها». فكتب إليه المنصور: تصحبنا لتنصحنا.

فأجابه الإمام عليه السلام: «**من أراد الدنيا لا ينصحك، ومن أراد الآخرة لا يصحبك**».

قال المنصور: والله لقد ميّز عندي منازل الناس، من يريد الدنيا ممّن يريد الآخرة، وإنّه ممّن يريد الآخرة لا الدنيا[1].

الثانية: مرحلة المراقبة لحركة الإمام عليه السلام ورصد نشاطاته للحصول على آخر المعلومات عنه ليستطيع أن يأخذ منها دليلاً للنيل من الإمام عليه السلام، والتضييق على حركته الّتي كان يرى فيها المنصور خطراً حقيقيّاً على سلطانه.

وقد اتّخذ لذلك عدّة أساليب منها: أسلوب الدسّ في صفوف العلويّين وإغرائهم وجمع المعلومات عنهم، وأسلوب التضعيف والنيل غير المباشر من مكانة الإمام عليه السلام؛ فقد حاول المنصور أن يسلّط الضوء على بعض الشخصيّات ليجعل منها بدائل علميّة تغطّي على الإمام عليه السلام، وتؤيّد سياسته، وتساهم في تضعيف القدسيّة والانجذاب الجماهيريّ نحوه عليه السلام.

ومن ذلك: أنّه طلب إلى أبي حنيفة أن يُهيّئ له عدّة مسائل عويصة وشديدة، وأحضره مع الإمام عليه السلام إلى مجلسه، وطلب من أبي حنيفة (الّذي هيّأ أربعين مسألة) أن يُلقي على الإمام عليه السلام مسائله. قال أبو حنيفة:

فجعلت أُلقي عليه فيُجيبني، فيقول: «**أنتم تقولون كذا، وأهل المدينة يقولون كذا ونحن نقول كذا**» فربّما تابعنا، وربّما تابعهم، وربّما خالفنا جميعاً.

---

(١) م.ن: ٦/٢٦٦.

حتّى أتيت على الأربعين مسألة، فما أضلّ منها شيئاً، ثمّ قال أبو حنيفة: أليس إنّ أعلم الناس أعلمهم باختلاف الناس؟!"[1].

ومن أساليب المنصور أيضاً التحذير المباشر للإمام عليه السلام لأنّه لم يطمئنّ لسياسته عليه السلام.

الإمام الصادق عليه السلام وثورة صاحب النفس الزكيّة

بعد اختلاس العبّاسيّين للحكم تألّم محمّد بن عبد الله ذو النفس الزكيّة، وأخذ يدعو الناس إلى نفسه، فاستجاب له الناس وبايعوه، وبعد ذلك أعلن ثورته في المدينة وانضمّ إليه أهالي اليمن ومكّة وقام بهم خطيباً ووضّح مظالم العبّاسيّين.

ولمّا علم المنصور بالثورة وجّه جيشاً بأربعة آلاف فارس بقيادة عيسى بن موسى لحرب محمّد بن عبد الله المحض الذي أُصيب على إثر ذلك بجراح أدّت إلى استشهاده وتفرّق عسكره.

وحينما سُئل الإمام الصادق عليه السلام عن موقفه من محمّد بن عبد الله ودعوته - قبل أن يُعلن محمّد ثورته - أجاب عليه السلام: «**إنّ عندي كتابين فيهما اسم كلّ نبيّ وكلّ ملك يملك، لا والله ما محمّد بن عبد الله في أحدهما**»[2].

الثالثة: مرحلة الفتك بالإمام عليه السلام واغتياله (كما سيأتي).

إجراءات الإمام الصادق عليه السلام لضمان المسيرة

شدّد المنصور العبّاسيّ من مراقبته للإمام الصادق عليه السلام، وحاول مرّات عديدة اغتياله. وحينما علم الإمام عليه السلام بنوايا المنصور وتصميمه على قتله،

(١) سير أعلام النبلاء، م.س: ٥٤٣/٩.
(٢) بحار الأنوار، م.س: ٢١٥/٢٦.

اتّخذ مجموعة إجراءات وقام بعدّة أنشطة استهدفت تهيئة الخطّ الشيعيّ لمواصلة الطريق من بعده، وبالتالي ضمان المسيرة واستمراريّتها، ويمكن إيجاز الكلام عن ذلك بما يلي:

النشاط الأوّل: حاول الإمام عليه السلام أن يجعل الصفّ الشيعيّ صفّاً متماسكاً في عمله ونشاطه، وركّز على الإمام الكاظم عليه السلام لقيادة الأمّة من بعده فيما لو تعرّض للقتل، وقطع الطريق أمام المنتفعين والّذين يريدون انتهاز الفرص، لأنّ إسماعيل ابن الإمام الصادق عليه السلام المتوفّى في هذه الفترة، قد قال جماعةٌ بإمامته وإنّه لم يمت ولكنّه غاب وعُرف أتباعه بالإسماعيليّة.

وقد التفت الإمام عليه السلام إلى هذه العقبة وحاول أن يرفعها بأساليب شتّى.

ومن النشاطات الّتي بذلها الإمام لمعالجة هذه المشكلة: التأكيد لصحابته على تحقّق موت ابنه إسماعيل ورفع الشكوك المحتملة حول موته في كلّ فرصة كانت تسنح لذلك.

فقد روى زرارة بن أعين أنّ الإمام الصادق عليه السلام دعا بمجموعة من أصحابه... حتّى صاروا ثلاثين رجلاً، فقال عليه السلام: «**يا داوود اكشف عن وجه إسماعيل**»، فكشف عن وجهه، فقال: «**تأمّله يا داوود، فانظر أحيّ هو أم ميت؟ فقال: بل هو ميت، فجعل يعرضه على رجل رجل حتّى أتى على آخرهم فقال: اللّهم اشهد. ثمّ أمر بغسله وتجهيزه**»[1].

النشاط الثاني: رغم الحرب الباردة بين المنصور والإمام الصادق عليه السلام إلّا أنّ الإمام عليه السلام مارس بعض الأدوار مع السلطة لغرض الحفاظ على الأمّة وسلامة مسيرتها وإبقاء روح الرفض قائمة في نفوسها، مخافة أن تسبّب ممارسات المنصور حالة من الانكسار للشيعة بسبب الاستجابة لمخطّطاته الخبيثة، ومن ذلك:

(١) م.ن: ٤٧/٢٥٣.

أنّه ورد أنّ أبا جعفر المنصور قال للإمام عليه السلام: إنّي قد عزمت على أن أضرب المدينة ولا أدع فيها نافخ ضرمة.

فقال عليه السلام: «**يا أمير المؤمنين لا أجد بُدّاً من النصاحة لك فاقبلها إن شئت أوْ لا... إنّه قد مضى لك ثلاثة أسلاف: أيّوب عليه السلام ابتُلي فصبر، وسليمان عليه السلام أُعطيَ فشكر، ويوسف عليه السلام قَدَرَ فغفر، فاقتد بأيّهم شئت**».

قال: قد عفوت[1].

النشاط الثالث: ركّز الإمام الصادق عليه السلام على مبادئ إسلاميّة وممارسات إصلاحيّة في نفوس شيعته مثل مبدأ التقيّة، وكتمان السرّ، والعلاقة الفكريّة والعاطفية بالثورة الحسينيّة لتقي هذه المبادئ والممارسات الوجود الشيعيّ من الضربات والمخطّطات الخارجيّة.

وأغلب الظنّ أنّ هكذا نشاط للإمام الصادق عليه السلام كان قد كثُر في أيّام المنصور لكثرة الجواسيس والعيون الّذين يرصدون حركة الإمام عليه السلام، ممّا دفع به عليه السلام إلى أن يلجأ إلى عقد جلسات سرّية في بيته لغرض مواصلة دوره الإلهيّ مع الأمّة عن طريق حفظ النخبة الصالحة وتوجيهها وضمان تكامل مسيرتها.

موقف الإمام الصادق عليه السلام من الغلاة

تشتمل عقائد الغلاة على آراء ينسبون بموجبها بعض صفات الله إلى بعض البشر، ويعترفون لهم بنوع من الألوهيّة، فيجعلون منهم آلهة حيناً أو أصحاب صفات إلهيّة حيناً آخر. وبما أنّ الأئمّة كانوا يطرحون أنفسهم بصفتهم منصوبين من قِبَل الله فإنّ ذلك كان يسهّل الأرضية للصق مختلف الصفات الإلهيّة بهم، ويجعلهم غرضاً للحبّ والولاء المتطرّف ويُهيّئ الظروف لمثل تلك الآراء المغالية.

---

(١) م.ن: ٤٧/٢٤٥.

إنّ أهمّ جوانب حياة الإمام الصادق عليه السلام الّتي لها دور كبير في حياة الشيعة هي معارضته وتصدّيه العلنيّ للغلاة ومسألة الغلوّ، والّتي نتج عنها تحجيم الغلاة في شتّى المجالات، وجعلهم خارج دائرة الشيعة.

إنّ كتب الفرق والمذاهب الّتي كُتبت فيما بعد على يد علماء أهل السنّة وبسبب عدم تمييزها بين الشيعة الواقعيّين والغلاة، حرّفت أفكار قُرّائها عن حقيقة الحال وضلّلتهم بحيث إنّه لم يعد هناك تمييز بين الشيعة والغلاة. وعلى هذه الخُطى مشى بعض المستشرقين. بينما تشير الحقائق التاريخيّة إلى التصدّي الكبير من الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام للغلاة، ورفض وجودهم بين أوساط الشيعة. وفي حديث للإمام الصادق عليه السلام قال للمُفضّل بن مَزيد مشيراً في كلامه إلى أصحاب أبي الخطّاب والغُلاة: «**يا مُفضّل لا تقاعدوهم ولا تؤاكلوهم ولا تشاربوهم ولا تصافحوهم ولا تؤاثروهم**»[1]. وفي رواية عنه عليه السلام يقول: «**احذروا على شبابكم الغلاة، لا يفسدوهم، فإنّ الغلاة شرّ خلق الله يصغّرون عظمة الله ويدّعون الربوبيّة لعباده**»[2].

وكذلك دأب الإمام عليه السلام على رفض واستنكار عقائد الغلاة مستهدفاً بذلك إبعادهم عن المجتمع الشيعيّ، فحدّد عليه السلام كتاب الله باعتباره الميزان الّذي يميّز الحقّ عن الباطل.

ويقول الإمام عليه السلام في الغلاة: «**إن أمكنني الله من هؤلاء فلم أسفك دماءهم سفك الله دم وَلدي على يديَّ**»[3].

(١) اختيار معرفة الرجال، الشيخ أبو جعفر الطوسي: ٢/٥٨٦/ح٥٣٥، مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، قم، ١٤٠٤هـ.

(٢) الأمالي، الطوسي، م.س: ٦٥٠.

(٣) شرح إحقاق الحقّ، السيّد شهاب الدين المرعشيّ النجفيّ: ١٢/٢٣٦.

وكانـت مهدويّـة الإمام الباقـر عليه السلام من جملة ما تخرّصـت الغلاة في عهد الإمام الصادق عليه السلام، وقد استنكرها الإمام بشدّة. وطُرحت قضيّة نبوّة الأئمّة المعصومين من قبل الغلاة أيضاً، وردّ عليها الأئمّة عليهم السلام.

والموقـف الأهـمّ الّذي استطاع الإمام عليه السلام من خلالـه تعيين المسار الّذي ينبغي أن يسلكه الشيعة لإنقاذهم من التلوّث والانحراف هو تكفيره لقادة الغلاة وأتباعهم، وبذلك فصل بين خطّهم وخطّ شيعته.

حصار الإمام الصادق عليه السلام وشهادته

مرّ معنا فيما سبق أنَّ المنصور العبّاسيّ قد تدرّج في مواجهته للإمام عليه السلام في ثلاث مراحل كانـت آخرها مرحلة التصفية الجسديّة، حيث صعّد المنصور العبّاسـيّ من تضييقه علـى الإمام الصادق عليه السلام ومهّد لقتلـه، وقد أرسل عدّة مرّات يستدعي الإمام عليه السلام وفي كلّها كان يريد قتله.

وروى الفضـل بن الربيع عن أبيه أنّه قال: دعاني المنصور، ثمّ قال: إنّ جعفر بن محمّد يُلحد في سلطاني، قتلني اللّه إن لم أقتله.

وقـد صـرّح بذلك مـراراً وتكـراراً مفصحاً عن نوايـاه الخبيثة لقتـل الإمام الصـادق عليه السلام، حتّـى أقدم على الفتك بـه عليه السلام واغتياله سنـة ١٤٨هـ بدسّ السمّ إليه على يد عامله في المدينة.

ولمّا علم الإمام عليه السلام أنّ أجله قد حان أوصى بجميع وصاياه إلى ولده الإمام الكاظم عليه السلام، وكان منها تجهيزه وتكفينه والصلاة عليه، كما أنّه كان قد نصّبه إمامـاً مـن بعده لكنّه عهد بأمره أمام الناس إلـى خمسة أشخاص، حفاظاً على حياة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام، وكان المنصور يراقب الحدث.

يقـول أبـو أيوب الخوزيّ: بعث إلـيّ أبو جعفر المنصور في جـوف الليل، ولمّا

دخلت عليه قال لي: اكتب إلى والي المدينة، فكتبتُ صدر الكتاب ثمّ قال: اكتب: إن كان قد أوصى إلى رجل بعينه، فقدِّمه واضرب عنقه.

قال: فرجع الجواب إليه أنّه قد أوصى إلى خمسة أحدُهم أبو جعفر المنصور[1].

وهكذا انتهت حياة هذا الإمام العظيم الّذي نُسب إليه المذهب الجعفريّ. وقد دلّ على عظمته عظمة التراث الّذي خلّفه لنا حيث يشكّل أغنى تراث يتضمّن تفاصيل مذهب أهل البيت عليهم السلام، وبجهوده أخذ الكيان الشيعيّ يتكامل ويتلألأ في الأُفق يوماً بعد يوم وقرناً بعد قرن، حتّى يتوّج اللّه ذلك بقيام المهديّ من آل محمّد صلى الله عليه وآله وسلم.

خلاصة الدرس

- عاصر الإمام الصادق عليه السلام في أواخر حياته المنصور العبّاسيّ المعروف بالخداع وسفك الدماء واستولى على الحكم سنة ١٣٦هـ. وبالغدر تخلّص من أبي مسلم الخراسانيّ وعمّه عبد اللّه بن عليّ.
- لم يمارس الإمام عليه السلام أي نشاط مثير ضد العبّاسيّين، بل كانت مواقفه تجاه الخروج عليهم مصحوبة بالتحذير، ولكنّ هذا لم يمنع المنصور من التعبير عن مكنون حقده على الإمام ضمن ثلاث مراحل: مرحلة المرونة، مرحلة المراقبة، ومرحلة الفتك بالإمام عليه السلام. واتّخذ في المرحلة الثانية عدّة أساليب للوصول إلى هدفه هي:

١. أسلوب الدسّ في صفوف العلويّين وإغرائهم لجمع المعلومات عنهم.

(١) بحار الأنوار، م.س: ٣/٤٧.

٢. أسلوب التضعيف غير المباشر للإمام عليه السلام وإيجاد الفرقة بين تلامذته وأصحابه.

٣. أسلوب التحذير والتهديد المباشر للإمام عليه السلام.

- وقف الإمام عليه السلام من الغلاة موقفاً متشدّداً وصل إلى حدّ تكفيرهم، وتحذير أصحابه من معاشرتهم.

- صعّد المنصور العبّاسيّ من حصاره وتضييقه على الإمام الصادق عليه السلام إلى أن اغتاله بالسّمّ سنة ١٤٨هـ.



الدرس

الخامس عشر

مشكلة الإمامة والسلطة الحاكمة بعد الصادق عليه السلام



أهداف الدرس:

١. أن يتعرّف الطالب إلى بعض الفرق الضالّة عن خطّ الإمامة.

٢. أن يتبيّن مواجهة الإمام الكاظم عليه السلام للعقائد المنحرفة.

دعوى الإمامة بعد الإمام الصادق عليه السلام

إنّ الاختلافات الّتي ظهرت بين الشيعة كانت تنشأ عادة نتيجة تعيين الإمام اللّاحق؛ فالظروف السياسيّة كانت تحتّم أحياناً - وخاصّة بسبب الخوف من السلطات العبّاسيّة - بقاء شخص الإمام مجهولاً بالنسبة للكثير من شيعته، إذ إنّ ظهور إمامة أحد الأئمّة علناً على الملأ قد يعرّض الشيعة وإمامهم لضغط شديد من قبل الخلفاء.

وقد أدّى الكبت الّذي فرضه المنصور على العلويّين - ولا سيّما سيّدهم الإمام الصادق عليه السلام الّذي أحرز مقاماً سامياً في المجتمع - إلى حصول حالة من الاضطراب بين بعض الشيعة حول الزعامة الآتية. وقد ضاعف من قلق الشيعة قيام بعض أبناء الإمام الصادق عليه السلام - الّذين ادّعوا الإمامة زوراً - بالدعوة إلى أنفسهم واستقطاب بعض الشيعة حولهم. وقد مرّ معنا كيف أنّ الإمام الصادق عليه السلام عمد إلى التمويه على وصيّه فجعل المنصور العبّاسيّ - إضافة إلى ولديه الإمام الكاظم عليه السلام وعبد الله - وصيّاً له أيضاً.

فقد اتّبع الإمام الصادق عليه السلام سياسة حكيمة في تعيين وصيّه الإمام الكاظم عليه السلام وهذا ما أدّى إلى انفراط عقد الدعاوى الباطلة لإمامة بعض الأشخاص من قبل الفِرق الضالّة. وفي الإجراء الّذي قام به الإمام الصادق عليه السلام ووصيّته لخمسة أشخاص من بعده يظهر لنا مدى مراقبة المنصور لحركة أهل البيت عليهم السلام، ومدى دقّة الإمام الصادق عليه السلام وإدراكه لسياسة المنصور والحزب العبّاسيّ الحاكم، ومستوى التربية العلميّة والإيمانيّة من قبل الإمام الصادق عليه السلام لصحابته وخاصّة شيعته بحيث استطاع أن يرشدهم إلى الحقيقة المستترة وراء هذه الوصيّة.

ولبيان واقع الحال وانقسام الأمّة بعد الإمام الصادق عليه السلام، وارتباكها في تشخيص الإمام، ننقل ما ذكره النوبختيّ في فرق الشيعة[1] حول انقسام الشيعة إلى ستّ فرق بعد الإمام الصادق عليه السلام، وكانت كما يلي:

١. **الناووسيّة**: وهم القائلون بمهدويّة الإمام الصادق عليه السلام (وبالتالي عدم وجود إمام بعده).

٢. **الإسماعيليّة الخالصة**: الّذين يصرّون على أنّ إسماعيل لا زال حيّاً.

٣. **المباركيّة**: وهم الّذين يعتقدون بإمامة محمّد بن إسماعيل.

٤. **السمطيّة**: وهم المعتقدون بإمامة محمّد بن جعفر المعروف بالديباجة.

٥. **الفطحيّة**: وهم الّذين كانوا يعتقدون بإمامة عبد الله الأفطح ابن الإمام الصادق عليه السلام.

٦. **وبقيت فرقة أخرى**: اعتقدت بإمامة موسى بن جعفر عليهما السلام.

(١) فرق الشيعة، أبو محمّد الحسن بن موسى النوبختي، تعليق محمّد صادق بحر العلوم: ٧٧ـ٧٨. منشورات مكتبة الفقيه، قم، ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٩م.

عبد الله الأفطح ودعوى الإمامة

من المشاكل الّتي كانت تهدف لتمزيق الطائفة الشيعيّة وإثارة البلبلة والتخريب في صفوفها: التشكيك في مسألة القيادة بعد الإمام الصادق عليه السلام، فقد ادّعى الإمامة (عبد الله الأفطح) وهو الأخ الأكبر للإمام الكاظم عليه السلام بعد إسماعيل. وهذا بطبيعة الحال يُضيف معاناة أخرى للإمام، لأنّ أجهزة المنصور العدائيّة كانت تَعدّ عليه الأنفاس، وتشكّ في أيّ حركةٍ تصدر عنه في مجال تصدّيه للإمامة[1].

وفي مواجهة هذا الإدّعاء استخدم الإمام عليه السلام أسلوب المعجزة الّتي تميّزه عن عبد الله باعتباره إماماً مفترض الطاعة وذلك أمام جمع من خواصّ الشيعة مثبتاً بهذا الأسلوب لإمامته.

ويعلّل الكشّيّ سبب ذهاب الشيعة إلى القول بإمامة عبد الله الأفطح ابن الإمام الصادق عليه السلام بما روي عن الأئمّة عليهم السلام: «**الإمامة في الأكبر من ولد الإمام إذا مضى**». ثمّ إنّ منهم من رجع عن القول بإمامته لمّا امتحنه بمسائل من الحلال والحرام ولم يكن عنده فيها جواب[2].

الفرق الضالّة والخطّ البديل لأهل البيت عليهم السلام

من الأساليب الّتي استخدمتها السلطات العبّاسيّة للتعتيم على مرجعيّة أهل البيت عليهم السلام، وتضعيف دورهم العلميّ والفكريّ سياسة خلق البدائل العلميّة وتقويتها من خلال دعم السلطة لها؛ لتغطّي الفراغ الحاصل من عزل أهل البيت عليهم السلام وتؤيّد السياسة الحاكمة، فتوحي للأمّة بأنّه الخليفة على الخطّ الإسلاميّ وعلى نهج النبوّة. فالمنصور وجد (مالك بن أنس) ممّن تجاوب مع

(١) الكافي، م.س: ١/ ٢٨٥.

(٢) راجع: معجم رجال الحديث، السيّد الخوئي قدس سره: ١١/ ١٥٤.

سياسته، وهذا ما دفع بالمنصور إلى أن يفرض كتاب مالك (الموطّأ) على الناس بالسيف ثمّ جعل لمالك السلطة في الحجاز على الولاة وجميع موظّفي الدولة، فازدحم الناس على بابه وهابته الولاة والحكّام.

وحينما وفد الشافعيّ إلى مالك وتشفّع بالوالي لكي يسهّل له أمر الدخول عليه، قال له الوالي: لئن أمشي من المدينة إلى مكّة حافياً راجلاً أهون عليّ من أن أمشي إلى باب مالك. ولست أرى الذلّ حتّى أقف على بابه[١].

ثمّ إنّ الفرق الضّالة تنوّعت وانتشرت واستفحلت في عصر الإمام الكاظم عليه السلام، فبعضها كان يتحدّى الإسلام كمبدأ الزنادقة وبعضها كان ينتهي إلى مسخ العقيدة الإسلاميّة كالغلوّ والإرجاء والجبر.

وقد وجدت هذه الفرق جوّاً مساعداً للانتشار. وكلّها كانت تخدم الجهاز الحاكم بشكل أو آخر. ومن هنا كان الحكّام يسمحون لها بالتحرّك والنشاط.

الإمام الكاظم عليه السلام والعقائد المنحرفة عن أهل البيت عليهم السلام

كان ترك الامتثال للنصّ الإلهيّ على إمامة عليّ بن أبي طالب عليه السلام بداية للاختلافات اللاحقة الّتي حدثت في صفوف المسلمين. وقد طُرح الكثير من الآراء الّتي كانت تؤدّي بشكلٍ طبيعيّ إلى إثارة الاختلافات من قبل أصحاب السلطة، ومن ذلك مسألة إرث النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، ومسألة قتال مانعي الزكاة[٢].

وقد أدّى منع تدوين الحديث ونقله وتسرّب الثقافة اليهودية إلى أوساط المسلمين والتفسير المنحرف للدّين إلى توطيد أركان الحكم الأمويّ الفاسد، وإزاحة أهل البيت عليهم السلام عن الزعامة السياسيّة.

(١) الإمام الصادق والمذاهب الأربعة، م. س: ٣/ ١٨٠ ـ ١٨١.
(٢) الملل والنحل، م.س: ١/ ٣١.

وفي نهاية القرن الأوّل وحلول القرن الثاني الهجريّ، برزت إلى الوجود فرق دينيّة كان من أهمّها الخوارج والمرجئة والجهميّة والمعتزلة. وكان عامّة الناس على نهج ملوكهم وولاتهم يبحثون عن دين ينشره أمثال ابن شهاب الزهريّ، ومن قبله عروة بن الزبير، ومن قبله أبو هريرة، وسمرة بن جندب. إذ كان هؤلاء يعتقدون بوجوب إغواء الناس بواسطة الحديث، لأنّ الحديث كلام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ووضعه أمر سهل. ولهذا اتّسعت دائرة نقل الحديث بسرعة. وعلى الرغم ممّا أعلنه بعض أئمّة أهل السنّة من عدم تجاوز أحاديث النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم عن بضع مئات[1] فنحن نرى أن عددها تجاوز في أواسط القرن الثاني عشرات الآلاف، ثمّ تجاوز بعد مدّة يسيرة مئات الآلاف. وكانت أكثر الأحاديث الموضوعة في مجالَي الفقه والمسائل الكلاميّة.

وهكذا وُجد (مذهب أهل الحديث)، الّذين اعتبروا من سواهم خارجاً عن الدّين وهو المذهب الّذي ألّف الجاحظ كتاباً في تأييده ومساندته وأطلق عليه اسم «**العثمانيّة**» (حيث إنّ اسمه عثمان ولقّب بالجاحظ لجحوظ عينيه).

وكان أحد أوجه النشاط المتواصل لأئمّة الشيعة عليهم السلام هو التصدّي لهذه الأحاديث أو بعبارة أخرى لـ(أهل الحديث)، فكانوا يكشفون عن الأحاديث المحرّفة والموضوعة، وينبّهون في مواقف أخرى إلى عدم صحّة فهم الناس الساذج والسطحيّ لتفسير بعض الآيات المتشابهة والأحاديث.

ونحن نشير هنا إلى عدد من المواقف الفكريّة الّتي تخلّلت حياة الإمام الكاظم عليه السلام:

١. من الروايات الّتي تمسّك بها أهل الحديث وأكثروا من تناقلها، حديث

(١) راجع مقدّمة ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون: عبد الرحمن بن خلدون المغربي: ٤٤. دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ٤.

(نـزول الله إلى السماء الدنيا). فعـن أبي هريرة أنّ رسول الله ﷺ قال – نعوذ بالله من ذلك –: «**يتنزّل ربّنا تبارك وتعالى كلّ ليلة إلى السماء الدنيا حيـن يبقى ثلث الليل الآخـر يقول من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له**»[١]. وقبول هذه الرواية يستلـزم الاعتقاد بالتشبيه والقبول بتنقّل الله من مكانٍ لآخر– تعالى الله عن ذلك– وعمل أهل الحديث على نشر هذه العقيدة (وعلى رأسهم أحمد بن حنبل).

إنّ هـذه الروايـات لم توضـع في زمن أحمد بـن حنبل، بـل إنّ الكثير منها كان متـداولاً قبل ذلـك بين الناس. ولهـذا السبب نرى أصحـاب الأئمّة كثيراً مـا يسألـون الأئمّة عن هـذه الأحاديث، فقـد سُئل الإمـام الكاظم عليه السلام عن الحديـث الموضـوع حول نـزول الله تعالى، فقـال عليه السلام: «**... إنّ الله لا ينزل ولا يحتـاج إلـى أن ينـزل إنّمـا منظره في القرب والبعد سـواء، لـم يبعد منه قريـب، ولـم يقـرب إلـى مـن يحرّكـه أو يتحرّك به، فمـن ظنّ بـالله الظنون هلـك. فاحـذروا فـي صـفاته مـن أن تقفوا لـه على حـدّ تحدّونـه بنقص، أو زيـادة،أوتحـرّك...**»[٢].

٢. والمـورد الآخر الّذي كان يتمسّك أهـل الحديث بظاهره هو آية: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾[٣]. فهـؤلاء وبسبب عدم التفاتهـم إلى سائر الآيات، وعـدم استخدامهم للاستدلال والتعقّل، اعتقـدوا وبشدّة بنوع من الرؤية الظاهرية. ولما كان لديهم عدد من الأحاديث في باب التشبيه، فقد كان من الطبيعيّ أن يفسّروا نظير هذه الآيات على ضوء تلك الأحاديث.

---

(١) صحيح البخاري، م. س: ١٠١/٤.

(٢) الكافي، م.س: ١٢٥/١.

(٣) سورة طه، الآية: ٥.

وقد سُئل الإمام الكاظم عليه السلام عن معنى هذه الآية فأجاب: «... **استولى على ما دقّ وجلّ**»[1]. وورد العديد من الروايات المنقولة في تفسير البرهان عن الأئمّة عليهم السلام وهي كانت إجابات لتساؤلات أصحابهم أو أنّها كانت ردّاً على أهل الجدل.

٣. وفي جانب الجبر والتفويض التزم أهل الحديث بمذهب الجبريّة وكانوا يُظهرون تزمّتاً شديداً لهذه الفكرة في مقابل التطرّف الّذي كان يبديه أهل المعتزلة.

وعقيدة الجبر لها جذور في الجاهليّة، وبعد ظهور الإسلام نشرها معاوية وأمثاله، لأنّ هذا الاعتقاد يُعين الخلفاء على توطيد دعائم حكمهم ويبرّر لهم أخطاءهم، كما يردع الناس عن معارضتهم أو الاعتراض عليهم. وتمسّك أهل الحديث ببعض الآيات والروايات لإثبات صحّة معتقدهم.

وعندما سُئل الإمام الكاظم عليه السلام عن رواية تمسّك بها أهل الحديث لإثبات معتقدهم أجابكما في رواية الفضل بن شاذان الّذي قال: سألت أبا الحسن موسى بن جعفر عليه السلام عن معنى قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**الشقيّ من شقي في بطن أمّه والسعيد من سعد في بطن أمّه**» فقال عليه السلام: «**الشقيّ من علم الله وهو في بطن أمّه أنّه سيعمل أعمال الأشقياء والسعيد من علم الله وهو في بطن أمّه أنّه سيعمل أعمال السعداء**»[2].

هذا بالإضافة إلى غيرها من الروايات الواردة عنه عليه السلام، وفيها يوضح بطلان هذه النظرية، وإثبات نظريّة الأمر بين الأمرين.

٤. ومن الأمثلة الأخرى على الانحراف العقائديّ لدى المجتمع عقيدة

(١) الإحتجاج، م.س: ٢/١٥٧.

(٢) التوحيد، محمّد بن عليّ بن الحسين بن بابويه القمّي: ٣٥٦. منشورات جماعة المدرّسين في الحوزة العلميّة، قم.

المرجئـة عن الإيمان وماهيته. فالمرجئة كانـوا يعتقدون - ولأسباب قد تكون سياسيّة - بأنّ الإيمان هو مجرّد تصديق ذهنيّ لا علاقة له بالعمل، كما لا يؤثّر العمل في تقويته أو إضعافه.

وهـذا الاعتقاد يعنـي أنّ الإنسان المسلـم يبقى مؤمناً حتّـى إذا ارتكب أقبح الذنوب وخالف الشريعة.

وأمّـا أئمّـة الشيعة عليهم السلام فإنّهـم كانوا يؤكّـدون ومنذ البداية علـى الجوانب الذهنيّـة والقلبيّة والعمليّة للإيمان. وقد تصدّى الإمام الكاظم عليه السلام لمثل هذا الاعتقـاد الخاطئ وفنّده، فعندما سُئل في هذا الصدد قال: «**إنّ للإيمان حالات ودرجـات وطبقات ومنـازل، فمنه التامّ المنتهي تمامه، ومنه النـاقص المنتهي نقصانه، ومنه الزائد الراجح زيادته**»[1].

وفـي نفسـ الوقت ينبغي القـول إنّ أئمّـة الشيعة - ومن النـاحيـة الكلاميّة - يعتقـدون أنّ الإنســان المؤمن بالله ورسولـه يبقى مسلمـاً وإن ارتكب فسقاً، ولا ينقض ذلك إلّا إذا أنكر ضروريّاً من ضروريّات الإسلام.

الإمام الكاظم عليه السلام ما بين خلافة المنصور إلى الهادي

اقترنت إمامة الكاظـم عليه السلام بخلافة المنصور (المتوفّـى ١٥٨هـ) والمهديّ (المتوفّى ١٦٩هـ) والهادي (المتوفّى ١٧٠هـ) واستمرّت إلى زمان هارون الرشيد.

فـي عصـر المنصور قـام الإمـام عليه السلام ببعضـ الأنشطة وفقـاً لمقتضيات المصلحـة ومتطلّبات المرحلـة. وكان على رأس هذه الأعمـال التصدّي لإثبات إمامتـه من خلال إبرازه للقدرات الغيبيّة الّتـي زوّده الله بها، لأنّ الجوّ العامّ لم يُساعـد على تداول النصّ الخاصّ بالوصيّة إليه دون غيره. ثمّ إنّه ونظراً للخواء

(١) الكافي، م.س: ٣٨/٢.

الروحـيّ الناتج عن الانكباب على الحيـاة الماديّة وإشباع الغرائز بشكلٍ مفرط، والـّذي طغى على الحياة في تلـك المرحلة الزمنية بحيـث إنّ المنكرات شاعت وانتشـرت، فـإنّ الإمـام عليه السلام استطاع من خـلال اهتمامه بالجانـب المعنويّ والعباديّ أن يغيّر الواقع المنحرف ويخلق شخصيّات تتميّز بهذا الاتجاه المعنويّ والروحيّ وتكون ذات تأثير إيجابيّ في المجتمع.

ولمّا مات المنصور في سنة ١٥٨هـ استولى على الخلافة ابنه محمّد المهديّ وبويـع له في تلك السنة. وحاول المهديّ في بداية أمره أن يسلك أسلوباً مرناً مع العلويّيـن خلافاً لسياسة أبيه محاولاً بذلك تضليل الناس فأصدر عفواً عامّاً عن جميـع المسجونين، كما ردّ الأمـوال الّتي صادرها أبوه ظلمـاً وعدواناً، وردّ على الإمـام الكاظم عليه السلام ما كان صادره أبوه مـن أموال الإمام الصادق عليه السلام. إلّا أنّ الإمـام الكاظم عليه السلام كشف عن حقيقته عندما طالبه بإرجاع فدكٍ إليه بعد أن بيّن الإمام حدود فدك بقوله: «**حدّ منها جبل أحد، وحدّ منها عريش مصر، وحدّ منها سيف البحر، وحدّ منها دومة الجندل**»[1]. وبهذا أعلن الإمام عليه السلام أنّ جميـع أقاليم العالم الإسلاميّ قد أُخذت منهم وأنّ فدكَ هي رمز لاستحقاق أهل البيت لمنصب الخلافة.

وبعد أن ذاع صيت الإمام الكاظم عليه السلام ونشاطاته، استخدم المهديّ سياسة التشـدّد والتضييق عليه عليه السلام فاستدعاه إلى بغداد وحبسه في أحد سجونها ثمّ ردّه إلى المدينة، كما خطّط لقتله.

وشجّع المهديّ العبّاسيّ الوضّاعين في زمنه حتّى قاموا بدورٍ إعلاميّ تضليليّ منحرف، فأحاطوا السلاطين بهالة من التقديس زاعمين أنّهم يمثّلون إرادة اللّه في الأرض وأنّ الخطأ لا يمسّهم.

(١) بحار الأنوار،م.س: ١٥٦/٤٨، والكافي، م.س: ٥٤٣/١.

وأسرف المهديّ في صرف الأموال الضخمة للانتقاص من العلويّين والحطّ من شأنهم فتحرّك الشعراء والمنتفعون، وأخذوا يلفّقون الأكاذيب في هجاء العلويين. وشاع في عصر المهديّ اللهو وانتشر المجون وسادت الميوعة والتحلّل.

استغلّ الإمام عليه السلام فرصة انشغال الحاكم بأموره الخاصّة ليقوم بنشاط عامّ على مستوى الأمّة. وكان العقد الثاني من عصر الإمام الكاظم عليه السلام - المنطبق على السنوات العشر الّتي حكم فيها المهديّ - هو قمّة النشاط المكثّف للإمام عليه السلام. وأصبح له حضور فاعل في الساحة السياسيّة، وسمح لمجموعة من أصحابه أن يلتزموا بالحضور في الجهاز الإداريّ للدولة على الرغم من تحريمه التعامل والتعاون مع الجهاز الحاكم على عامّة شيعته ومواليه. وكان الإمام عليه السلام يهدف من ذلك إلى عدّة أمور ولتحقيق عدّة نتائج، منها:

الأوّل: الاقتراب من أعلى موقع سياسيّ، من أجل الإحاطة بالمعلومات السياسيّة وغيرها الّتي تصدر عن الحاكم.

الثاني: تحقيق مهمّة كبرى هي قضاء حوائج المؤمنين الشخصيّة من أجل الحفاظ على عوامل بقاء واستمرار الوجود الشيعيّ. وهذا كلّه كان مقروناً بالتثقيف السياسيّ لشيعته بحرمة التعامل مع الظالمين.

ومن هنا نلاحظ تبرّم عليّ بن يقطين وإصراره على ترك العمل لدى السلطان الظالم.

قال عليّ بن طاهر: استأذن عليّ بن يقطين مولاي الكاظم عليه السلام في ترك عمل السلطان، فلم يأذن له، وقال عليه السلام: «**لا تفعل فإنّ لنا بك أُنساً، ولإخوانك بك عزّاً، وعسى أن يجبر بك كسراً، ويكسر بك نائرة المخالفين عن أوليائه.**

يا عليّ: كفّارة أعمالكم الإحسان إلى إخوانكم. اضمن لي واحدة وأضمن

لك ثلاثة: اضمن لي أن لا تلقى أحداً من أوليائنا إلّا قضيت حاجته وأكرمته، وأضمن لك أن لا يظلّك سقف سجن أبداً، ولا ينالك حدّ سيف أبداً، ولا يدخل الفقر بيتك أبداً.

يا عليّ: من سرّ مؤمناً فبالله بدأ، وبالنبيّ ﷺ ثنّى وبنا ثلّث»[١].

وبعد وفاة المهديّ العبّاسيّ استولى على كرسيّ الخلافة موسى الهادي (ولده) سنة ١٦٩هـ، وتوفّي بعد ثلاثة عشر شهراً في ربيع الأوّل سنة ١٧٠هـ. وكان عمره ستّاً وعشرين سنة[٢].

وعلى الرغم من قصر المدّة الّتي حكم فيها الهادي إلّا أنّها تركت آثاراً سيّئة على الشيعة وتميّزت بحدث مهّم في تاريخهم، وهو واقعة فخّ الّتي قال عنها الإمام الجواد عليه السلام: «**لم يكن لنا بعد الطفّ مصرع أعظم من فخّ**»[٣].

أمّا الأسباب والنتائج لهذه الواقعة فهو ما سيكون موضوع البحث في الدرس القادم إن شاء الله تعالى.

خلاصة الدرس

- ظهرت على مسرح الأحداث بعد شهادة الإمام الصادق عليه السلام مشاكل عديدة في داخل الصفّ الموالي لأهل البيت عليهم السلام وأبرز هذه المشاكل هو الادّعاءات الّتي انطلق من خلالها بعض الناس لحرف مسار الإمامة عن صاحبها الحقيقيّ وهو الإمام الكاظم عليه السلام.

(١) بحار الأنوار، م.س: ٤٨/١٣٦.
(٢) تاريخ اليعقوبي، م.س: ٢/٤٠١-٤٠٧.
(٣) بحار الأنوار، م.س: ٤٨/١٦٥.

- انقسمت الأمّة في تشخيص الإمام بعد شهادة الإمام الصادق عليه السلام فظهرت بعض الفرق مثل الناووسيّة والإسماعيليّة والمباركيّة والسمطيّة والفطحيّة.
- استخدمت السلطات العبّاسيّة بعض الأساليب للتعتيم على إمامة ومرجعية أهل البيت عليهم السلام، وعملت على تقوية بعض القوى الضالّة والمنحرفة.
- تصدّى الإمام الكاظم عليه السلام من خلال نشاطه الفكريّ لأصحاب العقائد المنحرفة المتمثّلة بأهل الحديث الّذين أرسوا قواعد التشبيه والتجسيم عبر تمسّكهم بالظواهر.
- عاصر الإمام الكاظم عليه السلام خلافة المنصور العبّاسيّ ثمّ المهديّ الّذي شاعت في عصره المنكرات والاهتمام بشؤون الدنيا فاستغلّ الإمام الفرصة لنشر الوعي والثقافة في أوساط شيعته.
- عمل الإمام عليه السلام على الاقتراب من المواقع السياسيّة الحاكمة من خلال بعض أصحابه، وذلك بهدف قضاء حوائج المؤمنين ودفع البلاء والأذى عنهم.



الدرس

السادس عشر

الإمام الكاظم عليه السلام ومواقفه السياسيّة من الجهاز الحاكم



أهداف الدرس:

١. أن يتبيّن الطالب أحداث واقعة فخّ.

٢. أن يتعرّف إلى موقف الإمام الكاظم عليه السلام منها.

٣. أن يستذكر سياسة هارون العبّاسيّ ومعاملته للإمام عليه السلام.

تمهيد

ذكرنا سابقاً أنّ الفترة الّتي تولّى فيها الإمام الكاظم عليه السلام الإمامة كانت فترة عصيبة على الشيعة، سواء على مستوى تشكيل الوعي العقائديّ والارتباط بشخص الإمام الكاظم عليه السلام، نظراً لمضمون الوصيّة الّتي تركها الإمام الصادق عليه السلام وتعمّد فيها التمويه حذراً من العبّاسيّين فجعل أوصياءه خمسة أحدهم المنصور، أم لجهة الظلم والجور الّذي لحق بالناس عموماً والعلويّين خصوصاً. وهذا ما أدّى إلى نشوب العديد من الأحداث وعلى رأسها واقعة فخّ.

واقعة فخّ

نهض الحسين بن عليٍّ بن الحسن بن الحسن بن عليٍّ بن أبي طالب عليهم السلام وأعلن الثورة على الحاكم العبّاسيّ بسبب الاضطهاد والإذلال الّذي مارسه الخلفاء العبّاسيّون ضدّ العلويّين، واستبداد الخليفة الهادي على وجه الخصوص.

فقد عيّن الهادي ولاة قساة على المدينة مثل إسحاق بن عيسى بن عليّ الّذي استخلف عليها رجلاً من ولد عمر بن الخطّاب يُعرف بعبد العزيز، وكان ظالماً للرعيّة.

وقد بالغ هذا الأثيم في إذلال العلويّين وظلمهم فألزمهم بالمثول عنده كلّ يوم، وفرض عليهم الرقابة الشخصيّة، فجعل كلّ واحد منهم يكفل صاحبه بالحضور، وقبضت شرطته على كلّ من: الحسن بن محمّد بن عبد الله بن الحسن، ومسلم بن جندب وعمر بن سلام، وزعمت أنّها وجدتهم على شراب، فأمر بضربهم وجعل في أعناقهم حبالاً، وأمر أن يُطاف بهم في الشوارع ليفضحهم[١].

وفي سنة ١٦٩هـ عزم الحسين بن عليّ على الخروج وأخبر الإمام الكاظم عليه السلام بالأمر وطلب منه المبايعة، فقال له الإمام عليه السلام: «**يا ابن عمّ لا تكلّفني ما كلّف ابن عمّك أبا عبد الله الصادق** عليه السلام **فيخرج منّي ما لا أريد كما خرج من أبي عبد الله ما لم يكن يُريد، فقال له الحسين: إنّما عرضت عليك أمراً فإن أردته دخلت فيه، وإن كرهته لم أحملك عليه والله المستعان، ثمّ ودّعه**»[٢].

جمع الحسين أصحابه، فاجتمعوا ستّة وعشرين رجلاً من ولد عليّ عليه السلام وعشرة من الحاجّ وجماعة من الموالي. فلّما أذّن المؤذّن الصبح دخلوا المسجد ونادوا «أحدٌ أحدٌ»، وصعد عبد الله بن الحسن الأفطس المنارة، وأجبر المؤذّن على قول حيّ على خير العمل، وصلّى الحسين بالناس الصبح، وخطب بعد الصلاة وبايعه الناس. وبعد أن استولى على المدينة توجّه نحو مكّة، وبعد أن وصل إلى (فخّ)[٣] عسكر فيه وكان معه ٣٠٠ مقاتل، ثمّ لحقته الجيوش العبّاسيّة. وبعد قتال رهيب استشهد الحسين وأصحابه وأُرسلت رؤوس الأبرار إلى الطاغية، ومعهم الأسرى وقد قُيّدوا بالحبال والسلاسل ووُضع في أيديهم وأرجلهم الحديد، وأمر الطاغية بقتلهم فقُتلوا صبراً وصُلبوا على باب الحبس[٤].

---

(١) بحار الأنوار، م.س: ١٦١/٤٨.
(٢) الكافي، م.س: ٣٦٦/١.
(٣) فخّ: هو وادٍ بمكّة ـ معجم البلدان، الحموي: ٢٣٧/٢٤.
(٤) تاريخ الطبري، م.س: ٢٩/١٠.

نتائج الثورة وموقف الإمام الكاظم عليه السلام منها

انتهت الثورة باستشهاد الحسين وصحبه. وأخذ الخليفة الهادي يتوعّد من بقي حيّاً منهم، وذَكر الإمام الكاظم عليه السلام قائلاً: واللّه ما خرج حسين إلّا عن أمره (أي الإمام الكاظم عليه السلام) ولا اتّبع إلّا محبّته، لأنّه صاحب الوصيّة في أهل هذا البيت. قتلني اللّه إن أبقيت عليه[1].

وكتب عليّ بن يقطين إلى الإمام عليه السلام بصورة الأمر، فلمّا أصبح عليه السلام أحضر أهل بيته وشيعته فأطلعهم على ما ورد عليه من الخبر، وقال: «**ما تشيرون في هذا؟**» فقالوا: نُشير عليك ونحن معك أن تُباعد شخصك عن هذا الجبّار وتغيّب شخصك دونه.

فتبسّم عليه السلام وأقبل نحو القبلة ودعا بدعاء الجوشن الصغير المعروف الوارد عنه عليه السلام ثمّ قال: قد مات في يومه هذا واللّه ﴿إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ نَنطِقُونَ﴾[2].

قال الراوي: ثمّ قمنا إلى الصلاة وتفرّق القوم فما اجتمعوا إلّا لقراءة الكتاب الوارد بموت الهادي والبيعة للرشيد[3].

أمّا الموقف الحقيقيّ للإمام في هذه الثورة فقد ذكرنا سابقاً أنّه عليه السلام لم يكن يريد المواجهة المباشرة لنظام الحكم القائم. وقد صرّح للحسين بن عليّ عندما طلب منه المبايعة بموقفه من الثورة، وذكّره بموقف الإمام الصادق عليه السلام من ثورة محمّد ذي النفس الزكيّة، وسوف يكون موقفه كموقف أبيه عليه السلام. وقد صدر عن الإمام عليه السلام تأييدٌ ومساندة صريحة لحركة الحسين وثورته عندما

(١) بحار الأنوار، م.س: ٤٨/١٥٠-١٥٣.

(٢) سورة الذاريات، الآية: ٢٣.

(٣) بحار الأنوار، م.س: ٤٨/١٥٠.

عـزم عليهـا في قولـه عليه السلام: «**إنّك مقتـول فأحدّ الضـراب، فـإنّ القوم فسّـاق يُظهرون إيماناً ويُضـمرون نفاقاً وشـركاً...**»[1]. ولمّا سمع الإمام عليه السلام بمقتل الحسين بكاه وأبّنه ورثاه بكلمات منها: «.. **مضـى والله مسـلماً صـالحاً صـوّاماً قوّاماً، آمراً بالمعروف، وناهياً عن المنكر**»[2].

الإمام الكاظم عليه السلام وهارون الرشيد

عاصـر الإمام الكاظم عليه السلام هارون الرشيد لمدّة (١٤) سنة وأشهراً. وكانت هـذه السنوات من أشدّ المراحل في حياته. وقـد حفلت بالآلام، حيث صبّ فيها هـارون كلّ الحقـد الجاهليّ ضدّ أهل البيت عليهم السلام. واتّبـع بدهائه سياسة تميّز بهـا عمّن سبقه، والّتي كان مـن شأنها شلّ حركة الإمام عليه السلام، وعزله عن الأمّة تمهيداً لقتله فيما بعد.

مـن هنـا كان الإمـام عليه السلام قد انتهـج أساليـب أخرى مـن العمـل للمرحلة الجديدة.

أمّا الملامح العامّة لحكم هارون الرشيد وعهده فيمكن اختصارها بما يلي:

١. تقمّص الرشيد الخلافة وهو فـي عنفوان الشباب لم يذق محـن الأيّام ولم تصقلـه التجارب. وجاء إليه الحكم والملك بعد نجاح مؤامرة اغتيال الهادي والّتي اشتركت في تدبيرها خيزران (أمّه) ورئيس وزرائه يحيى البرمكيّ[3].

٢. استوسقـت له الأمور ونال من دنياه كلّ ما اشتهى، فامتدّ نفوذه في ساحة كبيـرة من المعمـورة حتّى أثر عنه خطابـه للسحاب: «**اذهبـي إلى حيث شئت يأتني خراجك**»[4].

(١) م.ن: ٤٨/١٦١.
(٢) م.ن: ٤٨/١٦٥.
(٣) تاريخ اليعقوبي، م.س: ٢/٤٠٦.
(٤) نقش خواتيم النبيّ والأئمة عليهم السلام، السيّد جعفر مرتضى:٥٨.

٣. جُبـي له الخراج من جميع الأقاليم الإسلاميّة، وأصبح بيت المال أضخم مستودع للمال في العالم، وأصبحت بغداد مستودع الثراء الفاحش.

٤. أوكل تدبيـر أمور الرعيّة إلى يحيى البرمكيّ، وأسند إليه جميع السلطات وانصرف هو إلى ملذّاته، حتّى أنفق قسماً كبيراً من الخزينة العامّة على الماجنين والمطربين والجواري.

٥. كان مولعاً بالغناء منذ حداثة سنّه؛ فقد نشأ بين أحضان المغنّيات واجتمع في قصره عدد كبير منهنّ حتّى جعل المغنّين طبقات، وأدمن على شرب الخمرة وألعاب القمار[1].

٦. فـي عهده عمّـت الدعارة وانتشـر المجون وتدهـورت الأخـلاق وأُقبرت الفضائل.

٧. ساس العلويّيـن بسياسة جدّه المنصور وهي سياسة العنف والجور، حتّى أقسـم على استئصالهـم قائلاً: «**والله لأقتلنّهـم ولأقتلنّ شـيعتهم**»[2]. وأقدم على هدم الدور المجـاورة لقبر الحسين عليه السلام وأمر بحرث أرض كربلاء ليمحو كلّ أثر للقبر الشريف[3].

٨. أصبح الاتّهـام بالزندقة وسيلةً للقضاء على خصـوم العبّاسيّين. وتعدّى الاتّهام لكلّ من يناقش أحاديث الصحابة أو يردّها، وبذلك استحلّوا إراقة دماء الشيعة. وكان المتّهم بالإلحاد تُقبل توبته بينما المتّهم بالولاء لأهل البيـت عليهم السلام كان يُحكم عليـه بالمروق من الدِّين. وبهـذا حُكم بالإعدام على الشيعة وزجّوا في غياهب السجون.

(١) الأغاني، م.س: ٥/٦٩ـ ٢٢٥.
(٢) م.ن.
(٣) الأمالي، الشيخ الطوسي، م.س: ٣٢٩.

٩. ظهرت مشكلة الخلاف في خلق القرآن عند ظهور أمر المعتزلة وانتشار أفكارهم، حيث أعلنوا القول بخلق القرآن بعد أن كان الجعد بن درهم قد ابتدع فكرة خلق القرآن في أواخر الدولة الأمويّة. وقد قتل الرشيد من كان يقول بذلك. وأخذت تتّسع هذه الظاهرة حتّى ساندها المأمون في عهده وحمل الناس بالقهر عليها.

١٠. جرت أعظم نكبة في التاريخ للبرامكة بعد أن كانت الدنيا بأيديهم يتمتّعون بلذائذها ونعيمها، فغزاهم الدهر بنكباته فصاروا من الذلّ والهوان بأقصى مكان فصودرت أموالهم، وقتل جعفر وقذف أبو يحيى البرمكيّ وباقي أسرته في ظلمات السجون، حتّى بلغ سوء حالهم أنّ من كان يذكر أيّامهم كان ينال العقوبة والعذاب.

سياسة الرشيد وأساليبه مع الإمام الكاظم عليه السلام

تسلّم هارون الرشيد زمام السلطة من العام ١٧٠هـ، وحتّى العام ١٩٣هـ. وتشير الروايات الواردة بشأن حياة الإمام الكاظم عليه السلام إلى المصاعب الّتي تعرّض لها على يد هارون الرشيد. وهذه المرحلة من حياة الإمام عليه السلام يمكن تقسيمها إلى قسمين:

١. مرحلة العلاقة بين الإمام عليه السلام وهارون الرشيد، وأساليبه مع الإمام عليه السلام.

٢. مرحلة القبض على الإمام عليه السلام وسجنه ومن ثمّ شهادته عليه السلام.

أمّا المرحلة الأولى فكانت سياسة الرشيد فيها محاولة شلّ حركة الإمام عليه السلام ونشاطه والاتّهام السياسيّ حيناً وأحياناً أخرى الإكرام والتعظيم نفاقاً وكذباً. فمن أساليب الرشيد الّتي كان يهدف منها إلى تخويف الإمام عليه السلام، اتّهامه بأعمال سياسيّة محظورة بنظر الخلافة، مثل جباية الخراج. وعن هذا الاتّهام يقول الإمام الكاظم عليه السلام: «**لمّا أُدخلت على الرشيد سلّمت عليه فردّ عليّ السلام ثمّ قال: يا**

موسى بن جعفر! خليفتان يُجبى إليهما الخراج؟

فقلت: **يا أمير المؤمنين أعيذك أن تبوء بإثمي وإثمك، وتقبل الباطل من أعدائنا علينا، فقد علمت أنّه قد كُذب علينا منذ قُبض رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بما علم ذلك عندك...»**[1].

ومنها اتّهام الإمام بانحرافات فكريّة، ومنها السخرية بالإمام عليه السلام حيث دعاه إلى مجلس فيه بعض السحرة الّذين حاولوا الاستهزاء به لكنّهم باؤوا بالفشل. وفي المقابل فإنّ مواقف الإمام عليه السلام من الرشيد لم تكن مواقف استسلاميّة لمخطّطه الّذي كان يهدف منه إلى إخضاع الإمام عليه السلام وتنازله لإرادة الرشيد، بل كانت مواقف يتحدّى بها خطط الرشيد، على الرغم من أنّ بعض المواقف للإمام عليه السلام قد أخذت طابعاً مرناً من الرشيد، وذلك لمعرفة الإمام به وبنواياه حيث راعى عليه السلام في مواقفه مصلحةً أهمّ.

ومن المشاهد الّتي تُعبّر عن حقيقة موقف الإمام عليه السلام من حكومة الرشيد ما ذكره محمّد بن طلحة الأنصاريّ حيث قال: كان ممّا قال هارون لأبي الحسن عليه السلام حين أُدخل عليه: ما هذه الدار؟ فقال عليه السلام: «**هذه دار الفاسقين، قال الله تعالى:** ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾[2].

فقال له هارون: فدار من هي؟ قال: «**هي لشيعتنا فَترة ولغيرهم فتنة**».

فقال: فما بال صاحب الدار لا يأخذها؟

فقال عليه السلام: «**أُخذت منه عامرة ولا يأخذها إلّا معمورة**».

(١) وسائل الشيعة، م.س: ١٤/ ٢٧٥.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٤٦.

قال: فأيـن شيعتك؟ فقرأ الإمـام عليه السلام : ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾[1].

قال: فقال له: فنحن كفّار؟ قال: **لا، ولكن كما قال الله**: ﴿الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾[2]»[3].

وفـي رواية أخرى أنّه لما دخل هارون الرشيد المدينة توجّه لزيارة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ومعـه النـاس، فتقـدّم الرشيد إلى قبر رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقال: السـلام عليك يا رسـول الله يـا بن العـمّ، مفتخراً بذلك علـى غيره، فتقدّم الإمـام عليه السلام فقال: «**السـلام عليك يا رسـول الله، السـلام عليك يا أبه**»، فتغيّر وجه الرشيد وتبيّن الغيظ فيه[4].

وأمّا في المجـال السياسيّ فقد قام الإمـام الكاظم عليه السلام بخطوات تربويّة تحصينيّـة لشيعته، مثل تأكيد الانتماء السياسيّ لخطّ أهل البيت عليهم السلام فشدّد علـى محبّيـه وشيعته وحـرّم عليهم التعـاون مع السلطـات العبّاسيّـة الظالمة (باستثنـاء بعضـ الحالات مثـل قضيّة علـيّ بن يقطيـن)، وموقفه عليه السلام مع صفـوان الجمّـال يكشف لنـا دقّة المنهـج التربويّ عنده مـع شيعته. فقد دخل صفوان بن مهران الأسديّ على الإمام الكاظم عليه السلام فقال له: «**يا صـفوان كلّ شـيء منك حسـن جميل ما خلا شيئاً واحداً**. قال: جلعت فداك أيّ شيء هو؟ **قـال** عليه السلام: **إكـراؤك جمالك من هـذا الرجل - يعني هارون الرشـيد** - قال: والله ما أكريته أشراً ولا بطراً، ولا للصيد، ولا للّهو، ولكن لهذا الطريق - يعني طريق مكّة - ولا أتولّاه بنفسي ولكن أبعث معه غلماني، **قال** عليه السلام: **يا صـفوان**

(١) سورة البيّنة، الآية: ١.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٢٨.

(٣) بحار الأنوار، م.س: ٤٨/١٥٦.

(٤) م.ن: ٤٨/١٠٣.

أيقع كراؤك عليهم؟ قال: نعم جُعلت فداك، **قال: أتحبّ بقاءهم حتّى يخرج كراؤك؟** قال: نعم، **قال**عليه السلام: **من أحبّ بقاءهم فهو منهم، ومن كان منهم كان وارداً النار**».

فقام صفوان من وقته فباع جماله وأعرض عن مهنته، فبلغ ذلك هارون الرشيد فأرسل خلفه، فلمّا مثل عنده قال له وهو يتميّز من الغيظ: قل يا صفوان: بلغني أنّك بعت جمالك، قال: نعم، قال: ولِمَ؟ قال: أنا شيخ كبير، وإنّ الغلمان لا يقدرون على الأعمال، قال: هيهات إنّي لأعلم من أشار عليك بهذا، أشار عليك موسى بن جعفر، قال: مالي ولموسى بن جعفر؟ قال: دع عنك هذا، فواللّه لولا حُسن صحبتك لقتلتك[1].

وفي الوقت الّذي أكّد الإمام عليه السلام فيه على الالتزام بمبدأ التقيّة نشط عن طريق أصحابه بالنفوذ في الجهاز الحاكم وتصدّر أصحابه مواقع سياسيّة مهمّة في الحكومة العبّاسيّة، ومن هؤلاء: عليّ بن يقطين الّذي تولّى المناصب المهمّة في الدولة مثل ولاية الأهواز وكان عوناً للمؤمنين، وحفص بن غياث الكوفيّ، ولي القضاء ببغداد، وعبد اللّه بن سنان بن طريف، وكان خازناً للمنصور والمهديّ والهادي والرشيد، والفضل بن سليمان الكاتب البغداديّ، كان يكتب للمنصور والمهديّ، والحسن بن راشد مولى بني العبّاس كان وزيراً للمهديّ وموسى الهادي وهارون الرشيد، وكان هؤلاء من أصحاب الإمام موسى الكاظم عليه السلام ورواة حديثه.

(١) رجال النجاشي، الشيخ أحمد بن عليّ النجاشي: ١٤٦، مؤسسة النشر الإسلامي، قم المقدّسة، ط ٥، ١٤١٦هـ.

الإمام الكاظم عليه السلام في سجون هارون الرشيد

وهي المرحلة الثانية من حياة الإمام الكاظم عليه السلام في عهد هارون الرشيد.

وبعد زيارة الرشيد لقبر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أمر الطاغية باعتقال الإمام عليه السلام فألقي القبض عليه عليه السلام وهو قائم يصلّي عند رأس جدّه النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم. وحُمل عليه السلام على جملٍ إلى البصرة حيث حبسه عيسى بن أبي جعفر في بيت من بيوت المحبس. ولمّا شاع خبر اعتقاله عليه السلام وعلم الناس مكانه أوعز الرشيد إلى عيسى يطلب منه فوراً القيام باغتيال الإمام عليه السلام، فثقل الأمر على عيسى وكتب إلى الرشيد رسالة يطلب فيها إعفاءه عن ذلك، فأمر الرشيد بحمله عليه السلام إلى بغداد وأمر الفضل بن الربيع باعتقاله فأخذه الفضل وحبسه في بيته. ولمّا طالت مدّة الحبس دعا الإمام عليه السلام ربّه بتخليصه من السجن، فاستجاب الله تعالى دعاءه وأنقذه من سجن الطاغية وأطلقه في غلس الليل. وكانت مدّة مكث الإمام عليه السلام في سجن الفضل طويلة، وكان هذا هو الاعتقال الأوّل.

ولمّا شاع ذكر الإمام عليه السلام وانتشرت فضائله ومآثره في بغداد، ضاق الرشيد من ذلك، وخاف منه فاعتقله ثانية وأودعه في بيت الفضل بن يحيى، الّذي امتنع أيضاً عن اغتيال الإمام عليه السلام ورفض طلب هارون لمّا رأى الإمام عليه السلام وإقباله على الله تعالى. فعندئذٍ أمر هارون بالفضل فجُرّد، ثمّ ضربه مائة سوط وخرج متغيّر اللون بخلاف ما دخل، فذهبت قوّته وجعل يسلّم على الناس يميناً وشمالاً.

ونُقل الإمام عليه السلام بعد ذلك وبأمر من هارون إلى سجن السنديّ بن شاهك وأمره بالتضييق عليه، وأن يقيّد الإمام عليه السلام بثلاثين رطلاً من الحديد ويقفل الباب في وجهه ولا يدعه يخرج إلّا للوضوء.

فاستجاب هذا الأثيم لذلك، وقابل الإمام عليه السلام بكلّ قسوة وجفاء والإمام صابر محتسب إلى الله سبحانه.

ووكّل السنديّ بالإمام عليه السلام بشّاراً مولاه، وكان من أشدّ الناس بغضاً لآل أبي

طالــب، ولكنّه لم يلبث أن تغيّر حاله وتــاب إلى طريق الحقّ لِمَا رأى من كرامات الإمام عليه السلام، ومعاجزه[1].

وذهب أكثر المؤرّخين إلى أنّ الرشيد أوعز إلى السنديّ بن شاهك الأثيم بقتل الإمام عليه السلام، فعمد السنديّ إلى رُطب فوضع فيه سمّاً قاتلاً وقدّمه للإمام عليه السلام فأكل منه الإمام عليه السلام وسرى السمّ في جسده وأخذ يعاني آلاماً شديدة. وبعد أن وصل السمّ إلى جميع أجزاء بدن الإمام عليه السلام فارق الحياة وأظلمت الدنيا لفقده وأشرقــت الآخرة بقدومه، وكانت شهادتــه عليه السلام سنة (١٨٣هـ) وعمره الشريف يوم وفاته خمس وخمسون سنة.

خلاصة الدرس

- حصلت في مرحلة إمامة الإمام الكاظم عليه السلام ثورات عدّة كان من أهمّها ثــورة الحسيــن بن عليّ بــن الحسن المثنّى بــن الحسن بن علــيّ بن أبي طالب عليه السلام. وكان من أسبابها الاضطهاد والإذلال الّذي مارسه الخلفاء العبّاسيّون ضد العلويّين واستبداد الخليفة الهادي على وجه الخصوص.
- أسفرت هذه الثورة الّتي عرفت بـ (واقعة فخّ) عن استشهاد الحسين ومن معــه، وكان الإمــام الكاظم عليه السلام قد حــذّر الحسين مــن أن نهاية الثورة ستكون كذلك.
- عاصر الإمــام الكاظم عليه السلام هــارون الرشيد وكانت هــذه المرحلة الّتي دامت حوالى (١٤ سنة) من أشدّ المراحل في حياته عليه السلام.
- تميّــزت شخصيّة هارون بعدّة أمور منهــا: اتّساع نفوذه لساحة كبيرة من المعمــورة، إيكال تدبيــر أمور الرعيّة إلى يحيى البرمكــيّ وانصرافه إلى

(١) بحار الأنوار، م.س: ٤٨/ ٢٤١.

ملذّاته وشهواته، ومعاملته العلويّين بالظلم والاضطهاد.

- استعمل الرشيد مع الإمام عليه السلام أساليب متعدّدة هدف منها إلى شلّ حركته عليه السلام ونشاطه، وتخويفه عليه السلام واتّهامه بأعمال سياسيّة محظورة، وفي مقابل ذلك استطاع الإمام عليه السلام مواجهة الرشيد والقضاء على جميع مخطّطاته.
- اعتُقل الإمام عليه السلام في زمن هارون مرّتين، تنقّل خلالهما بين عدّة سجون كان آخرها سجن السنديّ بن شاهك، الّذي دسّ السمّ في طعام الإمام عليه السلام واستُشهد عليه السلام بسبب ذلك.



الدرس

السابع عشر

المرجعيّة الفكريّة والسياسيّة للإمام الرضا عليه السلام



أهداف الدرس:

١. أن يتبيّن الطالب الحركة العلميّة أيّام الإمام الرضا عليه السلام.

٢. أن يتبيّن الوضعين الأخلاقيّ والسياسيّ زمن الإمام الرضا عليه السلام.

٣. أن يعدّد بعضاً من الثورات في عصر الإمام الرضا عليه السلام.



الحركة العلميّة والفكريّة أيام الإمام الرضا عليه السلام

فــي القرن الثاني الهجريّ الّذي عاش فيه الإمام عليّ بن موسى الرضا عليه السلام اتّسعــت الحركــة العلميّة، ونشــط البحث والتأليــف والتدويــن وتصنيف العلوم والمعارف، ونشأت المدارس والتيّارات الفلسفيّة والفكريّة، وبدأت حركة الترجمة والنقــل من اللّغــات المختلفة، وازدحمــت المدارس وحلقات الدرســ بالأساتذة والطــلّاب الذين تناولوا مختلف العلوم. وقد ازدهرت هذه الحركة العلميّة بشكل خاصّ أيّام الرشيد والمأمون.

وقد ولد الإمام الرضا عليه السلام أيّام أبي جعفر المنصور، وعاصر من خلفاء بني العبّاســ المهديّ والهادي والرشيد والأمين والمأمون. وقد كانت هذه الفترة من أغنى فتــرات الفكر والثقافة الإسلاميّة، ففيها عاش مؤسّسو المذاهب الفقهيّة، أمثــال الشافعيّ ومالك بن أنس وأحمد بــن حنبل وأبي حنيفة، وفقهاء وأصحاب آراء مختلفة أمثال أبي يوسف القاضي وسفيان الثوريّ ويحيى بن أكثم، وغيرهم مــن أصحاب العلوم والمعارف الشرعيّة والعقليّة، كالأصمعيّ ومحمّد بن الهذيل العلّاف المعتزلــيّ والنظّام إبراهيم المعتزليّ. ونشطــت مذاهب الفلسفة وعلم الكلام.

وكان الإمــام الرضا عليه السلام مفزع العلماء وملجأ أهــل الفكر والمعرفة، يُناظر علمــاء التفسير ويحاور أهل الفلسفة والكلام ويردّ على الزنادقة والغلاة، ويُثبّت قواعد الشريعة وأصول التوحيد.

وساعــدت السلطة العبّاسيّة على إيجاد الأفــكار والتيّارات المنحرفة كادّعاء النبــوّة، وأطلقت الحريّة للديانــات المحرّفة، ولتيّارات الغلوّ والوقف رغبة منهم في إطفاء نور أهل البيت عليهم السلام.

ومــن الأمثلة على ذلك انتشار الإفتاء بالرأي والفتــاوى التابعة لأهواء الحكّام ورغباتهــم، وتفسير القرآن بالرأي، ورواج القيــاس المذموم القائم على الظنون والأهــواء، حتّى قام أحد الفقهاء المعروفين بتحليــل وطء هارون لجارية كان قد وطأهــا أبوه من قبل، وقال له: يا أميــر المؤمنين أوكلّما ادّعت أمَة شيئاً ينبغي أن تُصدّق؟ لا تصدّقها فإنّها ليست بمأمونة. وحلّل له وطء جارية قبل الاستبراء، وقال له: تهبها لبعض ولدك ثمّ تتزوّجها[1]. كما وأشغل الحكّامُ الناس بالجدال والنقاش العقيم، فشجّع هارون على القول بِقدَم القرآن، وقام بقتل من يقول خلاف ذلك، وحينمــا سئل عن رجل مقتول بين يديه أجاب: قتلتــه لأنّه قال: القرآن مخلوق[2]. وتغيّــر الرأي في عهد ابنه عبد الله المأمون، فناقض والده في رأيه، وأشاع القول بخلق القرآن، وقام بسجن وتعذيب أحمد بن حنبل لقوله بِقِدَم القرآن.

المرجعيّة الفكريّة للإمام الرضا عليه السلام

شــكّل الإمام الرضا عليه السلام في مقابل المحــاولات العبّاسيّة مرجعيّةً فكريّة ودينيّــة للأمّــة. وأصبح محــطّ أنظار الفقهــاء، ومهوى أفئدة طــلّاب العلم.

(١) تاريخ الخلفاء، م.س: ٢٣٣.

(٢) تاريخ ابـن كثير، البداية والنهاية، أبو الفداء، إسماعيل بن عمر بـن درع القرشي، البصروي، الدمشقي: ٢١٥/١٠. دار الفكر، بيروت، ١٣٩٨هـ-١٩٧٨م.

وكان عليه السلام يقول: «**كنت أجلس في الروضة، والعلماء بالمدينة متوافرون، فإذا أعيى الواحد منهم عن مسألة أشاروا عليّ بأجمعهم، وبعثوا إليّ بالمسائل فأجبت عنها**»[١].

وكشف عليه السلام وسائل التآمر الفكريّ الّتي تؤدّي إلى بلبلة عقول المسلمين، وأعطى قاعدة كلّية في الأساليب والممارسات الّتي يستخدمها أعداء أهل البيت عليهم السلام لتشويه المفاهيم الإسلاميّة، فقال عليه السلام: «**إنّ مخالفينا وضعوا أخباراً في فضائلنا وجعلوها على ثلاثة أقسام:**

أحدها: الغلوّ، وثانيها: التقصير في أمرنا، وثالثها: التصريح بمثالب أعدائنا. فإذا سمع الناس الغلوّ فينا كفّروا شيعتنا، ونسبوهم إلى القول بربوبيّتنا، وإذا سمعوا التقصير اعتقدوه فينا، وإذا سمعوا مثالب أعدائنا بأسمائهم؛ ثلبونا بأسمائنا»[٢].

ولذا وضّح الإمام عليه السلام أنّ جميع الأفكار المنحرفة هي من وضع المخالفين لأهل البيت عليهم السلام لتشويه سمعتهم، وتحجيم دورهم في إصلاح الأوضاع على النهج الإسلاميّ الصحيح.

كما قام عليه السلام بخطوات عمليّة للردّ على جميع ألوان الانحراف الفكريّ والتشريعيّ من أجل كسر الإلفة والأنس بين أتباعها وبينها، وردّ على أفكار المشبِّهة والمجسِّمة والمجبِّرة والمفوِّضة، وفنّد أفكار الغلاة والزنادقة، وعقائد اليهود والنصارى، وردّ على أصحاب القياس، وعلى الإفتاء والتفسير بالرأي.

(١) إعلام الورى بأعلام الهدى، م.س: ٢/ ٦٥.
(٢) التوحيد، م. س: ٩٥.

الوضع الأخلاقيّ في عصر الإمام الرضا عليه السلام

ساهم الانحراف الأخلاقيّ للحكّام العبّاسيّين وابتعادهم عن المنهج الإسلاميّ في انتشار الفساد عند الأمّة، ومن مظاهر هذا الانحراف:

١. **اللّهو واللّعب:** كان هارون الرشيد أوّل حاكم لعب الشطرنج، ورمى النشّاب. وكان يُجري سباق الخيل. ولمّا وصل ابنه محمّد الأمين إلى قمّة السلطة أمر ببناء مجالس لمنتزهاته، ومواضع خلواته ولهوه ولعبه وأنفق في بنائها أموالاً عظيمة، وتابع المأمون أباه وأخاه في اللهو واللعب.

٢. **الولع بالغناء وبالجواري:** لم يكترث الحكّام لما تتعرّض له الدولة والأمّة من مخاطر ومؤامرات، ولم يكن من همّهم تحصين الإسلام، فكان هارون من المولعين بالغناء حتّى جعل المغنّين مراتب وطبقات. وفي الوقت الّذي كان يموت فيه آلاف الجنود لم يكن يكترث لذلك، ولا يؤلمه كثرة القتلى والمعوّقين بل يؤلمه موت جارية من جواريه، فيرثيها بأبيات شعريّة. وكان الأمين يأمر بفرش ساحة مفتوحة بأفخر الفراش، وتهيئة أوانٍ من الذهب والفضّة مع الجواهر، ثمّ يأمر قَيّمة جواريه بأن تُهيّىء له مائة جارية، يصعدن إليه عشراً عشراً بأيديهنّ العيدان، يغنّين بصوت واحد[1].

٣. **شرب الخمر:** استطاع الحكّام العبّاسيّون الحصول على فقهاء يبرّرون لهم سماع الغناء والولع بالجواري. ولكن من أين لهؤلاء الفقهاء أن يُفتوا بحلّيّة شرب الخمر الّذي تُعتبر حرمته من الثوابت في الشريعة؟ وعلى الرغم من ذلك نجد هؤلاء الحكّام يجاهرون علناً بهذه المعصية ويشربون الخمر،

(١) الكامل في التاريخ، م.س: ٦/٢٩٥.

فكان هارون مدمناً على شرب الخمر وكان يتولّى بنفسه سقاية ندمائه[١].

وهكذا كان ولداه الأمين والمأمون.

٤ . **الانحرافات في مجالس الحكّام:** لم يكن غريباً على الحكّام العبّاسيّين الّذين تولّوا الحكم دون سابقة علم وتقوى، ودون مؤهّلات فكريّة وخُلقيّة أن يتعدّوا حدود اللّه تعالى، ويرتكبوا المحرّمات في مجالسهم، فقد كان هارون يستمع إلى ألفاظ الفحش، بل يضحك تشجيعاً لقائلها، وفي مجلسه كانت تمارس أمور مصحوبة بالألفاظ البذيئة. ولم يكتفِ بذلك وإنّما كان يهب لمرتكبيها مالاً[٢] من بيت مال المسلمين. وأمّا ابنه الأمين فهو - كما يصفه ابن الأثير: لم نجد في سيرته ما يُستحسن ذكره، من حلم أو معدلة أو تجربة، حتّى نذكرها[٣].

وفي مجالس المأمون كان يكثُر الغزل المباشر.

٥ . **الممارسات المنحرفة لأتباع الحكّام:** كان المقرّبون للحكّام والولاة في بغداد والكرخ يُظهرون الفسق، ويختطفون الغلمان والنساء علانية من الطرق. وكان الطبريّ بعد ذكره لمثل هذه الممارسات يقول: «**لا سلطان يمنعهم، ولا يقدر على ذلك منهم، لأنّ السلطان كان يعتزّ بهم وكانوا بطانته**»[٤].

وهذا الانحراف لم ينحصر في البلاط الحاكم، وإنّما امتدّ إلى جميع من يرتبط بالبلاط، وانعكس أثره على الأمّة لوجود المقتضي وهو تشجيع الحكّام للانحراف.

(١) حياة الإمام عليّ بن موسى الرضا عليه السلام، باقر شريف القرشي: ٣/ ٢٢٤.

(٢) تاريخ الطبري، م.س: ٨/ ٣٤٩ و٣٥٠.

(٣) الكامل في التاريخ، م.س: ٦/ ٢٩٥.

(٤) تاريخ الطبري،م.س: ٨/ ٥٥١ و٥٥٢.

الوضع السياسيّ في عصر الإمام الرضا عليه السلام

يُمكن تقسيم الوضع السياسيّ للمرحلة الّتي عاشها الإمام عليّ بن موسى الرضا عليه السلام إلى مرحلتين:

الأولى: مرحلة حكم المهديّ والهادي والرشيد؛ وكانت مرحلة قاسية صعبة على أتباع أهل البيت عليهم السلام وعلى إمامهم موسى بن جعفر أبي الإمام الرضا عليهما السلام. فقد عاش الإمام الرضا عليه السلام هذه المرحلة الصعبة في كنف أبيه، وكان يشاهد بأمّ عينه محنة أبيه الإمام الكاظم عليه السلام وهو يُنقل من سجن إلى سجن، حتّى شهد نهاية المحنة باستشهاد والده، وما حصل في واقعة فخّ ومذبحة أهل البيت فيها واستشهاد الحسين بن عليّ بن الحسن، ومطاردة العلويّين وهدم دورهم ومصادرة أموالهم وإدخالهم السجون.

كما أنّ الإمام الرضا عليه السلام لم يسلم من ظلم العبّاسيّين، فكذلك لم تسلم كافّة طبقات الأمّة، لهذا نشاهد ثورات العلويّين تمتدّ في بلاد الديلم وخراسان والأهواز والبصرة والكوفة والمدينة ومكّة وأفريقيا واليمن وغيرها من البلدان الإسلاميّة. وبرزت إلى العلن مواقف واضحة جليّة لدى أئمّة المذاهب ووجوه المجتمع، ورجال السياسة وكلّها تظهر التأييد لأهل البيت عليهم السلام.

وأمّا المرحلة الثانية: مرحلة الصراع على السلطة؛ فقد عهد الرشيد في حياته بولاية العهد وتقسيم السلطة والملك بين أبنائه الثلاثة الأمين والمأمون والقاسم، وجعل الخلافة بينهم الواحد تلو الآخر ابتداءً من الأمين فالمأمون فالقاسم. وحدّد لكلّ منهم دائرة نشاطه وإدارته وحدود تصرّفه؛ فأعطى الأمين ولاية العراق والشام حتّى آخر المغرب، وأعطى المأمون من همدان إلى آخر المشرق، وأعطى القاسم الّذي سمّاه المؤتمن الجزيرة والثغور والعواصم[1].

(١) الكامل في التاريخ، م.س/٦/٢٣.

وما أن انتهت حياة الرشيد وانتقلت السلطة للأمين واستقرّ به الملك والسلطان حتّى أقنعه بعض خواصّه بأن يخلع أخاه المأمون ويسحب منه ولاية العهد، ويجعل الخلافة من بعده لابنه موسى (ابن الأمين). وراح يهيّىء لنقل الخلافة لولده موسى ويدعو له على المنابر، وطلب من المأمون أن يؤيّد هذا القرار فرفض ذلك وتمرّد على خلافة الأمين وأعلن خلعه والتحلّل من بيعته، وراح يعدّ ويُهيّئ للحرب والصدام المسلّح مع أخيه الأمين.

وبدأ الأمين شنّ الحرب على المأمون فأرسل عليّ بن عيسى أحد قوّاده لقتال المأمون في خراسان. وبدأت الحرب ونشب الصراع فانهزم عليّ بن عيسى أمام طاهر بن الحسين قائد جيوش المأمون. وتقدّم طاهر بن الحسين وزحف نحو بغداد فحاصرها مدّة سنة ونصف تقريباً واضطرّ الأمين للتسليم بعد حربٍ دمويّة رهيبة ودمار اقتصاديّ ومدنيّ مروّع، فسقطت بغداد مقرّ خلافته واستسلم لطاهر بن الحسين فقتله ولم يقبل له عذراً، وحمل رأسه إلى خراسان، وسلّم الرأس إلى المأمون. وهكذا انتهى حكم الأمين بعد أن دام أربع سنوات وعدّة شهور. وخضعت الدولة العبّاسيّة خلال هذه الفترة لهزّات واضطرابات وصراع دمويّ وسياسيّ وإنهاك اقتصاديّ عنيف، فاستغلّ العلويّون هذا الوضع السياسيّ المضطرب وتلك الظروف المؤاتية بعد أن ضاق عليهم الخناق طول الفترة العبّاسيّة المنصرمة، وقاموا بثورات وانتفاضات عدّة.

الثورات والانتفاضات في عصر الإمام الرضا عليه السلام

أدّت سياسة الاضطهاد الّتي مارسها العبّاسيّون إلى التحرّك المسلّح، وإعلان الثورات. وكان طبيعيّاً أن يستثمر العلويّون فرصة ارتباك السلطة واضطراب الأوضاع للقيام بالثورة على السلطة، وكان من أبرز هذه الثورات:

١. ثورة (ابن طباطبا) محمّد بن إبراهيم بن إسماعيل بن الحسن بن

الحســن بن عليّ بن أبي طالب، وبدأت سنة ١٩٩هـ. في العراق في مدينة الكوفـة، حيـث أنصــاره وأتباعه، وكان قائــده الّذي تولّى شــؤون الجيش وإدارة المعركـة هـو (أبـو السرايا) الســريّ بن منصــور الشيبانيّ. وتمّ الاستيــلاء على الكوفة، وضُربـت الدراهم بغير سكّـة العبّاسيّين، فوجّه العبّاسيّــون إليه جيشــاً قوامه عشرة آلاف مقاتل واستطــاع الثوّار التغلّب عليــه. وإثر وفاة ابن طباطبا بعد هذه المعركة جرت عدّة معارك انتصر فيهــا أبــو السرايا إلى أن هزمه العبّاسيّون فــي سنة (٢٠٠هـ)، حيث قُتل وحُمـل رأسه إلى المأمــون ونُصبت جثّته على جسر بغـداد بعد أن دامت حركته مدّة عشرة أشهر فقط.

٢. ثــورة إبراهيم ابن الإمــام موسى بن جعفر عليه السلام: انفجــرت هذه الثورة إثــر قيام ثورة أبي السرايا وابن طباطبا حيث تحرّك إبراهيم نحو اليمن ومنها انطلق بالثورة بعد أن استولى عليها.

٣. ثــورة محمّد ابــن الإمام الصــادق عليه السلام: انطلقت من المدينـة المنوّرة وبايعــه أهلها. ويُذكر أن سبب هذه الثورة أنّ رجلاً كتب كتاباً في أيام أبي السرايــا يسبّ فيه فاطمة الزهــراء عليها السلام، وكان محمّد بن جعفر معتزلاً تلـك الأمور لــم يدخل في شيء منها، فجاء الطالبيّــون فقرأوه عليه، فلم يــردّ عليهم جوابــاً حتّى دخل بيته، فخــرج عليهم وقد لبســ الدرع وتقلّد السيــف، ودعا إلى نفسه، وتسمّــى بالخلافة، وتوفّي محمّد بن جعفر أيّام خلافة المأمون.

٤. ثورة العبّاس بن محمّد بن عيسى الجعفريّ: انطلقت من البصرة.

٥. ثورة الحسين بن الحسن الأفطس: انطلقت من مكّة.

٦. ثورة إسماعيل بن موسى بن جعفر: انطلقت من بلاد فارس.

وغيرها من الثورات الّتي أطلقها العلويّون وألهبوا فيها أرجاء الدولة العبّاسيّة، ورفعوا رايات الجهاد. وكان لهذه الثورات أثر كبير في اهتزاز الأوضاع الداخليّة وإرباك المواقف العسكريّة والسياسيّة.

لكنّ الإمام الرضا عليه السلام لم يتحرّك ولم يشارك بواحدةٍ منها، مع ما له من مقام سياسيّ ومكانةٍ اجتماعيّة مرموقة، لأنّه كان يعلم ما ستنتهي إليه هذه الثورات، كما كان موقف آبائه الكاظم والصادق والباقر عليهم السلام. إلّا أنّ هذا لا يعني عدم ممارسة الإمام الرضا عليه السلام لمهامه القياديّة، فإنّ الوقائع والأحداث تشير إلى أنّه كان يتحرّك بشكلٍ سرّيّ، ويوجّه الثوّار، ويعطيهم النصائح وما شاكل ذلك.

ومن هنا أوجد المأمون العبّاسيّ مشروعاً سياسيّاً لتطويق الإمام الرضا عليه السلام، وهو مبايعته عليه السلام بولاية العهد والخلافة ومن بعده، باعتباره الإمام من أهل بيت النبوّة، والقائد البارز والسيّد العَلَم في عصره. ولم يكن هذا الأمر من المأمون إلّا عن حيلة ودهاء أراد من خلاله أن يُسكت الأصوات المعارضة لحكمه، وأن يُخرج نفسه من الأزمة السياسيّة الّتي أحاطت به.

الإمام الرضا عليه السلام وولاية العهد

في سنة ٢٠٠هـ وبعد عامين من سيطرة المأمون على زمام السلطة كتب إلى الإمام الرضا عليه السلام يدعوه للقدوم إلى خراسان، فاعتلّ الإمام عليه السلام بعلل كثيرة، واستمرّ المأمون بمكاتبته ومراسلته حتّى علم عليه السلام أنّه لا يكفّ عنه، فاستجاب له مكرهاً. وأمر المأمون الشخص الموكّل بالإمام الرضا عليه السلام أن لا يسير به عن طريق الكوفة وقمّ حيث يوجد شيعة أهل البيت عليهم السلام. وعند وصوله إلى «**مرو**» عرض عليه أن يتقلّد الخلافة، فأبى عليه السلام هذا العرض، وجرت بينهما مخاطبات كثيرة دامت نحواً من شهرين، والإمام عليه السلام يأبى الموافقة،

وحينمـا يئس المأمـون عرض عليه ولاية العهد، فأجابـه الإمام عليه السلام إلى ذلك بعـد الإلحاح الشديد والتلويـح بالقتل، وشرط عليه شروطاً منها: «**إنّي أدخل في ولاية العهد على أن لا آمر، ولا أنهى، ولا أقضـي، ولا أُغيّر شـيئاً ممّا هو قائم، وتعفيني من ذلك كلّه**»[1].

فقبل منه المأمون ما شرطه عليه الإمام عليه السلام، وتمّت توليته ولاية العهد في الخامس من شهر رمضان سنة ٢٠١هـ.

خلاصة الدرس

- نشطـت الحركة العلميّة في القرن الثاني الهجريّ الّذي عاش فيه الإمام الرضـا عليه السلام. وفـي عصـره عليه السلام عاش عدد مـن مؤسّسـي المذاهب الفقهيّـة والكلاميّـة والفلسفيّـة. وكان الإمـام مفزع العلمـاء وملجأ أهل الفكر والمعرفة.
- ساعدت السلطة العبّاسيّة على انتشار المذاهب والأفكار المنحرفة رغبةً منها في إطفاء نور أهل البيت عليهم السلام.
- انتشـر في عصر الإمـام الرضا عليه السلام الانحراف الأخلاقـيّ والّذي كان السبب الأوّل فيـه حكّام بني العبّاس. وأبرز مظاهر هذا الانحراف تجلّى في اللهو واللعب والولع بالغناء وبالجواري وشرب الخمر.
- عاشـ الإمـام عليه السلام ظروفـاً سياسيّـة صعبة فـي مرحلة حكـم المهديّ والهـادي والرشيد، حيـث عايش ظلم العبّاسيّين لأبيـه الكاظم، وكذلك أتباع أهل البيت عليهم السلام.

(١) عيون أخبار الرضا، م.س: ٢/١٤٩ و١٥٠.

- عاصـر الإمـام عليه السلام مرحلة الصـراع علـى السلطة بين ولـدي هارون (الأمين والمأمون).
- تفجّرت ثورات متعدّدة في عصر إمامة الإمام الرضا عليه السلام وكان أبرزها ثورة محمّد بن إبراهيم بن إسماعيل المعروف بابن طباطبا.
- بعـد سيطرة المأمون علـى الحكم كتب إلى الإمـام الرضا عليه السلام يدعوه للقدوم إلى خراسان، وحاول الإمام عليه السلام عدم الاستجابة ولكنّ المأمون أصرّ على ذلك وقام بتسليم الإمام الرضا عليه السلام ولاية العهد.



الدرس

الثامن عشر

الإمام الرضا عليه السلام وولاية العهد



أهداف الدرس:

١. أن يستذكر الطالب أهداف المأمون من ولاية العهد.

٢. أن يعدّد مبرّرات قبول الإمام عليه السلام بهذه الولاية.

من أهمّ المسائل التاريخيّة في حياة الإمام الرضا عليه السلام حادثة توليته للعهد، وسنحاول في هذا البحث إلقاء الضوء على بعض جوانبها.

ولأجل توضيح بعض التفاصيل المتعلّقة بهذه المسألة لا بدّ من البحث في الأمور التالية:

أهداف المأمون من تولية الإمام الرضا عليه السلام

بعد أن تعرّفنا سابقاً إلى كيفيّة دعوة المأمون للإمام الرضا عليه السلام إلى خراسان، وإكراهه على القبول بولاية العهد، لا بدّ أن نعلم أنّ دوافع المأمون من جعل الإمام عليه السلام وليّاً لعهده لم تكن نابعة من ولائه لأهل البيت عليهم السلام بل كان ميله لهم مصطنعاً، إذ لا يعقل أن يضحّي بالحكم الّذي قَتَل من أجله أخاه والآلاف من الجنود والقادة، ثمّ يسلّمه بكلّ سهولة إلى غيره.

وفعلاً لم يدم الأمر طويلاً ـ كما أخبر الإمام عليه السلام ـ فقد اغتيل الإمام الرضا عليه السلام ورحل إلى ربّه على الرغم من أنّه كان سالماً في بدنه من الأمراض، بينما بقي المأمون على رأس السلطة حيّاً بعد الإمام عليه السلام.

وأهداف المأمون ودوافعه كانت نابعة من مصلحة الحفاظ على حكمه، وإلّا

فما معنى التلويح والتهديد بالقتل لإجبار الإمام عليه السلام على قبول ولاية العهد؟!

ويمكن تحديد أهداف المأمون في النقاط التالية:

١ ـ تهدئة الأوضاع المضطربة

اضطربت أوضاع الحكم بسبب القتال الدامي بين الأخوين (الأمين والمأمون)، إضافة إلى قيام الثورات والحركات المسلّحة، وازدياد عدد المعارضين لحكمه. فأراد المأمون من تقريب الإمام عليه السلام استقطاب أعوانه وأنصاره، وإيقاف حركاتهم المسلّحة ليتفرّغ إلى بقيّة الثائرين والمتمرّدين الّذين لا يُعتد بهم قياساً للثوّار العلويّين.

وأراد كسب ودّ الأغلبيّة العظمى من المسلمين لارتباطهم العاطفي والروحي بالإمام عليه السلام، وخصوصاً أهل خراسان الّذين أعانوه على احتلال بغداد، والشاهد على ذلك استقبال الإمام عليه السلام من قبل عشرين ألف عالم وفقيه وصاحب حديث في نيسابور.

وبتقريب الإمام عليه السلام كان يمكن امتصاص نقمة المعارضة وتفويت الفرصة عليها للمطالبة بالحكم.

٢ ـ إضفاء الشرعيّة على الحكم القائم

لم يصل المأمون إلى الحكم بطريقة شرعيّة، وكان إقرار حكمه من قبل الفقهاء نابعاً من الترغيب والترهيب، أو استسلاماً للأمر الواقع، وعدم القدرة على تغييره.

لذا، فإنّ ما قام به المأمون من تولية الإمام عليه السلام يُمكن أن يحقّق له ما يصبو إليه من إضفاء الشرعيّة على حكمه، مستفيداً من الولاء الفكريّ والعاطفي للإمام عليه السلام في نفوس المسلمين.

٣ ـ منع الإمام من الدعوة لنفسه

الإمــام مســؤول عــن دعوة الأمّــة للارتبــاط بالإمام الحــقّ والمنهــج الحقّ. والمتعــارف عليــه أنّ وليّ العهد يدعو للحاكــم الفعليّ ثمّ لنفســه. ومن هنا كان تفكيــر المأمون منصبّاً على توجيه دعوة الإمام لنفسه. وقد صرّح بهذه الحقيقة بقولــه: قد كان هــذا الرجل مستتراً عنّا يدعو إلى نفســه دوننا، فأردنا أن نجعله ولي عهدنا، ليكون دعاؤه إلينا[١].

٤ ـ إبعاد الإمام عن قواعده

إنّ وجود الإمام عليه السلام في العاصمة بعيداً عن مدينة جدّه صلى الله عليه وآله وسلم يعني انفصاله عن قواعــده الشعبيّة، وتحجيم الفرص المتاحة للاجتماع بوكلائه ونوّابه المنتشرين في شرق الأرض وغربها، ومن جهة أخرى جعل الإمام تحت الرقابة المباشرة من المأمون الّذي قام بتقريب وإغراء هشام بن إبراهيم الراشديّ. وكان من خواصّ الإمــام. وولّاه حجابــة الإمام عليه السلام، فكان ينقل الأخبــار إليه، ويمنع من اتّصال كثير من مواليه به، وكان لا يتكلّم في شيء إلّا أورده على المأمون[٢].

٥ ـ إبعاد خطر الإمام عن الحكم القائم

إنّ توسّــع القاعدة الشعبيّة للإمام عليه السلام كان يشكّل خطراً حقيقيّاً على حكم المأمــون بعد التصدّع الّذي حدث في البيت العبّاسيّ، وخاصّة بعد قيام الثورات المسلّحــة، فلــو تُرك الإمــام عليه السلام في المدينــة لأدّى ذلك إلى ضعــف السلطة القائمــة. وبهذا الصدد قال المأمون: وقــد خشينا إن تركناه على تلك الحالة أن ينفتق علينا منه ما لا نسدّه، ويأتي علينا ما لا نطيقه[٣].

---

(١) فرائد السمطين، إبراهيم بن محمّد بن المؤيّد بن عبد الله بن عليّ بن محمّد الجويني الخراساني، تحقيق الشيخ محمّد باقر المحمودي: ٢/ ٢١٤. منشورات مؤسسة المحمودي، بيروت، ط ١، ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م.

(٢) بحار الأنوار، م.س: ٤٩/ ١٣٩.

(٣) فرائد السمطين، م.س: ٢/ ٢١٤.

٦ ـ تشويه سمعة الإمام عليه السلام

أجاب الإمام عليه السلام المأمونَ موضِّحاً دوافعه بقوله: «**تريد بذلك أن يقول الناس: إنّ عليّ بن موسى الرضا لم يزهد في الدنيا بل زهدت الدنيا فيه، ألا ترون كيف قبل ولاية العهد طمعاً بالخلافة؟!**»[١].

وصرّح المأمون بذلك للعبّاسيّين بقوله:...ولكنّنا نحتاج أن نضع منه قليلاً قليلاً حتّى نصوّره عند الرعايا بصورة من لا يستحقّ هذا الأمر[٢].

٧ ـ تفتيت جبهة المعارضة

إنّ المعارضين لحكم المأمون سينظرون إلى الإمام الرضا عليه السلام على أنّه جزء من الحكم القائم، وتتعمّق هذه النظرة حينما يجدون أنّ بعض ولاة المأمون هم من أهل بيت الإمام عليه السلام أو من أتباعه. وإضافة إلى ذلك فإنّ الوالي مكلّف بقمع أيّ حركة مسلّحة، وفي هذه الحالة ستكون المعارضة وجهاً لوجه أمام الولاة المحسوبين على الإمام عليه السلام ممّا يؤدّي إلى تفتيت جبهة المعارضة. والأهمّ من ذلك أنّ الفساد الإداريّ والحكوميّ سَتُلقى مسؤوليّته على هؤلاء الولاة باعتبارهم من أركان الحكم القائم.

مبرّرات قبول الإمام الرضا عليه السلام ولاية العهد

لقد قبل الإمام عليه السلام ولاية العهد، ولكن بعد أن عرف أنّ ثمن رفضه لها لن يكون غير نفسه الّتي بين جنبيه. هذا عدا عمّا سوف يتبع ذلك من تعرّض شيعته وأنصاره إلى أخطارٍ هم في غنى عنها...

(١) علل الشرائع، م.س: ٢٣٨.

(٢) فرائد السمطين، م.س: ٢/٢١٥.

وفي ذلك يذكر الشيخ الصدوق قدس سره نقاشاً جرى بين المأمون والإمام عليه السلام، حيث قال المأمون للإمام عليه السلام: يا ابن رسول الله قد عرفت فضلك وعلمك وزهدك وورعك وعبادتك، وأراك أحقّ بالخلافة منّي.

فقال الإمام عليه السلام: «**بالعبوديّة لله عزَّ وجلَّ أفتخر، وبالزهد في الدنيا أرجو النجاة من شرّ الدنيا، وبالورع عن المحارم أرجو الفوز بالغنائم، وبالتواضع في الدنيا أرجو الرفعة عند الله تعالى**».

فقال المأمون: إنّي قد رأيت أن أعزل نفسي عن الخلافة وأجعلها لك وأبايعك!

قال الإمام عليه السلام: «**إن كانت هذه الخلافة لك وجعلها الله لك فلا يجوز لك أن تخلع لباساً ألبسكه الله وتجعله لغيرك، وإن كانت الخلافة ليست لك، فلا يجوز لك أن تجعل لي ما ليس لك**».

فقال المأمون: يا ابن رسول الله لا بدّ من قبول هذا الأمر. قال الإمام عليه السلام: «**لست أفعل ذلك طايعاً أبداً**».

فما زال يجهد به أيّاماً، فلمّا يئس من قبوله؛ عرض عليه ولاية العهد، ثمّ جرى بينهما كلام أوضح فيه الإمام عليه السلام دوافع المأمون من ذلك، فغضب المأمون ثمّ قال: إنّك تتلقّاني أبداً بما أكرهه، وقد أمنت سطوتي، فبالله أقسم لئن قبلت ولاية العهد وإلّا أجبرتك على ذلك، فإن فعلت وإلّا ضربت عنقك.

فقال الإمام عليه السلام: «**قد نهاني الله عزَّ وجلَّ أن أُلقي بيدي إلى التهلكة، فإن كان الأمر على هذا، فافعل ما بدا لك، وأنا أقبل ذلك على أن لا أُولّي أحداً ولا أعزل أحداً ولا أنقضنَّ رسماً ولا سنّة، وأكون في الأمر بعيداً مشيراً**».

فرضي منه بذلك، وجعله وليّ عهده، والإمامُ عليه السلام كاره لذلك»[1].

(١) علل الشرائع، م.س: ٢٣٧ و٢٣٨.

وفـي روايـة أُخرى أنّ المأمـون قال للإمـام عليه السلام: «**إنّ عمر بـن الخطّاب جعل الشـورى في سـتّة، أحدهم جدّك أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب، وشرط فيمن خالف منهم أن يضرب عنقه، ولا بدّ من قبولك ما أريده منك، فإنّي لا أجد محيصاً منه**»[1].

وقد صرّح الإمام عليه السلام باضطراره للقبول، وكان يقول: «**قد علم الله كراهتي لذلك، فلمّا خُيّرت بين قبول ذلك وبين القتل اخترت القبول على القتل**»[2].

وقيل له: يا ابن رسول الله ما حملك على الدخول في ولاية العهد؟

فقـال عليه السلام: «**مـا حمـل جـدّي أميـر المؤمنيـن علـى الدخـول فـي الشورى**»[3].

والإمـام عليه السلام لم يستسلم للقبـول خائفاً من قتله، وإنّما سيكـون قتله سبباً فـي خسارة الحركـة الرساليّة؛ لحاجتها إلى قيادته في هـذه المرحلة، وسيكون قتلـه مقدّمة لقتل أهل بيته، أو يؤدّي إلى ردود أفعال مسلّحة غير مدروسة بدافع الانتقام، وبالتالي تنهار القوّة العسكريّة دون أن تغيّر من الأحداث شيئاً.

علـى أنّه لا يخفى وجود أسباب ومبرّرات أخرى قـد تكون دافعاً لقبول الإمام عليه السلام بهذه الولاية، منها:

١ـ استثمار الظروف لإقامة الدِّين وإحياء السنّة

إنّ الحرّيّـة النسبيّـة الممنوحـة للإمـام الرضا عليه السلام ولأهل بيتـه وأنصاره هـي فرصة مناسبـة لتبيين معالم الدِّين وإحياء السنّـة النبويّة ونشر منهج أهل البيت عليهم السلام في مختلف الأوساط الاجتماعيّة والسياسيّة، وخصوصاً في البلاط

---

(١) الإرشاد، م. س: ٢١٠.

(٢) عيون أخبار الرضا، م. س: ٢/١٣٩.

(٣) م.ن: ٢/١٤١.

الحاكم عن طريق الالتقاء بالوزراء والخواصّ والخدم والحرّاس وغيرهم، وقد صرّح الإمام عليه السلام بذلك قائلاً:

«اللّهمّ إنّك قد نهيتني عن الإلقاء بيدي إلى التهلكة، وقد أُكرهت واضطررت كما أشرفت من قبل عبد الله المأمون على القتل متى لم أقبل ولاية عهده... اللّهمّ لا عهد إلّا عهدك، ولا ولاية إلّا من قبلك، فوفّقني لإقامة دينك، وإحياء سُنّة نبيّك محمّد صلى الله عليه وآله وسلم، فإنّك أنت المولى وأنت النصير، ونعم المولى أنت، ونعم النصير»(١).

وقد سمحت الظروف للإمام عليه السلام لتبيين المنهج السليم أمام الوزراء والقضاة والفقهاء وأهل الديانات الّذين جمعهم المأمون لمناظرة الإمام عليه السلام، إضافة إلى قيامه بتوجيه المأمون إلى اتخاذ الرأي الأصوب مهما أمكن.

٢. تصحيح الأفكار السياسيّة الخاطئة

من الأفكار السائدة عند كثير من المسلمين عدم ارتباط الدِّين بالسياسة، وأنّه لا يليق بالأئمّة والفقهاء أن يتولّوا المناصب السياسيّة، وأنّ المتّقي هو الزاهد في السلطة والخلافة. وقد حاول العبّاسيّون تركيز هذا المفهوم عند المسلمين، فأراد الإمام الرضا عليه السلام بقبوله ولاية العهد أن يصحّح هذه الأفكار السياسيّة الخاطئة، ويوضّح للمسلمين وجوب التصدّي للحكم في الظروف المناسبة.

والأفكار الخاطئة حقيقة قائمة، فقد دخل أحد أنصار الإمام عليه وقال له: يا ابن رسول الله إنّ الناس يقولون: إنّك قبلت ولاية العهد، مع إظهارك الزهد في الدنيا(٢).

(١) عيون أخبار الرضا، م. س: ١/١٩.

(٢) علل الشرائع، م. س: ٢٣٩.

ولا يمكن إزالة هذه الأفكار إلّا بتربية مكثّفة تحتاج إلى وقت طويل، اختصرها الإمام الرضا عليه السلام في موقفه العمليّ بقبول ولاية العهد.

٣ ـ إفشال مخطّطات المأمون

من المتوقّع أنّ المأمون سيقوم بتولية العهد لأحد العلويّين. والعلويّ المنصَّب لولاية العهد، إمّا أن يكون: مساوماً، أو انتهازيّاً، أو مخلصاً قليل الوعي، أو واعياً معرَّضاً للانزلاق في مغريات السلطة. وفي جميع الحالات، فإنّ هذا الموقف سيؤدّي إلى شقّ صفوف أنصار أهل البيت عليهم السلام أو توريط العلويّ بممارسات خاطئة تؤدّي إلى تشويه سمعة أهل البيت عليهم السلام أو إلقاء مسؤوليّة الفساد الاقتصاديّ والأخلاقيّ والإداريّ والسياسيّ عليه.

وقد يؤدّي انزلاق من يتولّى العهد من العلويّين إلى قيامه بمعارضة الإمام عليه السلام أو ملاحقة أتباعه وأنصاره.

وبقبول الإمام الرضا عليه السلام لولاية العهد سوف تفوّت الفرصة على المأمون لإمرار مخطّطاته في شقّ صفوف الحركة الرساليّة، أو إلقاء تبعة المفاسد على من يُنسب إلى أهل البيت عليهم السلام.

٤ ـ تعبئة الطاقات

بعد فشل الثورات العلويّة وانكسارها عسكريّاً، فإنّ الظروف الّتي خلقتها ولاية العهد كانت مساعدة لإعادة بناء القوّة العسكريّة لأهل البيت عليهم السلام، وتعبئة الطاقات بعد إيقاف الملاحقة والمطاردة لها، وهي بحاجة إلى قسط من الراحة لإدامة التحرّك فيما بعد، حينما تكون الظروف مناسبة له.

خلاصة الدرس

- كانـت دعوة المأمون للإمام الرضا عليه السلام بعد سنتين من تولّيه السلطة. وكان يكاتـب الإمـام عليه السلام ويراسلـه ويضغط عليه من أجـل قبول ولاية العهد. وكان الإمام يمانع ولم يبد قبولاً، حتّى استجاب للمأمون تحت ضغط التهديد بالقتل، وكانت بينهما مخاطبات استمرّت حوالي شهرين.
- قبل الإمام عليه السلام ولاية العهد بشروط، بعد أن هدّده المأمون بالقتل، ومن هـذه الشروط: أن لا يأمر ولا ينهى ولا يقضي ولا يغيّر شيئاً ممّا هو قائم. وفعلاً فإنّ الإمام الرضا عليه السلام حتّى وقت استشهاده بالسمّ لم يتدخّل في أمور الدولة إلا بمقدار ما كان فيه خدمة للعامّة. وكان المأمون يهدف من تولية الإمام عليه السلام ولاية العهد إلى أهداف متعدِّدة أهمّها:

١. تهدئة الأوضاع المضطربة.

٢. محاولة إضفاء الشرعيّة على حكمه وسلطته.

٣. محاولـة التضييـق علـى الإمام الرضـا عليه السلام وحجبه عـن قواعده في المدينة والعراق.

٤. إضعاف المعارضة وخصوصاً الشيعيّة منها.

- ومع كلّ ذلك فالإمام عليه السلام عمل على إفشال ما خطّط له المأمون، حيث تمكّـن مـن تعبئة الجماهيـر المؤمنة بقيادتـه فضلاً عن فضـح السلوك المنحرف للسلطة العبّاسيّة في مناسبات عديدة، كما تمكّن الإمام عليه السلام من إحياء سنّة جدّه صلى الله عليه وآله وسلم وآبائه الكرام عليهم السلام.



الدرس

التاسع عشر

الإمام الجواد عليه السلام ومسؤوليّة الإمامة



أهداف الدرس:

١. أن يتبيّن الطالب مفهوم الإمامة.

٢. أن يتعرّف إلى كيفيّة تنصيب الإمام الجواد عليه السلام.

٣. أن يستذكر علاقة الإمام الجواد عليه السلام بمن عاصرهم من الحكّام.

الإمامة في الإسلام

يُشكّل مفهوم الإمامة ركناً أساساً من أركان العقيدة، ومبدأ خطيراً من مبادئ الحيـاة السياسيّـة، والفكريّـة، والاجتماعيّة في الإسلام. وقـد أجمع المسلمون بمختلف آرائهم، ومذاهبهم، على وجوب الإمامة في الإسلام.

ومن المسائل الّتي احتلّت مكانتها فيما بعد في المباحث الكلاميّة مسألة: هل يمكن أن يتولّى الإمام منصب الإمامة قبل البلوغ؟. وقد اتسمت هذه القضية بطابع الجديّة منذ أن تولّى الإمام الجواد عليه السلام منصب الإمامة عام (٢٠٣هـ) وكان عمره الشريف ما بين ستٍّ وتسعٍ من السنين. وتكرّرت القضيّة أيضاً عام (٢٢٠هـ) بشأن الإمام الهادي عليه السلام، ثمّ انطبقت أيضاً على الإمام المهديّ عجل الله فرجه الشريف.

فقد كان الشيعة حين استشهاد الإمام الرضا عليه السلام سنة ٢٠٣هـ ينظرون إلى الأمـور بقلـق بالغ؛ لأنّ ابنه الجواد ما زال صغير السـنّ، ولم يكن لديه ولد آخر. ويذكر بعض المؤرّخين عن هذه الحادثة أنّ الشيعة حاروا واضطربوا ووقع بينهم الخلاف[1].

(١) دلائـل الإمامـة، أبـو جعفر محمّد بن جرير بن رستم الطبري: ٢٠٤. منشورات مؤسسـة الأعلمي، بيروت، ط ٢، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

وقد أدّت حالة الشكّ الّتي حصلت بعد شهادة الإمام الرضا عليه السلام، إلى أن يتّجه بعض الشيعة إلى عبد الله بن موسى أخ الإمام الرضا عليه السلام، إلّا أنّهم لم يكونوا مستعدّين لقبول إمامته بلا دليل وبرهان، فعرضوا عليه بعض الأسئلة، ولمّا رأوا عجزه عن الإجابة تركوه.

وقد قبل أغلب الشيعة بإمامة الجواد عليه السلام رغم قول بعضهم بحداثة سنّه، فاحتُجّ عليهم باستخلاف داود لسليمان وهو صبيّ يرعى الغنم، كما استدلّ المعتقدون بإمامة الجواد عليه السلام بيحيى بن زكريا وأنّ الله آتاه الحكم صبيّاً، وكذا بعيسى ابن مريم عليهما السلام، وبحكم الصبيّ بين يوسف الصدّيق وامرأة العزيز، وبعلم سليمان بن داود حكماً من غير تعليم، وغير ذلك، فإنّه قد كان في حجج الله ممّن كان غيرَ بالغ عند الناس.

كما أنّ الإمامة بنظر الشيعة الإماميّة تُعتبر قضيّة إلهيّة، فلذلك لم يكن صغر العمر قضيّة مهمّة بالنسبة لهم، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنّ القضيّة المهمّة في نظرهم هي ظهور هذا الجانب الإلهيّ في عملهم، حيث كان الأئمّة عليهم السلام موضع امتحان واختبار من شيعتهم، فكانوا يطرحون عليهم مختلف الأسئلة، والتي لا يُجيب عن بعضها إلّا من كانت له هذه العُلقة مع الله سبحانه، وإلّا لم يُقبل ادّعاؤه لهذا المنصب الإلهيّ.

النصّ من الإمام الرضا عليه السلام على إمامة الجواد عليه السلام

تدرّجت النصوص الخاصّة الصادرة عن الإمام الرضا عليه السلام حول إمامة ابنه الجواد عليه السلام من قبل أن يولد، واستمرّ صدورها حتّى قبيل استشهاده، وذلك لتمهيد وإيجاد الأرضيّة اللّازمة للإمامة المبكّرة المتمثّلة في إمامة الجواد عليه السلام، ولا سيّما إذا لاحظنا أنّها تعتبر ظاهرة فريدة في نوعها لأوّل مرّة في تأريخ أهل البيت عليهم السلام. وبالإمكان أن نصنّف النصوص الّتي ناهزت

الأربعين نصّاً إلى أصناف، منها: عشرة نصوص يعود تاريخها إلى ما قبل الولادة، وعدّة نصوص صدرت بعد الولادة، وحوالي ١٤ نصاً ترتبط بمرحلة الصبا، وعشرة نصوص تختصّ بمرحلة ما قبل استشهاد الإمام الرضا عليه السلام بدءً بإخراجه من المدينة وانتهاءً باستقراره في خراسان وطوس.

فالمهمّ في قضيّة الإمامة هو النصّ، وقد رواه كثير من أصحاب الإمام الرضا عليه السلام الأجلّاء وفقاً لما ذكره الشيخ المفيد في الإرشاد[1]. وقام الأستاذ عطاردي بجمع هذه النصوص كلّها تقريباً في كتابه (مسند الإمام الجواد عليه السلام).

ومن قبله بادر العلّامة المجلسيّ أيضاً إلى تخصيص فصل من كتاب بحار الأنوار ذكر فيه النصوص الواردة في إمامة محمّد بن عليّ الجواد عليه السلام. ويتّضح من هذه الروايات أنّ الإمام الرضا عليه السلام أشار عدّة مرّات إلى إمامة ولده، وأطلع أصحابه الأجلّاء على هذا الأمر. وفي الحقيقة إنّ استقامة أكثر الأصحاب وثبوتهم على الانقياد للإمام الجواد عليه السلام ـ وهم الّذين أسندوا تلك الروايات ـ يُعتبر أفضل دليل على أحقّية إمامة الجواد عليه السلام.

الحالة السياسيّة في عصر الإمام الجواد عليه السلام

إنّ معلوماتنا التاريخيّة عن حياة الإمام الجواد عليه السلام قليلة، والسبب في ذلك يعود إلى المضايقات السياسيّة الّتي كان ينتج عنها إخفاء الأخبار المتعلّقة بالأئمّة عليهم السلام ليكونوا في مأمنٍ يقيهم شرّ الأعداء.

والسبب الآخر عدم استمرار حياة الإمام عليه السلام طويلاً، حتّى يمكن الحصول على أخبار بشأنها.

(١) الإرشاد، م.س: ٣١٧.

وفـي الوقت ذاته فإنّ الدولـة العبّاسيّة كان السرّ فـي نجاحها وانطلاقها في بدايـة الأمر هو ربطها بأهل البيت عليهم السلام ، حيث تحكّم العبّاسيّون، وتسلّطوا على الأمّة بدعوى القربى النسبيّة من الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وطلب حقّ آل البيت عليهم السلام تحت شعار الرضا لآل محمّد صلى الله عليه وآله وسلم .

ومـن هنا فإنّه من الطبيعي أن يكون الخطر الحقيقـيّ الّذي يهدّد العبّاسيّين وخلافتهـم هو مـن العلويّين الّذين كانوا أقوى منهم حجّـةً، وأقرب منهم منزلة إلى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم .

أمّا المأمون العبّاسيّ فقد واجه تحدّيات كبيرة وخطيرة كانت تهدّد كيان حكمه وتعصف بـه، وكان بقاؤه في السلطة يحتاج إلى الكثيـر من الدهاء والمناورات، لأنّه كان يواجه:

١. تحـرّك الشيعـة العنيف ضدّه، وثـورة أبي السرايا الّتـي عمّت الكثير من الحواضر الإسلاميّة.

٢. تكتّل العائلة العبّاسيّة ضدّه ووقوفها إلى جانب الأمين.

٣. وجود المخاطر الخارجيّة من جانب الدول المتربّصة بالدولة الإسلاميّة (كالدولة البيزنطيّة).

وأمام هذه التحدّيات قام المأمون بالأمور التالية:

١. تصفيته لتحرّك أخيه الأمين والقوى المتحرّكة القويّة ضدّه.

٢. القيام بلعبة تولية الإمام الرضا عليه السلام لولاية العهد بالإكراه ليصوّر للأمّة أنّه مع القيادة الشرعيّة.

٣. محاربة وتصفية ثورات العلويّين.

٤. التصفية الجسديّة للإمام الرضا عليه السلام .

٥. التوجّه لبغداد للقضاء على معارضة البيت العبّاسيّ.

٦. إشاعة فتنة خلق القرآن لإشغال الناس بها عمّا يهمّهم.

٧. التوجّه لمحاربة الدولة البيزنطيّة ودفع خطرها.

أمّا الأمّة الإسلاميّة فلا شكّ أنّها كانت تؤيّد قيادة أهل البيت عليهم السلام. وكلّ الوقائع التاريخيّة والشواهد تؤيد ذلك، ومن أهمّها اضطرار السلطة العبّاسيّة للدخول فيما دخلت فيه من تولية الإمام الرضا عليه السلام لولاية العهد والإيحاء بتحويل الخلافة من العبّاسيّين إلى أهل البيت عليهم السلام.

ولكنّ هذا التأييد لقيادة أهل البيت عليهم السلام كان ضمن ثلاثة مستويات، وهي:

١. عموم الأمّة الّتي أصبحت مؤمنة بقيادة أهل البيت عليهم السلام، دون ارتباطها بهم برباط عميق من الوعي.

٢. المعارضون للدولة الّذين يعتمدون الكفاح المسلّح لإسقاطها وإقامة الحكم الشرعيّ.

٣. المؤمنون الذين وعوا القيادة الشرعيّة وهم أصحاب الإمام الرضا عليه السلام وأنصاره.

هذه هي أهمّ ملامح الوضع السياسيّ في مطلع عصر الإمام الجواد عليه السلام.

الإمام الجواد عليه السلام والمأمون

إنّ دراسة وتحليل موقف الخليفتين العبّاسيّين المأمون والمعتصم الّذي تولّى الخلافة من بعده، من الإمام محمّد بن عليّ الجواد عليه السلام يشير بوضوح كامل إلى أهميّة شخصيّة الإمام عليه السلام القياديّة وموقعه الرفيع في النفوس، وميل الأمّة إليه باعتباره الرمز الممثّل لإمامة أهل البيت عليهم السلام في تلك المرحلة.

وقد قضى الإمام الجواد عليه السلام خمسة عشر عاماً من عمره المبارك في

حكومة المأمون في الفترة الواقعة بين استشهاد الإمام الرضا عليه السلام سنة (٢٠٣هـ) وموت المأمون سنة (٢١٨هـ). وهي معظم مدّة إمامته الّتي دامت سبعة عشر عاماً إذ اغتيل بعد سنتين من حكومة المعتصم في سنة ٢٢٠هـ.

وكان المأمون يُدرك جيّداً أنّ الإمام الجواد عليه السلام هو الوارث الحقيقيّ لأبيه وهو القائد الشرعيّ لأمّة جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، لذلك تعامل في تخطيطه السياسيّ معه تعاملاً جادّاً بصفة أنّ الإمام عليه السلام كان قطباً مهمّاً من أقطاب الساحة السياسيّة الإسلاميّة وقتذاك؛ فيما يمثّله من قائد مطاع من قبل الطليعة الواعية في الأمّة وما يمتلكه من مكانة واحترام في نفوس قطاعات واسعة من الأمّة.

وقد أعلن المأمون تصوّره هذا أمام العبّاسيّين عندما قالوا له (حينما أراد تزويج ابنته من الإمام الجواد عليه السلام):

يا أمير المؤمنين أتزوّجُ ابنتك وقرّة عينك صبيّاً لم يتفقّه في دين الله، ولا يعرف حلاله من حرامه، ولا فرضاً من سنّة؟ (ولأبي جعفر عليه السلام إذ ذاك تسع سنين) فلو صبرت له حتّى يتأدّب ويقرأ القرآن ويعرف الحلال من الحرام. فأجاب المأمون: إنّه لأفقه منكم وأعلم بالله ورسوله وسنّته وأحكامه، وأقرأ لكتاب الله منكم وأعلم بمحكمه ومتشابهه وناسخه ومنسوخه وظاهره وباطنه وخاصّه وعامّه وتنزيله وتأويله منكم[1]. ولذلك نرى أنّ تعامل المأمون مع الإمام الجواد عليه السلام كان مخطّطاً له بعناية وحنكة. وهذا الأمر يفسّر الأثر الكبير الّذي أخذه زواج الجواد عليه السلام من بنت المأمون وكيف اهتمّ القوّاد والحجّاب والخاصّة والعمّال به.

(١) كشف الغمّة في معرفة الأئمّة، أبو الحسن عليّ بن عيسى بن أبي الفتح الأربلي: ٢/٣٥٣-٣٥٩. منشورات دار الكتاب الإسلامي، بيروت، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.



وعلى أساس ذلك فإنّ تظاهر المأمون بحبّه وتقديره للإمام الجواد عليه السلام، والسياسة الحسنة بحسب الظاهر كانت تخفي أهدافاً له، منها:

١. كسب الجماهير المسلمة المُحبّة لأهل البيت عليهم السلام، باعتباره من المحبّين والمكرمين لآل الرسول، وهو نظير ما يقوم به السياسيّون المعاصرون من رفعهم للشعارات الّتي تطمح الأمّة إلى تحقيقها.

٢. التغطية على جريمة قتله للإمام الرضا عليه السلام، وذلك بإظهار الحبّ والشفقة والاحترام لولده الجواد عليه السلام. وبهذا التصرّف يستطيع المأمون أن يخدع الرأي العام.

أمّا الموقف الحقيقيّ للمأمون فقد كان ينطوي على المكر والخداع ومحاولة الانتقاص والإسقاط لهذه الشخصيّة العظيمة، وذلك من خلال عدّة محاولات جرت من قبله، منها:

أ- روي في الكافي عن محمّد بن الريّان قال: «**احتال المأمون على أبي جعفر بكلّ حيلة، فلم يمكنه فيه شيء، فلمّا اعتلّ وأراد أن يبني عليه ابنته** (أي يزوّجه) **دفع إلى مائتي وصيفة من أجمل ما يكون، إلى كلّ واحدة منهنّ جاماً فيه جوهر، يستقبلن أبا جعفر عليه السلام إذا قعد في موضع الأخيار، فلم يلتفت إليهنّ، وكان رجل يقال له مخارق صاحب صوت وعود وضرب، طويل اللّحية، فدعاه المأمون، فقال: يا أمير المؤمنين إن كان في شيء من أمر الدنيا فأنا أكفيك أمره، فقعد بين يدي أبي جعفر عليه السلام فشهق مخارق شهقة اجتمع عليه أهل الدار، وجعل يضرب بعوده ويغنّي، فلمّا فعل ساعة وإذا أبو جعفر لا يلتفت إليه يميناً ولا شمالاً، ثمّ رفع إليه رأسه وقال: اتّق الله يا ذا العثنون**[1]، **قال الراوي: فسقط المضراب من يده والعود، فلم ينتفع بيديه إلى أن مات،**

(١) العثنون: ما نبت من الشعر أسفل الذقن.

قال: فسأله المأمون عن حاله، فقال: لمّا صاح بي أبو جعفر فزعت فزعة لا أفيق منها أبداً»[1].

يتجلّى لنا من هذه الرواية أنّ المأمون احتال بكلّ حيلة لإظهار عدم صلاحيّة الإمام الجواد عليه السلام للإمامة والقيادة أمام الناس وأنّه أولى منه بالخلافة والقيادة، لكنّه فشل في ذلك ممّا اضطرّه لسلوك أسلوب آخر يحتوي به حركة الإمام عن طريق تزويجه عليه السلام ابنته.

٣. جرت أكثر من محاولة من قبل المأمون لإحراج الإمام الجواد عليه السلام بالأسئلة الصعبة وذلك من خلال إقحامه في مناقشات مع قاضي القضاة في ذلك الزمان يحيى بن أكثم على أن يسأله مسائل لا يعرف الجواب عنها، ومن ذلك:

سأل يحيى بن أكثم (بأمر من المأمون) الإمام الجواد عليه السلام في مجلس حضره المأمون وجمع غفير من الناس، فقال: ما تقول في مُحرِم قتل صيداً؟

فقال الإمام عليه السلام: «**قتله في حلّ أو في حرم؟ عالماً كان المحرم أو جاهلاً؟ قتله عمداً أو خطأ؟ حرّاً كان المحرم أو عبداً؟ صغيراً كان أو كبيراً؟ مبتدئاً بالقتل أو معيداً؟ من ذوات الطير كان الصيد أم من غيرها؟ من صغار الصيد أم من كبارها؟ مصرّاً على ما فعل أو نادماً؟ في الليل كان قتله للصيد أم في النهار؟ محرماً كان بالعمرة إذ قتله أو بالحجّ كان محرماً؟**»

فتحيّر يحيى بن أكثم وبان في وجهه العجز والانقطاع، ولجلج حتّى عرف جماعة أهل المجلس أمره.

وكانت هذه المناظرة بناءً لطلب العبّاسيّين الّذين ـ كما ذكرنا ـ استنكروا على المأمون تزويج الإمام عليه السلام ابنته.

(١) عوالم العوالم، م.س: ٢٣/٥٢٧ ـ ٥٢٨.

ولمّا تفرّق الناس وبقي من الخاصّة من بقي، قال المأمون لأبي جعفر عليه السلام: إن رأيت - جُعلت فداك - أن تذكر الفقه الّذي فصّلته من وجوه من قتل المحرم لنعلمه ونستفيده، فأجاب الإمام عليه السلام عن ذلك بالتفصيل[1].

الإمام الجواد عليه السلام في حكومة المعتصم

المعتصم العبّاسيّ هو أبو إسحاق محمّد بن الرشيد. ولد سنة ثمانين ومائة. كان فاسد الأخلاق وأبعد ما يكون من الاعتصام بالله عزَّ وجلَّ، محدود التفكير ميّالاً للقسوة في تعامله مع خصومه السياسيّين وغيرهم. مال إلى أخواله الأتراك وكوّن جيشاً خاصّاً به وأغدق عليهم الأموال الطائلة. وتعتبر سياسة المعتصم هذه أخطر ما واجهته الدولة العبّاسيّة في مسيرتها.

لم تكن المدّة الّتي قضاها الإمام الجواد عليه السلام في خلافة المعتصم طويلة فهي لم تتجاوز السنتين، كان ختامها استشهاد الإمام الجواد عليه السلام على يد هذا الحاكم العبّاسيّ المنحرف، وذلك عبر خطوتين:

الأولى: استقدام الإمام عليه السلام إلى بغداد ليكون على مقربةٍ منه.

الثانية: اغتيال الإمام الجواد عليه السلام لما يمثّله من خطر حقيقيّ على النظام الحاكم، ولما يملكه من دور فاعل وقياديّ للأمّة، لذلك قرّرت السلطة أن تتخلّص منه عليه السلام.

(١) كشف الغمّة، م.س: ٢/٣٥٣ - ٣٥٩.



خلاصة الدرس

- عتبر التصدّي لإمامة المسلمين فكريّاً وروحيّاً وسياسيّاً في سنّ الطفولة مع استجابة جماهير العلماء لهذه الإمامة ظاهرة فريدة من نوعها تميّزت بها مدرسة أهل البيت عليهم السلام .
- الإمام الجواد عليه السلام هو أوّل إمام تمثّلت فيه هذه الظاهرة الفريدة.
- أقرّ الإمام الرضا عليه السلام هذه الظاهرة وجذّرها في الأمّة من خلال النصوص المرويّة عنه وبكثرة. وكان من جملة نشاطات الإمام الجواد عليه السلام ما ينصبّ على إقرار هذه الحقيقة الفريدة.
- جهد المأمون للتغطية على جريمته في قتل الإمام الرضا عليه السلام باحتفائه بالإمام الجواد عليه السلام ، فتظاهر بالتقدير والاحترام له عليه السلام . وتمثّل هذا الاحتفاء منه بتزويج الإمام عليه السلام ابنته أمّ الفضل بعد إظهار علمه وفضله للعبّاسيّين وغيرهم من المعترضين على هذا الزواج.
- لم يألُ المأمون جهداً في محاولة إفحام الإمام الجواد عليه السلام من خلال أمره لابن أكثم باختباره أمام الآخرين. وقد سبّبت هذه المحاولة ظهور فضل الإمام عليه السلام وعلمه الفائق.
- لم يشهد الإمام الجواد عليه السلام سوى سنتين من حكم المعتصم، حيث تمّ اغتياله بالسّمّ على يد عمّال هذا الخليفة الظالم.



الدرس العشرون

الإمام الهادي عليه السلام والسلطة الحاكمة



أهداف الدرس:

١. أن يتعرّف الطالب إلى الحالة السياسيّة المعاصرة للإمام الهادي عليه السلام.

٢. أن يتبيّن علاقة الإمام الهادي عليه السلام بالسلطة الحاكمة.

٣. أن يعدّد بعضاً من الثورات في زمن الإمام الهادي عليه السلام.

إمامة الهادي عليه السلام

تسلّم الإمــام الهادي عليه السلام الإمامة وعمره حوالي الســت سنوات، وذلك بعد استشهاد أبيه الإمام الجواد عليه السلام عام (٢٢٠هـ). فإمامته عليه السلام هي المصداق الثانــي للإمامــة المبكّرة الّتي ظهــرت في مدرسة أهل البيــت عليهم السلام. وعلى هذا الأســاس فمن الطبيعيّ أن يكــون خضوع علماء الطائفــة ووجهائها لإمامته على أســاس النصّ المعتبــر أو الإحســاس المباشر بقابليّات الإمــام عليه السلام وقدراته الربّانية الّتي تعتقد الطائفة بلزوم توفّرها في الإمام المعصوم.

ومــن الطبيعيّ أن يكون التمهيد لإمامة الجــواد عليه السلام المبكّرة تمهيداً لإمامة مــن يليه من الأئمّة المعصومين في سنّ مبكرة، حيث إنّ كثيراً من الاستبعادات قــد أُجيب عنها خلال التمهيــد الّذي قام به الإمام الرضــا عليه السلام أوّلاً والجدارة الّتي أثبتها الإمام الجواد عليه السلام خلال سنوات إمامته القصيرة.

إذاً، لمّا كانت مشكلة البلوغ قد حُلَّت بالنسبة للإمام الجواد عليه السلام فلم يحصل أدنى شكّ في إمامة الهادي عليه السلام بالنسبة لكبار شخصيّات الشيعة.

وقــد ذكر الشيخ المفيد والنوبختيّ أنّ جميع شيعة الإمام الجواد عليه السلام دخلوا

فــي طاعة الإمام الهــادي عليه السلام إلّا أفراداً قلائــل تبعوا لأمدٍ قصيــر موسى بن محمّــد المعــروف بالمبرقع المتوفّى في العــام (٢٩٦هـ) والمدفــون في قمّ، ثمّ تركوا القول بإمامته بعد مدّة قصيرة واعتقدوا بإمامة الهادي عليه السلام[١].

ويرى سعد بن عبد الله الأشعريّ أنّ سبب مفارقتهم لموسى المبرقع والتحاقهم بالإمام الهادي عليه السلام هو أنّ موسى كذّبهم وتبرّأ منهم ومن الإمامة لنفسه[٢].

إضافة إلى ذلك فإنّ الإمام الجواد عليه السلام حين طُلب منه الحضور إلى بغداد من قبل المعتصم العبّاسيّ فهم مغزى هذا السفر وأدرك مدى خطورته، فبادر إلى تعيين الإمام الهادي عليه السلام وصيّاً له[٣]، وأصدر نصّاً مكتوباً بإمامة الهادي عليه السلام بحيث لم يبقَ هناك أيّ مجال للشكّ[٤].

وقــد قضى الإمام الهادي عليه السلام اثنتيــن وعشرين سنة من عمره المبارك في مدينــة جدّه صلى الله عليه وآله وسلم. وحُمل علــى الهجرة منها سنة (٢٣٤هـ) بعد أن كان قد ولد له الإمام الحسن العسكريّ عليه السلام في سنة (٢٣٢هـ).

وبهــذا يكون الإمام الهادي عليه السلام قد قضــى أربع عشرة سنة من سنيّ إمامته في المدينة، وعشرين سنة أخرى في (سرّ من رأى) مقرّ حكومة العبّاسيّين.

وقــد أدرك عليه السلام في حياة أبيــه ستّ سنوات من عهد المأمــون وسنتين من حكم المعتصم، وعاصر بعد استشهاد أبيه خلال أربع وثلاثين سنة - وهي سنيّ إمامته - ستّة من الحكّام العبّاسيّين، وهم على الترتيب:

المعتصــم (دام حكمــه ١٠ سنوات) من سنة ٢١٧هــ، والواثق (٥ سنوات و٩

(١) الفصول المختارة من العيون والمحاسن، الشيخ المفيد: ٢٥٧، انظر مصنفات الشيخ المفيد، منشورات المؤتمر العالمي بمناسبة ذكرى ألفيّة الشيخ المفيد، قم، إيران، ١٤١٣هـ. وفرق الشيعة، م.س: ٩١ ـ ٩٢.

(٢) المقالات والفرق، ٩٩ انظر مصنفات الشيخ المفيد، م. س.

(٣) الكافي، م.س: ١/٣٣٣.

(٤) بحار الأنوار، م.س: ٥/١١٨ ـ ١٢٣.

أشهر) من سنة٢٢٧هـ، والمتوكّل (١٤ سنة) من سنة ٢٣٢هـ، والمنتصر (ستّة أشهر) ٢٤٧هـ، والمستعين (حوالي ٤ سنوات) من سنة ٢٤٨هـ، والمعتّز تولّى الحكم من سنة ٢٥٢هـ، واستشهد الإمام عليه السلام في عهد ه سنة ٢٥٤هـ.

الحالة السياسيّة في عصر الإمام الهادي عليه السلام

اتّسم عصر الإمام الهادي عليه السلام بانتشار الفوضى وفقدان الأمن، لأنّ السلطة العبّاسيّة كانت قد فقدت هيمنتها وقدرتها الّتي كانت تتمتّع بها أيّام الرشيد والمأمون.

ويعود ذلك إلى عدّة أسباب منها: تسلّط الأتراك على زمام الحكم حتّى لم يعد للخليفة أيّ نفوذ وسلطان، إذ كانوا هم الّذين يولّون من شاءوا ويعزلون من أرادوا في الخفاء فضلاً عن الوزراء وسائر أعمال الدولة[1].

ولم يكن للأتراك معرفة بشؤون الحكم والإدارة، ومن هنا ظهرت ألوان الفساد في الجهاز الحاكم بدءاً بانعدام المسؤوليّة إلى انتشار الرشوة، واختلاس أموال الأمّة بواسطة الوزراء والعمّال والقضاة وكتّاب الدواوين وغير ذلك من ألوان الفساد.

وكان الولاة يشترون وظائفهم من الوزراء. وجَهِد أغلبهم في ظلم الناس والاستبداد بهم وزجّوا الأبرياء في ظلمات السجون. من هنا كره المسلمون الحكم العبّاسيّ وتمنّوا زواله.

أمّا سياسة الحكّام فنذكر على سبيل المثال أنّ سياسة المأمون كانت تقوم على التمسّك بمذهب المعتزلة والدفاع عنهم، وهذا يعني فسح المجال تلقائيّاً أمام الشيعة والعلويّين. ولكنّ الأمور تغيّرت بمجيء المتوكّل إلى سدّة الحكم حيث ابتدأ بالتشدّد والضغط من جديد، وانتهج سياسة الدفاع عن آراء أهل الحديث

(١) راجع: تاريخ اليعقوبي، م. س: عهد المعتصم والمعتمد والمعتزّ.

وتحريضهم ضدّ المعتزلة والشيعة، وهو ما نجم عنه قمع هذين المذهبين بشدّة، وتعرّض العلويّون ولا سيّما في أيّام المتوكّل إلى الملاحقة والاعتقال والاضطهاد.

وأقدم المتوكّل على هدم قبر الإمام الحسين عليه السلام، إذ كان يتحرّق غيظاً ممّا يسمعه من تهافت الناس على زيارة هذا القبر الشريف. كما هدم كلّ بناء حول القبر وأجرى الماء عليه إلّا أنّ الماء دار حول القبر ولم يصل إليه، ومن ثمّ سُمّي المكان بالحائر. ومنع المتوكّل رسميّاً المسلمين من زيارة قبر ريحانة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وسيّد شباب أهل الجنّة عليه السلام، وأنزل العقوبة بالزائرين والّتي تمثّلت في القتل والصلب وقطع الأيدي.

نتج عن هذه الفوضى السياسيّة فوضى اقتصاديّة تمثّلت في النهب والسلب وعدم التوزيع الصحيح للثروة، فضلاً عن احتكار الأموال الطائلة، وانتشار البؤس والفقر بين الأكثريّة الساحقة من أبناء الأمّة إلى جانب البذخ والإسراف الّذي كان يطغى على سلوك الخلفاء.

وظاهرة بناء القصور في عهد المتوكّل ظاهرة ملفتة للنظر، حتّى أنّه قد بنى قصراً في سفينة. وقد أنفق الملايين على قصوره الّتي عرفت بالجعفريّ والبرج والمليح والمختار والشبندار، وبرك الماء الّتي كانت مسرحاً للّهو والعبث والسخرية بالناس، بدل صرف أوقاته وأموال المسلمين في خدمة الأمّة ومعالجة مشكلاتها.

لقد كانت معظم حياة هؤلاء الخلفاء حياة لهو ومجون؛ فقصورهم كانت مسرحاً لتعاطي المنكرات وشرب الخمور.

الإمام الهادي عليه السلام في سامرّاء

بعد الممارسات القاسية ضدّ الإمام عليه السلام في المدينة، أمر المتوكّل بجلبه إلى سامرّاء. وكان غرضه من ذلك مراقبة تحرّكات الشيعة وزياراتهم، وذلك في سنة (٢٤٣هـ) بعد أن كتب عبد الله بن محمّد الهاشميّ رسالة للمأمون يقول فيها: «**إذا**

كانت لك في الحرمين حاجة فأخرج عليّ بن محمّد منها، فإنّه قد دعا الناس إلى نفسه، واتّبعه خلق كثير». ومن بعد هذا أنفذ المتوكّل يحيى بن هرثمة ليأتيه بالإمام عليه السلام إلى سامرّاء[1]. وذكر الشيخ المفيد أنّ الإمام عليه السلام أرسل كتاباً إلى المتوكّل فنّد فيه ما بلغه من أخبار عنه[2]، فكتب المتوكّل إلى الإمام عليه السلام يخبره بأنّه قد عزل عبد الله بن محمّد ونصّب محمّد بن الفضل بدلاً عنه، وأنّه يقدّره ومستعدّ للبرّ به ومشتاق لرؤيته وإحداث العهد معه والنظر إليه.

ثمّ طلب المتوكّل من يحيى بن هرثمة أن يسير بثلاثمائة جنديّ ليأتيه بعليّ بن محمّد عليهما السلام مكرّماً. وواضح أنّ المتوكِّل إنّما فعل ذلك خشية حدوث حساسيّة سياسيّة في المجتمع.

وأقام عليه السلام في سامرّاء عشرين عاماً وعدّة أشهر إلى أن استشهد فيها. يقول الشيخ المفيد: «**كان فيها الإمام مكرّماً في ظاهر حاله، يجتهد المتوكّل في إيقاع حيلة به فلا يتمكّن من ذلك**»[3].

أمّا الأسباب الّتي دعت المتوكل لاستدعاء الإمام عليه السلام من المدينة فهي متعدّدة منها:

وشاية بعض عمّال السلطة العبّاسيّة الّذين كانوا يرون الإمام عليه السلام منافساً لهم.

وكذلك تكشف لنا الرسالة الّتي بعث بها المتوكل إلى الإمام عليه السلام والّتي يطلب فيها منه الحضور إلى سامرّاء أنّه كان يهدف إلى أمور إعلاميّة منها:

- التأثير في أهل المدينة محاولةً منه لتغيير انطباعهم؛ فإنّ الغالبيّة من أهل المدينة كانوا يعرفون المتوكّل ويعلمون عداءه لأهل البيت عليهم السلام وشيعتهم.

(١) بحار الأنوار، م.س: راجع الجزء الخمسين (عيون المعجزات).
(٢) الإرشاد، م.س: ٣٣٣.
(٣) م.ن: ٣٣٤.

- إبداء الاحترام للإمام الهادي عليه السلام وأنّه على رأيه ويقدّره ويعزّه، لذا فقد أبدل والي المدينة بغيره، ومن ثمّ جعل له الحريّة في الشخوص إلى الخليفة كيف يشاء الإمام عليه السلام. وهذه أساليب تغري العامّة، فالإمام عليه السلام يدرك ما يهدف إليه المتوكّل من استدعائه.

سياسة المتوكّل مع الإمام الهادي عليه السلام

عُرف المتوكّل ببغضه لأمير المؤمنين عليه السلام بشكل خاصّ ولآل البيت عليهم السلام بشكل عامّ.

فضيّق على الإمام الهادي عليه السلام وأمر بإنزاله - لمّا أشخصه إلى سامراء قسراً - في خان الصعاليك للحطّ من شأنه والتقليل من أهمّيته أمامَ الرأي العام. وفرض عليه الإقامة الجبريّة، والحصار الاقتصاديّ. وفرض أقصى العقوبات على من يصل الإمام بالحقوق الشرعيّة أو سائر الهدايا، ومنع الناس من زيارته والتشرّف بخدمته، وأمر هذا الطاغية باعتقال الإمام عليه السلام وزجّه في السجن، فبقي عليه السلام أيّاماً.

ولمّا ثقل أمر الإمام عليه السلام على المتوكّل، وضاق به ذرعاً حيث ساءه ما يتحدّث به الناس عن فضله وسعة علومه، وزهده وتقواه، وذهاب الشيعة إلى إمامته، وأنّه أحقّ بالخلافة وأولى بها منه، حاول اغتياله والقضاء عليه، إلّا أنّه باء بالفشل، ولم يصل إلى مرامه.

وهكذا فعل أركان السلطة الّذين حاولوا النيل من شخصيّة الإمام عليه السلام وكانوا يفتّشون بيته، ويجلبونه ليلاً إلى المتوكّل المغمى عليه من السكر والشراب بتهمة الإعداد للثورة والمواجهة، كما كانوا يسعون لإيجاد زعيم بديل عنه، وكلّ تلك المحاولات باءت بالفشل.

والتجأ الإمام عليه السلام إلى الله تعالى، وانقطع إليه، ودعا على المتوكّل بدعاء

(المظلـوم علـى الظالـم)، وهو مـن الكنوز المشرقـة عند أهـل البيت عليهم السلام.
واستجـاب اللّه تعالـى دعاء وليّه فقصـم ظهر عدوّه وانتقم منـه كأشدّ ما يكون
الانتقـام، فلـم يلبث المتـوكّل بعد هذا الدعاء سـوى ثلاثة أيّام حتّـى أودى اللّه
بحياته، وجعله أثراً بعد عين. ونعرض - بإيجاز - إلى كيفيّة هلاكه.

المؤامرة على المتوكّل وهلاكه

دُبّـرت المؤامرة على المتوكّل للقضاء عليه بإحـكام، وأحيطت بكثير من السرّ
والكتمـان. وكان من أعضاء هذه المؤامرة ولـده المنتصر- الّذي كان حاقداً على
أبيه بسبب احتقاره وازدرائه له. وتنقل الروايات أنّ المنتصر كان بعكس أبيه شديد
الميل لأمير المؤمنين عليه السلام - وكذلك «**وصيف التركيّ**» الّذي كان ذا منصب عالٍ
في الدولة، و«**بغا التركيّ**» ونفّذ هؤلاء المؤامرة في غلس الليل البهيم.

تمثّلـت فصول المؤامـرة بغلق أبواب القصـر، وقتل الفتح بـن خاقان رئيس
الـوزراء، ثمّ الإشاعة بين الجماهير أنّ الفتـح قام بانقلاب عسكريّ فاشل، وقد
قتل الخليفة المتوكل، وأنّ المنتصر أخمد ذلك الانقلاب، وقتل الفتح ثأراً لأبيه..
وبـدأ التنفيذ للمخطّط بهجوم الأتراك على المتوكّل يتقدّمهم «**باغر التركيّ**»[1]
وقـد شهروا سيوفهم. وكان المتوكّل ثملاً سكـران وذُعر الفتح بن خاقان فصاح
بهم «**ويلكم أمير المؤمنين**» فلم يعتنوا به، ورمى بنفسه عليه ليكون كبش الفداء
لـه إلّا أنّه لم يغن عن نفسه ولا عنه شيئاً، وأسرعوا إليهما، فقطّعوهما بسيوفهم
إربـاً إرباً، بحيث لم يعـرف لحم أحدهما من الآخر، ودفنـا معاً، وبذلك انطوت
أيّام المتوكّل الّذي كان من أعدى الناس لأهل البيت عليهم السلام.

وتسلّـم المنتصر الخلافة وسلك سياسة رشيدة، وردّ فدك إلى العلويّين ورفع
الحَجْـرَ عن أوقافهـم، وسمح للنـاس بزيـارة مرقد أميـر المؤمنين عليه السلام ورفع

(١) وهو غير «بغا التركي».

الحَجْرَ عن زيارة الإمام الحسين عليه السلام[١].

ولكن ما لبث الأتراك أن تحايلوا عليه مع كونه مهيباً متحرّزاً، فدسّوا إلى طبيبه ابن طيفور ثلاثين ألف دينار لقتله، ففعلها الطبيب.

ومن بعده تسلّم الخلافة المستعين الّذي خلعه الأتراك بعد فترة، وبايعوا أخاه المعتزّ بدلاً عنه، وكان المعتزّ مستضعفاً من قبل الأتراك وألعوبة بأيديهم.

ويذكر المؤرّخون الموقف الاستبداديّ للمعتزّ ضدّ آل محمّد صلى الله عليه وآله وسلم واضطهاد شيعتهم، ومن ذلك: قتله لجعفر بن محمّد الحسينيّ في واقعة حدثت بالريّ بينه وبين أحمد بن عيسى عامل محمّد بن طاهر[٢]، وقتله لإبراهيم بن محمّد العلويّ، وقتله طاهر بن عبد الله في واقعة كانت بينه وبين الكوكبيّ بقزوين[٣]، وهناك من مات في الحبس، مثل عيسى بن إسماعيل الجعفريّ وأحمد بن محمّد الحسينيّ[٤].

الثورات في عصر الإمام الهادي عليه السلام

الثورات العلويّة كانت هاجس الحكّام ومثار مخاوفهم، ولذا وقف العبّاسيّون منها موقفاً صارماً، يحاولون إجهاضها قبل أن تستفحل وتشتدّ عليهم، ويطاردون فلولها لشرذمتها والتخلّص منها.

وأهمّ ما يميّز عصر الإمام الهادي عليه السلام هو ضعف الخلافة العبّاسيّة وسقوط هيبتها لاستيلاء الأتراك على العاصمة، والعمّال والأمراء على الأطراف. ونتيجة لذلك كان الخليفة مسلوب الإرادة يُحرَّك من قبل قوّاده الّذين كان بأيديهم زمام السلطة[٥].

(١) الكامل في التاريخ، م.س: ١٠/٣٤٩.
(٢) مقاتل الطالبيّين، م.س: ٤٣٤.
(٣) م.ن.
(٤) م.ن.
(٥) الكامل في التاريخ، م.س: ٦/٧٣.

واتّسم الوضع بعدم الاستقرار وازدياد الاضطرابات وكثرة الخارجين على السلطة وكثرة الوثبات في الأمصار، فكان للخوارج نشاط ملحوظ قويّ ومدعّم بالمال والسلاح. كما نجد أنّ مجموعة من الأقاليم قد حدثت فيها انتفاضات ضدّ السلطة كما حصل في الأردنّ بقيادة رجل من لخم. وكانت في حمص وثبة أخرى ضدّ عاملها كيدر الأشروبينيّ، وكذا وثبة الجند في سامرّاء فضلاً عن حدوث ثورات أخرى منها: ثورة يحيى بن عمر بن الحسين بن زيد بن علي بن الحسين بن أبي طالب عليه السلام. وقد انطلقت هذه الثورة من كربلاء باتّجاه الكوفة وكان شعارها الدعوة إلى «**الرضا من آل محمّد** صلى الله عليه وآله وسلم»، وعُرف يحيى بحُسن السيرة وأظهر العدل حتّى قتل[١].

أمّا موقف الإمام الهادي عليه السلام تجاهها وسواها من الأحداث فيمكن معرفته من حقيقة وجوهر مواقف الأئمّة الّذين تركوا العمل المسلّح والاصطدام المباشر لثوار علويّين، لتحريك ضمير الأمّة وإرادتها وتحصينها ضدّ الانحراف، وحاولوا بتضحياتهم المتتالية أن يحافظوا على الضمير الإسلاميّ والإرادة الإسلاميّة من الانهيار. والأئمّة عليهم السلام كانوا بدورهم يساندون المخلصين من الثائرين، إمّا بشكل مباشر أو من خلال تعاليمهم الّتي كانت تؤثّر في نفوس قواعدهم الموالية ممّا يؤدّي إلى إعلان العصيان المسلّح على الدولة.

ولأجل الدقّة والموضوعيّة في البحث لا نستطيع القول إنّ كلّ الثوّار العلويّين كانوا ثائرين على أساس الوعي الإسلاميّ في تطبيق أحكام الإسلام وتحت قيادة الإمام المعصوم عليه السلام وإن كان الاعتقاد أنّ غرض أكثر الثوّار هو ذلك[٢].

(١) مقاتل الطالبيّين، م.س: ٤٢٠.

(٢) تاريخ الغيبة الصغرى، السيّد محمّد الصدر: ٨٠٠.

الإمام الهادي عليه السلام والأتراك

إنّ الحديث عن موقف الإمام الهادي عليه السلام تجاه الأتراك يتّضح لنا من خلال نقطتين:

الأولى: كان للأتراك دور كبير ومؤثّر في الحياة العامّة يبدأ بالتأثير في السياسة المتّبعة وتغيير الخليفة وعزله وتنصيبه، إلى أبسط الأمور ذات العلاقة بسياسة الدولة والمجتمع.

الثانية: أنّ الأتراك لم يكونوا من موالي الإمام عليه السلام وشيعته بل إنّهم كانوا القوّة الضاربة للدولة ويدها وعقلها المدبّر. وكان الأتراك على قسمين: القوّاد والأمراء، وعامّة الجند. وكان بيدهم إعلان الحرب والسلم مع أيّ شخص في أطراف الدولة. وكانوا يخوضون الحرب في الجيش الممثّل للدولة، وهو المنتصر في الحرب غالباً. وبذلك يغنم الأتراك ومن يليهم أموالاً طائلة على حساب المظلومين المقهورين تحت وطأة الحروب.

ولم يكن الإمام عليه السلام ليوافق على تصرّفاتهم الّتي لم تكن قائمة على شيء من تعاليم الدِّين والعدل الإسلاميّ، وبخاصّة أنّه يعلم موقفهم ضدّه وضدّ مواليه حتّى أنّ الخليفة كان يستخدمهم في الهجوم على دار الإمام وحبسه. ومن هنا ينبثق موقفه عليه السلام حيث كان موقفاً حكيماً جدّاً مراعياً فيه ظروفهم وموقعهم السياسيّ والاجتماعيّ.

إنّ جهود الإمام عليه السلام في هذا الاتّجاه قد أثمرت بعض الشيء في تقريب بعضهم إليه وإيمانهم بفضله، وربّما بإمامته. وكانت جهوده عليه السلام متواصلة في ذلك[1].

(١) تاريخ الغيبة الصغرى، السيّد محمّد الصدر: ١٥٨ ـ ١٥٩، بتصرّف.

خلاصة الدرس

- كانت إمامة الإمام الهادي عليه السلام المصداق الثاني لظاهرة الإمامة المبكرة حيث تسلّم الإمامة وعمره حوالي الست سنوات.
- عاش الإمام عليه السلام اثنتين وعشرين سنة في مدينة جدّه صلى الله عليه وآله وسلم، وحُمل على هجرتها سنة (٢٣٤هـ) إلى سامرّاء وبقي فيها عشرين سنة إلى شهادته.
- اتّسم عصر الإمام الهادي عليه السلام بانتشار الفوضى وفقدان الأمن. وقد أدرك حكم المأمون ثمّ المعتصم، والواثق والمتوكل، والمستنصر والمستعين واستشهد في زمن المعتزّ العبّاسيّ.
- تسلّط الأتراك على السلطة العبّاسيّة وأمسكوا بزمام الأمور، وكانوا يولّون من يشاؤون ويعزلون من أرادوا.
- أمر المتوكّل العبّاسيّ بحمل الإمام الهادي عليه السلام إلى سامرّاء لأجل مراقبة تحرّكاته، ولوشاية بعض عمّاله الّذين كانوا يرون في الإمام منافساً لهم.
- اعتمد المتوكّل سياسة البغض لآل البيت عليهم السلام، والحطّ من شأن الإمام الهادي عليه السلام والتقليل من أهمّيته، والتضييق عليه، ووضعه في السجن.
- هلك المتوكّل على يد ولده المنتصر الّذي حاول انتهاج سياسة مغايرة لسياسة أبيه، فردّ فدك للعلويّين.
- تسلّم المعتزّ العبّاسيّ الحكم من بعد المستعين ووقف موقفاً معادياً لآل البيت عليهم السلام.
- قامت الثورات العديدة في عصر الإمام الهادي عليه السلام في العديد من مناطق الخلافة.



الدرس

الواحد والعشرون

الإمام الهادي عليه السلام وتأصيل الفكر الدينيّ



أهداف الدرس:

١. أن يتبيّن الطالب مواجهة الإمام الهادي عليه السلام للفرق الضالّة.

٢. أن يتبيّن دور الإمام الهادي عليه السلام في تأصيل الفكر الدينيّ.

الإمام الهادي عليه السلام وغلاة الشيعة

لم تكن المشــاكل الداخليّة الّتي واجهها الشيعة بأقلّ من المشاكل الّتي كانت تضغــط من خارج المجتمــع الشيعيّ، خاصّة وأنّ المشــاكل الداخليّة نفسها كان لهــا أكبر الأثر فــي إيجاد المشاكل الخارجيّة. لذا فقد بــذل أئمّة الشيعة جهوداً مضنيــة في سبيل تنقيــة الفكر الشيعيّ مــن انحراف الغــلاة، وتنحية المغالين عــن مذهب الحقّ. إلّا أنّ الغــلاة كانوا ينسبون أنفسهم للأئمّــة لدوافع انتهازيّة ونفعيّــة، أو بسبب تفكيرهــم الخاطىء، بل وكانوا يتصــوّرون تصدّي الأئمّة لهم نوعــاً من التقيّــة. وأمّا في المناطق البعيــدة فلولا وجود العلــوم الشيعيّة والفقه الشيعــيّ لانخدع الكثير منهم بادّعــاءات الغلاة، ولكان لذلــك تأثيره الكبير في تشويه سمعة الشيعة في أذهان الفرق الأخرى.

واصطدم الإمام الهادي عليه السلام - كما هو الحال بالنسبة لسائر الأئمّة عليهم السلام - بالغلاة، وكان من بين أصحابه من يدّعي نفس ذلك الادّعاء.

فقــد كان أحمد بن عيسى من علماء الشيعة المعتدلين، وكان شديد التمسّك بالأئمّة عليهم السلام، ويعارض أي نوع من الغلوّ، وكتب مرّة إلى الإمام عليه السلام يسأله عن

معتقـدات وأفكار تُنســب إليه، وهي ممّا تشمئز منه النفوس، وفي رسالته يقول للإمام عليه السلام: (... ولا يجوز لنا ردّها إذا كانوا يروون عن آبائك عليهم السلام ولا قبولها لما فيها).

فكتب عليه السلام: «**ليس هذا ديننا فاعتزله**»[1].

وللإمام عليه السلام ردود كتبها ردّاً على معتقدات الغلاة من أمثال عليّ بن حسكة. وبعض الأحيـان كان يَرِدُ اللعـن منه عليه السلام عليهم. وأعلـن عليه السلام في كتاب آخر غضبه على ابن بابا القمّيّ وقال: «**لقد ظنّ أنّي بعثته نبيّاً وأنّه بابي**». وقال عنه أيضـاً: «**إذا قدرتـم عليه فاقتلوه**»[2]. وقد ادّعى محمّـد بن نصير النمير النبوّة – وهـو رئيس فرقة النميرة أو النصيريّة[3] – وأشاع أنه قد أُرسل نبيّاً من جانب الإمام الهادي عليه السلام...

ومن أصحـاب الإمام الهادي عليه السلام الّذين تحوّلوا إلـى غلاة أحمد بن محمّد السياريّ الّذي حكم أغلب من كتب في رجال الشيعة بغلوّه واعتبروه فاسد المذهب، فهو قد ألّف كتاب «**القراءات**» الذي يضمّ الكثير من الروايات الّتي تقول بتحريف القرآن. ومن المؤكّد أنّ مثل هذا الكتاب لا يحوي سوى أقاويل باطلة.

الإمام الهادي عليه السلام وأصالة القرآن

من الانحرافات الّتي أشاعها غلاة الشيعة وأساؤوا فيها إلى سمعة هذا المذهب على مرّ التاريخ قضيّة تحريف القرآن، وهي القضيّة الّتي تمسّ أهل السنّة أيضاً، نظراً لاحتواء كتبهم على بعض الأحاديث الدالّة على تحريف القرآن.

وفـي نفس الوقت لـم يكن بين أهل السنّة ولا بين الشيعـة الإماميّة من يعتقد

(١) رجال الكشي، م. س: ٥١٨ـ ٥١٩.
(٢) م.ن: ٥١٨ـ ٥١٩.
(٣) فرقة النصيريّة من فرق غلاة الشيعة، وهم يعرفون الآن باسم (العلويّة) و(النصيريّة).

بتحريـف القرآن، بل كانوا على العكس من ذلك يعارضون هذا الأمر بشدّة. ومع ذلـك فإنّ الّذي يظهر في كتـاب (الانتصار) للخيّاط المعتزليّ شيوع نسبة تهمة تحريـف القرآن إلى الشيعة علـى الألسن. وكان أئمّة الشيعة عليهم السلام إزاء مثل هذه الاتّهامات الباطلة يعطون الأصالة للقرآن دوماً في مقابل الروايات، ويعتبرون كلّ حديـث مخالف للقرآن باطلاً. كما كان الكثير من أهـل السنّة يعتقد بنفس هذا المبـدأ أيضاً. فقد نقل ابـن شعبة الحرّانيّ صاحب كتاب (تحف العقول) رسالة مستفيضـة عن الإمام الهادي عليه السلام يؤكّـد فيها بشدّة على أصالة القرآن، وكونه المعيـار لقياس صحة الروايات، إضافة إلى اعتبـار القرآن النصّ الوحيد الّذي تتّفق جميع الفرق والمذاهب على الاعتقاد به.

وقد قسّم الإمام عليه السلام أوّلاً الأخبار إلى صنفين:

الأوّل: الأخبار الصحيحة الّتي يلزم اتّباعها والإقرار بها.

الثاني: الأخبار المنافية للحقّ والّتي يلزم اجتنابها وعدم قبولها.

ثـمّ أشـار عليه السلام إلى إجماع الأمّة على أنّ القرآن حـقّ وأنّه لا تشكّ فيه فرقة. ثـمّ قال: فإذا وافق القرآن خبراً فلم تقبله جماعة فالحقّ قبوله والإقرار به، فإنّ الكلّ مجمعون على صحّة القرآن، ثمّ مثّل لذلك بخبر الثقلين..[1].

موقف الإمام الهادي عليه السلام من فتنة خلق القرآن

إنّ مـن أهـمّ القضايا الّتي تعرّضـ لها العالم السُنّيّ فـي بداية القرن الثالث الهجريّ، وأدّت به إلى التشتّت والفرقة قضيّة الصراع على مسألة خلق القرآن أو قدمه. وهذه المسألة أشاعها أحمد بن أبي داوود، وتبعه على ذلك المأمون الّذي عمّـت الأمّة فتنة كبرى في زمانه، وتبعه المعتصم والواثق بامتحان الناس بخلق

(١) تحف العقول، م.س: ٣٣٨ ـ ٣٥٦.

القرآن. وكأنّ هذه المسألــة مسألة يتوقّف عليها مصير الأمّة الإسلاميّة. وسعى هؤلاء الحــكّام إلى إكراه جميع العلماء والمحدّثين علــى الاعتقاد بخلق القرآن، وسمّيت هذه القضيّة تاريخيّاً باسم محنة القرآن.

وكان أحمد بن حنبل على رأس أهل الحديث الّذي يعتقدون بعدم خلق القرآن، وتعرّضـ إثر ذلك للكثير مـن الضغط من جانب الحكومــة العبّاسيّة. وفي نفس الوقـت لمّــا جاء المتوكّل من بعـد المعتصم عاضد ابن حنبل وتـآزرا على إنهاء القضيّة لصالح مذهب ابن حنبل.

ولقـد دخلت جميع المذاهب والفرق في ذلك المعترك، وأظهر كلّ واحد منها وجهـة نظـره الخاصّة في هــذا الموضوع. لكـنّ روايات أهل البيــت عليهم السلام وآراء أصحــاب الأئمّة لم تبحث في هذه القضيّــة بل التزموا الصمت إزاءها. وقد بيّن الإمــام الهادي عليه السلام الــرأي السديد في هذه المنــاورة السياسيّة الّتي ابتدعتها السلطة؛ فقد روي عنه أنّه كتب إلى بعض شيعته ببغداد:

«**بسم الله الرحمن الرحيم؛ عصمنا الله وإيّاك من الفتنة، فإن يفعل فأعظم بها نعمة وإلّا يفعل فهي الهلكة. نحن نرى أنّ الجدال في القرآن بدعة اشترك فيها السائل والمجيب، فتعاطى السـائل ما ليس له وتكلّف المجيب ما ليس عليه، وليس الخالق إلّا الله وما سـواه مخلوق، والقرآن كلام الله، لا تجعل له اسماً مـن عندك فتكون من الضـالين. جعلنـا الله وإيّاك من الّذين يخشـون ربّهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون**»[1].

وفــي رواية عن الإمام الباقـر عليه السلام يقول: «**لا خالق ولا مخلوق، ولكنّه كلام الخالق**»[2].

(١) أمالـي الصـدوق، م.س: ١/٤٨٩، وهناك نصّ يشير إلى موقف الأئمّة عليهم السلام مـن هذه المسألة، قال أبو هاشم الجعفري: خطـر ببالـي أنّ القـرآن مخلوقٌ أم غيـر مخلوق، فقال أبـو محمّد عليه السلام: «**يا أبا هاشم: الله خالقُ كلّ شيء، وما سواه مخلوق**» المناقب: ٢/٤٦٧.

(٢) بحار الأنوار، م. س: ٨٩/١٢١.

ومــن الطبيعــيّ أنّ مثل هذا الكتاب، ومــا شـابهه من مواقــف، أدّى إلى عدم تورّط الشيعة في هذه المحنة الّتي لا نهاية لها.

ثقافة الزيارة في تراث الإمام الهادي عليه السلام

إنّ تركيــز أسس الإمامــة والولاية وتقويض دعائم الظلــم والاستبداد يفرض الالتفــات إلى أمر هامّ هــو أنّ المذهب الشيعيّ غنيّ بثقافــة الزيارة. وأمّا سائر الفــرق الإسلاميّة فهي لا تمتلك ما يمتلكه الشيعة من هذا التراث الغنيّ، وهكذا الحال بالنسبة إلى الأدعية المرويّة عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام.

وهذا ما يعكس الصورة الباطنيّة للتشيّع والّتي خلقت العرفان الشيعيّ، وبلورت لدى المجتمع الشيعيّ مبادىء الإخلاص الدينيّ وتزكية النفس.

وتعــدّ ظاهرة الزيــارة للأئمّة عليهم السلام إحــدى وسائل الإمــام الهادي عليه السلام في إيصال المفاهيم الفكريّة والروحيّة لشيعته ومواليه من أجل تركيز هذه المفاهيم السليمــة وتنمية الجانب الروحيّ والفكريّ لأصحابه. وهذه الوسيلة لا تُثير الشكّ والريب مع سهولتها في الانتشار وظهور أثرها في الأمّة.

ومــا ورد عن الإمام الهادي عليه السلام وحفظه لنــا التاريخ من الوثائق المهمّة في هذا المضمار ما يلي:

١. الزيارة الجامعة.

٢. زيارة أمير المؤمنين عليه السلام في يوم الغدير.

٣. زيارات متعدّدة للأئمّة عليهم السلام.

ونحــاول هنا إلقاء الضوء على دلالات ومضامين الزيارة الجامعة ليتّضح من خلال ذلك أهميّة هذا الأسلوب في التربية.

تأمّلات في الزيارة الجامعة

هي مـن أشهر زيارات الأئمّة الطاهرين عليهم السلام وأعلاها شأناً، وأكثرها ذيوعاً وانتشـاراً، فقد أقبل أتباع أهل البيـت عليهم السلام وشيعتهم على حفظها وزيارة الأئمّة بها خصوصاً في يوم الجمعة.

أمّـا سند الزيـارة الجامعة فقد حاز درجة عالية مـن الصحّة، حيث رواها الشيـخ الطوسيّ فـي (التهذيب)، ورئيسـ المحدّثين الصدوق فـي (الفقيه) و(العيـون) وغيرهمـا، وقـال العلّامـة المجلسيّ: إنّ هـذه الزيارة مـن أصحّ الزيـارات سنـداً، وأعمقها مـورداً، وأفصحها لفظـاً وأبلغها معنـى، وأعلاها شأنـاً[1].

وقـد روى هذه الزيـارة محمّد بن إسماعيل البرمكـيّ عن موسى بن عبد الله النخعـيّ عن الإمام علـيّ الهادي عليه السلام، وهـي تفيض بالأدب الرائـع، وبجواهر الفصاحة والبلاغة، وجمال التعبير ودقّة المعاني، الأمر الّذي يدلّل على صدورها عن الإمام عليه السلام.

واهتـمّ العلماء اهتماماً بالغـاً بشرح الزيارة الجامعة لمـا فيها من المطالب العالية، والأسرار المنيعة، والأمور البديعة.

محتوياتها: الدعوة إلى التشيّع والاتّباع الكامل لأهل البيت عليهم السلام.

تعتبر زيارة الجامعة الكبرى من النتاجات المهمّة للإمام الهادي عليه السلام، ومن الوثائـق الّتي نستلّ منها ملامح التصـوّر السليم للفكر الدينيّ، وفي استعراضنا للزيـارة وتركيزنـا علـى الأفـكار الأساس فيهـا تتجلي لنـا المنهجيّـة الحركيّة والفكريّة، أمّا أبرز مضامينها فهي:

(١) راجع: بحار الأنوار، م. س: كتاب المزار.

١ - اصطفاء أهل البيت عليهم السلام

ففـي قولـه عليه السلام: «**السـلام عليكـم يا أهـل بيت النبـوّة، وموضـع الرسـالة ومختلف الملائكة ومهبط الوحي...**» يلفت الإمام عليه السلام الأنظار إلى ما يلي:

أ - أنّ اللّه اختصّ أهـل البيـت عليهم السلام بكرامته فجعلهم موضـع الرسالة ومختلف الملائكة.

ب - أنّ هـذا الجعـل الإلهيّ نابع من الصفات الكماليّـة الّتي يبلغون القِمّة فيها كالعلم والحلم والكرم والرحمة.

ج - كـون أهـل البيـت موضـع الرسالة إنّما هـو لاختيار اللّه لهـم ونتيجة لتكاملهم وتعيينهم كأمناء لمنصب القيادة العليا للبشريّة، فهم دعائم الأخيار وساسة العباد وأركان البلاد.

٢ - حركة أهل البيت عليهم السلام

من الأمور المستفادة من الزيارة الجامعة أنّ المسيرة البشريّة تنقسم دائماً إلى خطّين هما: خطّ الهدى، وخطّ الضلالة، بقيادة أئمّة الهدى وأئمّة الضلالة. وأئمّـة أهـل البيـت عليهم السلام هم أئمّـة الهدى. أمّـا غيرهم ممّن تصـدّى للإمامة ويخالفهـم في خطّهم ونهجهم فهو من أئمّة الضـلال. فلذلك لا يكون التلقّي إلّا منهـم ولا يكـون نهج التحـرّك إلّا نهجهم، لذا يقول عليه السلام: «**السـلام علـى أئمّة الهدى ومصابيح الدجى وأعلام التقى وذوي النهى...**».

فالأئمّة هم: «**ذوو الحجى وكهف الورى وورثة الأنبياء والمثل الأعلى...**».

ومـن خلال هذه المقاطع يشيـر الإمام عليه السلام إلى أنّ حركة أهل البيت عليهم السلام حركـة أصيلة ذات عمق فـي المسيرة النبويّة الراشدة. وكلّ حركة تدّعي المنهج الدينـيّ أو الإصـلاح الدنيويّ ولا تسير على خطاهم فهي منحرفة لأنّ أهل البيت عليهم السلام محـلّ معرفة اللّه ومساكن بركته ومعادن حكمته وحفظة سرّه وحملة كتابه وأوصياء أنبيائه.

٣ - الأسس الفكريّة للتشيّع

يحدّد الإمام الهادي عليه السلام الأسس الفكريّة الّتي تقوم عليها دعوة أهل البيت عليهم السلام والّتي يجب أن تسير الحركة الشيعية عليها وتلتزم حدودها من خلال قوله: «**السلام على الأئمّة الدعاة والقادة الهداة والسادة الولاة والذادة الحُماة وأهل الذكر وأولي الأمر وبقيّة الله وخيرته وحزبه وعيبة علمه وحجّته على صراطه ونوره وبرهانه ورحمة الله وبركاته**».

ومن المفاهيم الّتي أكّدت عليها الزيارة:

١. الإيمان بإيابهم (إشارة لأهل البيت) وقيام دولتهم.
٢. أهميّة زيارة قبورهم.
٣. أهميّة الإيمان بسرّهم وعلانيتهم.
٤. أهميّة الاستعداد لنصرة دولتهم لحدّ التمكين في الأرض.
٥. أهميّة البراءة من عدوّهم.
٦. أهميّة الإيمان بالرجعة.
٧. فرح المؤمن بما رزقه الله على يد أهل البيت واعتقاده لهذا المعنى.
٨. وحدة المسلمين السليمة لا تتمّ إلّا تحت لوائهم عليهم السلام.
٩. الإيمان بهم لا يكون عاطفياً بل يكون عن وعي وإدراك وبحث وتمحيص.

الإمام الهادي عليه السلام والتمهيد لظهور المهديّ عليه السلام

تمثّل هذا الأمر بقيام الإمام الهادي عليه السلام ومن بعده ولده الإمام العسكريّ عليه السلام بالحدّ من الاتّصال المباشر بالشيعة، والاحتجاب عن اللقاء بهم شيئاً فشيئاً لتمهيد الأرضيّة اللازمة لغيبة الإمام المهديّ عجّل الله فرجه الشريف. هذه الحقيقة تتّضح بجلاء من ثنايا كلمات المؤرّخ المسعوديّ في «**إثبات الوصيّة**» حيث يقول:

«**إنّ أبا الحسن الهادي صاحب العسكر احتجب عن كثير من الشيعة إلّا عن عدد يسير من خواصّه، فلمّا أفضى الأمر إلى أبي محمّد** عليه السلام**، كان يكلّم شيعته الخواصّ وغيرهم من وراء الستر إلّا في الأوقات الّتي يركب فيها إلى دار السلطان**»[1].

فهذان الإمامان عليهما السلام ظلّا محتجبين عن الشيعة قسراً أو طوعاً نظراً لتعرّضهما لمراقبة شديدة في سرّ من رأى، ولقرب عصريهما من عصر الغيبة. وقد اقتصر اتصالهما بالشيعة على طريق المكاتبات والتوقيعات والوكلاء، الأمر الّذي يفسّر لنا كثرة المكاتبات، قال أحمد بن إسحاق القميّ: «**دخلت على أبي محمّد** عليه السلام **فسألته أن يكتب لأنظر إلى خطّه فأعرفه إذا ورد**»[2].

من هنا كانت جماعة من الشيعة تغتنم الفرصة وتلتقي بالإمام عليه السلام عند مسيره إلى دار الخلافة كلّ أسبوع. ومن جملة ما قام به الإمام الهادي عليه السلام وكذلك الإمام العسكريّ عليه السلام في تلك المرحلة لتمهيد الأرضيّة الفكريّة المناسبة للشيعة للدخول في عصر الغيبة إصدار الأحاديث العديدة بشأن الغيبة وولادة الإمام الحجّة عجّل الله فرجه الشريف، وإرجاع الشيعة إلى الوكلاء، وتأييد بعض الكتب الفقهيّة والروائيّة. وبهذه الصورة مهّدوا الأرضيّة لتحمّل ظروف وشرائط ما بعد الغيبة، والاتّصال غير المباشر بالإمام عليه السلام. وهذا الأسلوب ذاته قد اتّبعه الإمام الثاني عشر - كما يتّضح لنا لاحقاً - في زمن الغيبة الصغرى ليهيّئ الشيعة لعصر الغيبة الكبرى بالتدريج. ومن هنا تميّزت النصوص الواردة عن الإمام الهادي عليه السلام في ذلك الظرف العصيب والّتي جاءت لتؤكّد الإمامة من بعده لولده الحسن العسكريّ عليه السلام، منعاً من محاولات السلطة لجعلها في ولده محمّد المعروف بأبي جعفر، وكذلك لحفيده المهديّ عجّل الله فرجه الشريف.

(١) إثبات الوصية، م.س: ٢٣١.

(٢) المناقب، م.س: ٣/٥٣٣.

ويمكن لنا تصنيف النصوص الّتي وصلتنا عن الإمام الهادي عليه السلام من الناحية التاريخيّة حول الإمام من بعده إلى عدّة طوائف:

١. النصوص الّتي صدرت قبل وفاة ابنه محمّد المعروف بأبي جعفر، والّتي تضمّنت نفي الإمامة عنه، والنصّ على إمامة ولده الحسن عليه السلام، والوصيّة له بالصلاة عليه.

٢. النصوص الّتي صدرت حين وفاة ابنه محمّد، والّتي تشير إلى وفاته قبيل استشهاد الإمام الهادي عليه السلام بقليل (قبل سنة أو سنتين).

٣. النصوص الّتي صدرت بعد وفاة أبي جعفر والّتي ليس فيها دلالة على إمامته.

٤. النصوص الّتي صدرت قبيل استشهاد الإمام الهادي عليه السلام، والّتي فيها ينصّ الإمام عليه السلام على الوصيّة بالإمامة لولده العسكريّ عليه السلام.

خلاصة الدرس

- اصطدم الإمام الهادي عليه السلام بالغلاة. وكان من بين أصحابه من يدّعي هذه الادّعاءات وكان يصدر عنه اللعن تجاههم، والبراءة منهم.
- من الانحرافات الفكريّة الّتي شاعت في عصر الإمام عليه السلام وأساءت إلى المذهب الإماميّ اتّهامهم بالقول بانحراف القرآن الكريم. وقد تصدّى الإمام الهادي عليه السلام لهذه التهمة بحزم شديد.
- من المسائل الّتي عصفت بالأمّة الإسلاميّة قضية «**خلق القرآن**» حيث اختلفت الأمّة اختلافاً شديداً فيها. وكان موقف الإمام عليه السلام هو الحياد. وبهذا أمر أصحابه. وكان أحمد بن حنبل على رأس أهل الحديث الّذين

يعتقدون بعدم خلق القرآن وتعرّض للتنكيل بسبب رأيه إلى أن جاء المتوكّل وعاضده في هذا الرأي.

- من الثقافات الّتي أرسى جذورها الإمام الهادي عليه السلام ثقافة الزيارة. ونُقل عنه العديد من الزيارات والّتي كان من أهمها الزيارة الجامعة الّتي حازت على درجة عالية من الصحّة، وزيارة أمير المؤمنين عليه السلام في يوم الغدير، وزيارات متعدّدة للأئمّة عليهم السلام.
- انطوت الزيارة الجامعة على مفاهيم عالية مثل: اصطفاء أهل البيت عليهم السلام وحركتهم، والأسس الفكريّة للتشيّع.
- من الأدوار المهمّة الّتي قام بها الإمام عليه السلام مسألة التمهيد لظهور الإمام المهديّ عجل الله فرجه الشريف.



الدرس

الثاني والعشرون

الإمام العسكريّ عليه السلام والتمهيد لإمامة المهديّ عجل الله فرجه الشريف



أهداف الدرس:

١. أن يتبيّن الطالب إمامة الحسن العسكريّ عليه السلام وظروفها السياسيّة.

٢. أن يطّلع على بعض الثورات الّتي ظهرت في أيّامه.

٣. أن يستذكر طرق تمهيد الإمام عليه السلام لغيبة الإمام المهديّ وإمامته عجل الله فرجه الشريف.

إمامة الحسن العسكريّ عليه السلام وظروفها السياسيّة

تميّزت فترة إمامة الحسن العسكريّ عليه السلام بالأهميّة القصوى لأنّ مهمّتها كانت التمهيد لإمامة الإمام المهديّ عجل الله فرجه والنصّ على إمامته وتعريف الشيعة به والتمهيد لغيبته وربط الوكلاء به والتنسيق لاستمرار الارتباط الصحيح به، بحيث لا تنهار كلّ الأواصر الّتي أوجدها الأئمّة الأطهار مع شيعتهم، ولا يتفتّت الكيان الّذي أسّسوه على مدى قرنين ونصف من النشاط المباشر في تربية أتباعهم وضرورة الانتقال بهم من الارتباط المباشر إلى الارتباط غير المباشر، مع المحافظة على استقلال الكيان الشيعيّ في الوسط غير الشيعيّ الّذي يهدّد وجودهم... كلّ هذه النقاط تشير إلى دقّة وحراجة الظرف الّذي كان يعيشه الإمام الحسن العسكريّ عليه السلام، حيث كان عليه أن يقوم بكلّ التمهيدات اللّازمة خلال هذه الفترة القصيرة من مدّة إمامته والّتي لم تتجاوز الستّ سنوات، عاش خلالها الإمام عليه السلام ظروفاً حرجة لقيام العبّاسيّين بمراقبة تحرّكات المعصومين عن كثب ومحاولتهم السيطرة على كلّ نشاطاتهم وهم يتوقّعون كسائر المسلمين ولادة المهديّ المنتظر من نسل الحسين بن عليّ عليهما السلام.

من هنا ينبغي الوقوف بدقّة على كلّ الإجراءات الّتي قام بها الإمام الهادي عليه السلام لإعلان وتثبيت إمامة ابنه الحسن العسكريّ عليه السلام خلال فترة إمامته الّتي دامت ٣٤ سنة والّتي رافقها مثلَ نجله محمّد المعروف بالفضل وجلالة القدر، ووجود الأرضيّة للانشقاق داخل الخطّ الشيعيّ كما حدث ذلك في حياة الإمام الصادق عليه السلام بالنسبة لابنه إسماعيل.

وقد عاصر الإمام العسكريّ عليه السلام أعواماً عصيبة من الخلافة العبّاسيّة مع سلاطين مستبدّين توالوا على عرش الدولة منذ أن قدم سامرّاء مع أبيه الإمام الهادي عليه السلام أيّام المتوكّل عام (٢٤٣هـ).

وأهمّ ظواهر هذا العصر؛ النفوذُ الّذي تمتّع به الأتراك الّذين غلبوا الخلفاء في سلب زمام إدارة الدولة، وما اتّصفوا به من سلوك شائن في التعامل مع الأهالي، وقد اضطرّ سابقاً المعتصم لنقل عاصمة الخلافة من بغداد إلى سامرّاء بسبب سلوك الأتراك السيّئ وشكاية أهالي بغداد منهم، فضلاً عن قدرة الأتراك الّتي تمثّلت في خلع وتعيين الخلفاء[1].

ويمكن إجمال أهم مظاهر الحياة السياسيّة لذلك العصر الّذي عاشه الإمام العسكري عليه السلام بما يلي:

١. تدهور الوضع السياسيّ للدولة العبّاسيّة حيث تمّ استيلاء الموالي والّذين كان أغلبهم من الأتراك، وسيطرتهم على مقاليد السلطة في العاصمة والأمصار.
٢. اللّهو والمجون وحياة الترف الّتي كان يحياها الخليفة وأتباعه.
٣. حوادث الشغب والفتن الّتي حدثت في بغداد.
٤. الحركات الانفصاليّة في أطراف الدولة والّتي يعود سببها إلى ضعف

(١) الكامل في التاريخ، م.س: ٣٠١/٤.

سلطان الخليفة، وكثرة حوادث الخروج على الدولة. وقد أطلق المؤرِّخون على هـذا العصر عصر (إمـرة الأمراء)[1]، ثمّ عصر الـدول المستقلّة كمـا هو الحال بالنسبة لإمارة الحمدانيّين والبويهيّين والدولة الصفارية (٢٥٤هـ) والدولـة السامانيـة (٢٦١ - ٣٨٩هـ) وغيرها.. ممّـا أدّى إلى تفّكك وسقوط الدولة العبّاسيّة سنة (٦٥٦هـ).

الإمام العسكريّ عَلَيْهِ السَّلَامُ وحكّام عصره

عاصر الإمام العسكـريّ عَلَيْهِ السَّلَامُ ثلاثة من خلفاء الدولة العبّاسيّة هم: المعتزّ - المهتـدي - المعتمد. أمّا المعتزّ فقد كان مسلوب السلطة ضعيف الإرادة أمام الأتراك، ويتّضح ذلك ممّا رواه ابن طباطبا حيث قال: «**ولمّا جلس المعتزّ على سـرير الخلافة حضـر خواصّه وأحضـروا المنجّمين وقالوا لهم: انظروا كم يعيش وكم يبقى في الخلافة، وكان بالمجلس بعض الظرفاء فقال: أنا أَعرف مـن هؤلاء بمقـدار عمره وخلافته، فقالوا: فكم تقـول إنّه يعيش وكم يملك؟ قال: مهما أراد الأتراك. فلم يبق أحد إلّا ضحك**»[2].

والمعتـزّ هو قاتـل الإمام الهـادي عَلَيْهِ السَّلَامُ. وكانـت سياسته امتـداداً لسياسة المتـوكّل فـي محاربة أئمّـة أهل البيـت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ والشيعة. وقد خلعـه الأتراك عن الحكم وقتلوه لأنّه منعهم أرزاقهم.

أمّا المهتدي العبّاسي، فقد ولي الخلافة بعد مقتل أخيه المعتزّ سنة (٢٥٥هـ)، وتصنّـع الزهـد والتقشّف محتذياً سيـرة عمر بن عبد العزيـز، في محاولة منه لإغـراء النـاس وتغيير انطباعهم عـن الخلفاء العبّاسيّين، ولإبعـاد الأنظار عمّا تحلّـى به بنو هاشم وفي مقدّمتهم الإمام الحسـن العسكريّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، الّذي عُرف

(١) تأريخ الإسلام السياسي، د. حسن إبراهيم: ٣/٢٦ وما بعدها.
(٢) الفخري في الآداب السلطانيّة، ابن طباطبا: ٢٢١.

بتقواه وورعه ومواساته للأمّة في ظروفها القاسية. والشاهد على ذلك أنّ الظروف المحيطة بالإمام العسكريّ عليه السلام وأصحابه في عهد المهتدي لم تكن أحسن ممّا كانت عليه من الشدّة والنفي والتهجير والقتل إبّان عهدَي المعتزّ والمتوكّل ومن سبقهما من خلفاء الدولة العبّاسيّة.

ثمّ عاصر الإمام عليه السلام المعتمد العبّاسيّ، الّذي انهمك في اللّهو والملذّات واشتغل عن الرعية فكرهه الناس بشدّة. وكان المعتمد ضعيفاً قد وقع أيضاً تحت تأثير الأتراك وفي عصره وقعت أحداث مهمّة، منها:

١ - **ثورة الزنج:** بدأت في البصرة وامتدت إلى الأهواز وعبادان وغيرهما، وصحبها قتل ونهب، وسلب، وإحراق ممّا أدّى إلى اضطراب الأوضاع الاقتصاديّة والاجتماعيّة. وتمكّنت السلطة من القضاء على الثورة بعد أن كلّفها ذلك الكثير من الأموال والجند. وقد ادّعى صاحب الزنج عليّ بن محمّد أنه ينتسب إلى الإمام عليّ عليه السلام، ولكنّ الإمام العسكريّ عليه السلام كذّب هذا الادّعاء، وقال: «**صاحب الزنج ليس منّا أهل البيت**»[١].

٢ - **حركة ابن الصوفيّ العلويّ:** وقد ظهر في صعيد مصر إبراهيم بن محمّد من ولد عمر بن عليّ بن أبي طالب، ويعرف بابن الصوفيّ. وجرت معارك بينه وبين جيش الدولة بقيادة ابن طولون اقتتلوا فيها قتالاً شديداً فقتل من رجال ابن الصوفيّ الكثير وانهزم، ثمّ كانت وقعة أخرى مع جنده عام (٢٥٩هـ) وانهزم ابن الصوفيّ أيضاً إلى المدينة وأُلقي القبض عليه وأُرسل إلى ابن طولون في مصر[٢].

٣ - **ثورة عليّ بن زيد في الكوفة:** كانت حركته في الكوفة سنة (٢٥٦هـ) واستولى

(١) كشف الغمّة، م.س: ٢/٤٢٤.

(٢) الكامل في التاريخ، م.س: ٤/٤٣٢ - ٤٣٣.

عليهــا وأزال عنها نائب الخليفة، واستقــرّ بها. وسيّر إليه المعتمد الشاه بن مكيال في جيش كثيف فالتقوا واقتتلوا وانهزم الشاه وقتل جماعة كثيرة من أصحابه ثمّ وجّه المعتمد كيجور التركيّ لمحاربته. وقد أرسل كيجور إلى عليّ بن زيد يدعوه إلى الطاعة وبذل له الأمان وطلب عليّ بن زيد أموراً لم يجبه كيجور إليها، فخرج عليّ بن زيد من الكوفة وعسكر في القادسية فبلغ خبره كيجور فاشتبكا وانهزم عليّ بن زيد وقُتل جماعة من أصحابه[١].

إلى غير ذلك من الأحداث المهمّة الّتي وقعت آنذاك.

وسار المعتمد على نهج أسلافه وسعى بمحاولات عديدة للتخلّص من الإمام العسكريّ عليه السلام، ومنها لمّا أمر يحيى بن قتيبة الّذي كان يُضيّق على الإمام عليه السلام برميه عليه السلام للسباع ظنّاً منه أنّها سوف تقتله، إلّا أنّ يحيى أتاه بعد ثلاث ساعات فوجده يصلّي، والأسود حوله[٢].

التمهيد لإمامة الإمام المهديّ عجل الله فرجه الشريف

عمل الإمام العسكريّ عليه السلام على التمهيد لإمامة ولده الإمام المهديّ عجل الله فرجه الشريف عبر عدّة أساليب منها:

أ - كتمان ولادة الإمام المهديّ عجل الله فرجه الشريف

لقـد كتم الإمــام العسكــريّ عليه السلام ولادة الإمــام المهديّ عجل الله فرجه الشريف خوفـاً عليه من السلطــة الّتي كانت تنتظر ولادته وهي تعلــم أنّ المهديّ المنتظر هو ابن الحسن العسكــريّ عليه السلام، وأنّه المدّخــر للقضاء علــى الظلم وإنهــاء دور الاستبداد في الحياة وإقامة العدل والانتصار للمستضعفين.

وكان الإمـام العسكريّ عليه السلام، قد أمر خاصّة شيعته كأحمد بن إسحاق وغيره، حينما بشّرهم بولادته عليه السلام أن يكتموا أمره ويستروا ولادته عن

(١) م.ن: ٤/٤٤٧.

(٢) المناقب، م.س: ٣/٥٣٠.

الآخرين، فقال عليه السلام: **«ولد لنا مولود فليكن عندك مستوراً وعن جميع الناس مكتوماً»**[١].

كما أنّ الإمام الحسن العسكريّ عليه السلام قبيل ولادته قد بعث إلى **«حكيمة»** عمّته بنت الإمام الجواد عليه السلام ليلة النصف من شعبان وقال لها: **«يا عمّة اجعلي إفطارك عندي، فإنّ الله عزّ وجلّ سيسرّك بوليّه وحجّته على خلقه، خليفتي من بعدي»**.

قالت حكيمة: فتداخلني لذلك سرور شديد، وأخذت ثيابي عليّ، وخرجت من ساعتي حتّى انتهيت إلى أبي محمّد عليه السلام وهو جالس في صحن الدار وجواريه حوله، فقلتُ: جُعلت فداك يا سيدي، الخَلَفُ ممّن هو؟

قال: **«من سوسن»**.

فأدرت طرفي فيهنّ فلم أرَ جارية عليها أثر، غير سوسن[٢].

فترى الإمام العسكريّ عليه السلام مع ما اتّخذه من إجراءات احتياطيّة حول ولادة الإمام وأمره لمن اطّلع على ولادته المباركة، أن يكتم ما شاهد، أنّه عليه السلام كان يبشّر شيعته بولده المبارك وخليفته، ولكنّ ذلك كان في دائرة الجماعة الخلّص من شيعته ومواليه الّذين يؤتمنون على مثل هذا الأمر.

ب - إخبار خواصّ الشيعة بولادة الإمام المهديّ عجّل الله فرجه الشريف وعرضه عليهم

وممّن رأى الإمام الحجّة المنتظر بعد ثلاثة أيّام من ولادته من خواصّ الإمام العسكريّ عليه السلام عليّ بن بلال، ومحمّد بن معاوية بن حكيم، والحسن بن أيوب بن نوح وغيرهم، وقد قال لهم الإمام العسكريّ عليه السلام - بعد أن عرضه عليهم: **«هذا صاحبكم من بعدي وخليفتي عليكم، وهو القائم الّذي تمتدّ إليه الأعناق بالانتظار، فإذا امتلأت الأرض جوراً وظلماً خرج فملأها قسطاً وعدلاً»**[٣].

(١) كمال الدين، م.س: ٢/ ٤٣٤.
(٢) الغيبة، للشيخ محمّد بن الحسن الطوسي، ٢٤١. منشورات مؤسسة المعارف الإسلامية، إيران قم، ط١، ١٤١١هـ.
(٣) كمال الدين، م. س: ٢/ ٣٠٨.

وقد سـأل أحمد بن إسحاق الإمام العسكـريّ عليه السلام قائلاً: يا مولاي فهل من علامة يطمئنّ إليها قلبي؟ فنطق الغلام بلسان عربيّ فصيح فقال: «**أنا بقيّة الله في أرضه والمنتقم من أعدائه فلا تطلب أثراً بعد عين يا أحمد بن إسحاق**»، فقال أحمد بن إسحاق: فخرجت مسروراً فرحاً...[1].

ج - النصّ على إمامة المهديّ عليه السلام وغيبته والإشهاد على ذلك

قـدم وفـد من أربعيـن شخصاً مـن المواليـن لآل البيت عليهم السلام إلـى سامرّاء وحضـروا فـي بيت الإمـام العسكريّ عليه السلام ليسألـوه عن الحجّة مـن بعده، وفي مجلسـه أربعون رجلاً، فقام إليه عثمان بن سعيد بن عمرو العمريّ فقال: يا بن رسـول الله أريـد أن أسألك عـن أمرٍ أنت أعلم به منّـي، فقال عليه السلام: «**اجلس يا عثمـان**» وقـام مغضباً ليخرج، فقال عليه السلام: «**لا يخرجنّ أحد - فلم يخرج أحد - إلـى أن كان بعـد سـاعة، فصـاح عليه السلام بعثمان فقـام على قدميـه، فقال** عليه السلام: «**أخبركـم بمـا جئتم؟**». قالوا: نعم يا بن رسول الله، قال: «**جئتم تسـألونني عن الحجّـة من بعـدي**». قالوا: نعم، فإذا بالإمام المهديّ عجّل الله فرجه الشريف كأنّه قطعة قمر أشبه النـاس بأبي محمّد عليه السلام فقال الإمـام الإمام العسكريّ عليه السلام:

«**هذا إمامكم من بعدي وخليفتي عليكم أطيعوه. ولا تتفرّقوا من بعدي فتهلكوا في أديانكم، ألا وإنّكم لا ترونه من بعد يومكم هذا حتّى يتمّ له عمر، فاقبلوا من عثمان ما يقوله، وانتهوا إلى أمره واقبلوا قوله، فهو خليفة إمامكم والأمر إليه**»[2].

وقد اشتمل هذا النصّـ - بعد التعريف بالإمام المهديّ عجّل الله فرجه الشريف - على الإشارة إلى وكالة عثمان بن سعيد العمريّ، لأنّهم لا يرون الإمام المنتظر عجّل الله فرجه الشريف بعد رؤيتهم هذه، كما تضمّن النصّ على إمامته وأنّه الخلف والحجّة بعد الإمام العسكريّ عليه السلام.

---

(١) م.ن: ٢/٤٣١.

(٢) الغيبة، الطوسي، م.س: ٢١٧.

ولـم يترك الإمـام العسكـريّ عليه السلام فرصـة إلّا واستغلّها للنصّ علـى إمامة ولـده، والتعريف بأمره وبغيبته، بعد أن أسّـس لنظام الوكالة والنيابة عن الإمام المهديّ عجل الله فرجه الشريف.

خلاصة الدرس

- إمامة الإمام العسكريّ عليه السلام كانت التمهيد الأساس لولادة وإمامة الإمام المهديّ عجل الله فرجه الشريف.
- قام الإمام العسكريّ عليه السلام بتعريف الشيعة بالإمام المهديّ عجل الله فرجه الشريف، وغيبته، وربط الوكلاء به.
- عاصـر الإمام عليه السلام أعواماً عصيبة من الخلافـة العبّاسيّة مع سلاطين مستبدّيـن، تولّـوا حكم الدولة منـذ أن قدِم إلى سامرّاء مـع أبيه الهادي عليه السلام.
- مـن مميّزات عصر الإمـام عليه السلام استيلاء الأتراك علـى الحكم وتدهور الوضـع السياسيّ للدولـة العبّاسيّة، وسيطرة حيـاة اللّهو والترف، وكثرة حوادث الشغب والفتن، والحركات الانفصالية.
- حصلـت في عهد الإمـام عليه السلام ثورات عديدة منها: ثـورة الزنج، وحركة ابن الصوفيّ العلويّ، وثورة عليّ بن زيد في الكوفة.
- قام الإمام عليه السلام بإجراءات متعدّدة للتمهيد لإمامة المهديّ عجل الله فرجه الشريف منها:
  ١. كتمان ولادة الإمام المهديّ عجل الله فرجه الشريف.
  ٢. إخبار خواصّ الشيعة بولادة الإمام عجل الله فرجه الشريف وعرضه عليهم.
  ٣. النصّ على إمامته عجل الله فرجه الشريف وغيبته والإشهاد على ذلك.



الدرس

الثالث والعشرون

الإمام المهديّ عجل الله فرجه الشريف حقيقة دينيّة



أهداف الدرس:

١. أن يتبيّن الطالب حال الشيعة بعد شهادة الإمام العسكريّ عليه السلام.

٢. أن يستذكر الأدلّة على الإمامة العامّة والخاصّة.

٣. أن يتمكّن من دفع شبهات المنكرين للحقيقة المهدويّة.

الاختلافات بعد شهادة الإمام العسكريّ عليه السلام

إنّ المشاكل السياسيّة والكبت الّذي مارسه خلفاء بني العبّاس ضدّ أئمّة الشيعة، أحدثت نوعاً من الاضطراب وعدم الاستقرار في العلاقة بين الأئمّة وشيعتهم. وكانت هذه المشكلة تتفاقم بعد رحيل كلّ إمام وحلول آخر محلّه. وفي مثل هذه الأوضاع كان بعض الشيعة ينساق وراء الشكوك ويبقى حائراً في أمره، ويظلّ مثل هذا الوضع سائداً مدّة من الزمن حتّى تتقوّض تلك الفرق المنشقّة وتزول أفكارها المنحرفة، وتستتبّ الأوضاع للإمام الجديد.

وربما كانت بعض تلك المشاكل على درجة من الشدّة بحيث كانت تؤدّي إلى سلخ جماعة كبيرة من جسد الشيعة كما حصل بالنسبة للواقفيّة والفطحيّة والإسماعيليّة.

وتضاعفت هذه الأزمة بعد شهادة الإمام العسكريّ عليه السلام بسبب حصول الغيبة، وما سبقها من أحداث خفيّة مثل ولادة صاحب الزمان عجل الله فرجه الشريف والوصاية له بالإمامة. والسند الوحيد الّذي ارتكزت عليه إمامته في أحد جوانبها هو التراث الضخم من الأحاديث الموجودة في أساس قضيّة المهدويّة وما يتعلّق

بهـا، وارتكزت إمامتـه في جانب آخر على جهاز منظّم وقـويّ يتمثّل في عناصر الاتّصال الّتي تربط الإمام بشيعته.

وقـد أحصى الأشعريّ في كتابه (المقـالات والفرق) خمس عشرة فرقة، لكلّ واحدة منها معتقدها الخاصّ حول الوصيّ من بعد الإمام العسكريّ عليه السلام، حتّى أنّ بعضهم شكّ في الإمام الحادي عشر. وذكر النوبختيّ في بداية الأمر أسماء أربع عشرة فرقـة، وكذلك الشيخ المفيد[1]، ودوّن الشيخ الطوسيّ أيضاً الآراء المهمّة لتلك الفرق، وأبدى رأيه فيها من خلال الروايات والاستدلالات الكلاميّة[2].

ولو دمجنا الفرق الأربع عشرة تلك لاستخلصنا منها الفرق الأربع التالية:

١. **الواقفيّـة:** وهـم الّذين اعتقدوا بعدم وفاة الإمام العسكريّ عليه السلام وأعلنوا أنّه حيّ، وأنّه المهديّ.

٢. **الجعفريّـة:** وهـم الّذين قالوا بإمامة جعفر بن علـيّ الهادي الّذي يسمّيه الإماميّة (الكذّاب).

٣. **المحمّديّة:** وهم الّذين اعتقدوا بإمامة الإبن الأكبر للإمام الهادي عليه السلام، أي محمّد، الّذي توفي في حياة أبيه وأنكروا إمامة الحسن العسكريّ عليه السلام.

٤. **الإماميّـة:** وهـم الّذين يؤلّفون أكثريّة الشيعـة. ويؤكّد الشيخ المفيد عدم بقاء أيّ من هذه الفرق سوى الفرقة الإماميّة.

أدلّة وجود وإمامة المهديّ عجّل الله فرجه الشريف

اتّفـق المسلمون على خروج المهديّ عجّل الله فرجه الشريف في آخر الزمان، وأنّه من ولد الإمام عليّ وفاطمة عليهما السلام، وأنّ اسمه كاسم النبيّ الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم. والأخبار في ذلك متواترة عنـد الشيعة والسنّة، فالاعتقـاد بالمهديّ عجّل الله فرجه الشريف هو من ملّة الإسلام ومتواتراته بل

(١) راجع: المقالات والفرق للنوبختي، م.س: ١٠٢ ـ ١١٦، والفصول المهمّة، الشيخ المفيد: ٢٥٨ ـ ٢٦٦.

(٢) الغيبة، الطوسي، م.س: ١٣٠ ـ ١٣٥.

وضروريّاته، ولا خلاف فيه بين المسلمين، وإنّما اختلفوا في أنّه وُلِد أم سيولد.

فالشيعة وجماعة من علماء أهل السنّة قالوا إنّه وُلِد وإنّه (الحجّة) ابن الحسن العسكريّ عليه السلام. وذهب فريق كبير من أهل السنّة إلى أنّه لم يولد بعد وسيولد في آخر الزمان.

والشيعة تقول إنّ الحقّ هو القول الأوّل، ويدلّ على ذلك العقل فضلاً عن النقل، حيث يعتقد الشيعة إنّ النبيّ الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم قد أوصى قبل رحيله إلى الرفيق الأعلى بالإمامة والولاية إلى الأئمّة الإثني عشر، أوّلهم الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام وآخرهم الإمام المهديّ المنتظر عجل الله فرجه الشريف.

وهذا الأصل الاعتقاديّ عند الشيعة - كما سائر الأصول الاعتقاديّة - ليس مستنده النقل والروايات المتضافرة عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فقط، بل الأساس فيه هو العقل الحاكم بضرورة وجود الإمام المعصوم - في كلّ عصر - المنصوص عليه من قبل الله تعالى على لسان النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم.

وإلى هذا يشير الشيخ الصدوق نقلاً عن شيخ المتكلّمين وأحد صحابة الإمام العسكريّ عليه السلام إسماعيل بن عليّ النوبختيّ حيث يقول: «... **إنّ أمر الدِّين كلّه بالاستدلال يُعلم، فنحن عرفنا الله بالأدلّة ولم نشاهده، ولا أَخبرَنا عنه من شاهده، وعرفنا النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وكونه في العالم بالأخبار وعرفنا ثبوته وصدقه بالاستدلال، وعرفنا أنّه استخلف عليّاً بن أبي طالب عليه السلام بالاستدلال، وكذلك عرفنا أنّ الحسن بن عليّ عليه السلام إمام مفترض الطاعة**...»[1].

فالمسلك والمنهج العقليّ في الاستدلال على ضرورة وجود الإمام المعصوم هو المسلك الشيعيّ، ونحن في الاستدلال العقليّ على وجود الإمام المهديّ عجل الله فرجه الشريف نقسّم الدليل إلى قسمين:

---

(١) كمال الدين، م.س: ٩٢.

الأوّل: الدليل على ضرورة وجود الإمام وتعيينه أو نصبه من قبل الله عزَّ وجلَّ، ويمكن التعبير عنه: «**بالدليل على الإمامة العامّة**».

الثاني: الدليل العقليّ على استمراريّة هذه الإمامة للوصول إلى إمامة الإمام المهديّ عليه السلام، ويمكن التعبير عنه: «**بالدليل على الإمامة الخاصّة**».

الدليل على الإمامة العامّة[1]

لقد ذهب الشيعة إلى القول بأنّ الإمامة مقام دينيّ خاضع للجعل والتعيين الإلهيّ، وهي ليست سلطة دنيويّة خاضعة للعوامل الاجتماعيّة.

فحتّى النبيّ الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم لم يكن له أيُّ دورٍ مستقلّ في تعيين خليفته، بل قام بهذا التعيين بأمرٍ إلهيّ، وفي الواقع إنّ الحكمة في ختم النبوّة مرتبطة - تماماً - بتعيين الإمام المعصوم.

ومن هنا يتبيّن لماذا طُرحت الإمامة في الفكر الشيعيّ كأصل عقائديّ، لا كحكم فقهيّ فرعيّ.

ولبيان ذلك نذكر الاستدلال التالي على ضرورة وجود المعصوم:

«إنّ تحقيق الهدف من خلق الإنسان منوطٌ بهدايته بوساطة الوحي. وقد اقتضت الحكمة الإلهيّة بعثة أنبياء يعلّمون البشر طريق السعادة في الدنيا والآخرة، وتنفيذ الأحكام والتشريعات... وبما أنّ الدِّين الإسلاميّ عالميّ وخالد، وقد خُتمت النبوّة وضمن الله تعالى بقاء الرسالة حتّى نهاية العالم، وبما أنّ أحكام الدِّين لا يمكن التعرّف عليها من خلال القرآن الكريم فقط مثل عدد ركعات الصلاة... فقد كانت هذه المهمّة ملقاة على عاتق النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ليبيّنها للناس.

ومن الثابت أنّ الظروف الصعبة الّتي عاشها النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم لم تسمح له ببيان جميع الأحكام والتشريعات الإسلاميّة للناس كافّة، فضلاً عن اختلاف أصحابه

(١) هذا الدليل تمّ استعراضه في الكتب العقائديّة ونحن نذكره هنا إتماماً للفائدة.

من بعده في الكثير من القضايا... من هنا وجب البحث عن وسيلةٍ لطرح الدِّين الكامل والشامل والمستجيب لكلّ احتياجات البشر، وليس ذلك إلّا في تعيين الخليفة الصالح للرسول ﷺ الّذي يجب أن تتوفّر فيه الشروط التالية:

١. العلم الموهوب من الله، ٢. العصمة، ٣. التعيين الإلهيّ. وذلك من أجل أن يقوم بالدور الّذي قام به النبيّ ﷺ.

إذن، ختم النبوّة إنّما يكون موافقاً للحكمة الإلهيّة فيما لو اقترن بتعيين الإمام المعصوم، والّذي يمتلك خصائص نبيّ الإسلام كلّها عدا النبوّة والرسالة»[١] وهذا هو مبنى الشيعة في اعتقادهم بضرورة الإمامة بعد النبوّة الخاتمة.

وإذا ثبت ضرورة وجود الإمام بعد النبيّ ﷺ، يبقى السؤال التالي. إذا كانت النبوّة كظاهرة إلهيّة غيبيّة، منقطعة وليست مستمرّة، وأنّها ختمت بالنبيّ ﷺ، فهل الإمامة أيضاً ظاهرة منقطعة كالنبوّة، أم هي مستمرّة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها؟

الدليل على الإمامة الخاصّة

أو الدليل على استمرار الإمامة في شخص محدد؛ ونستفيده من ظواهر الآيات والروايات الواردة عن الرسول ﷺ التي تؤكد على استمرار ظاهرة الإمامة والخلافة وعدم انقطاعها.

يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[٢].

---

(١) دروس في العقيدة الإسلامية، محمّد تقي مصباح اليزدي: ٢/٣٤٦-٣٤٨ (بتصرّف).

(٢) سورة البقرة، الآية: ٣٠.

فالآيــة تشيــر إلى وجود خليفة فــي الأرض، وأنّ هذا الخليفــة ليس هو مطلق الإنســان، وإنّما المقصود بــه إنسان بخصوصه، وأنّ هــذه الخلافة الإلهيّة غير منقطعة بحسب منطوق الآية.

وقال تعالى مخاطباً النبيّ إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾[(١)].

فقد أجمــع المفسّرون على أنّ الإمامة في الآية هي غير النبوّة والرسالة الّتي كانت لإبراهيم عليه السلام. وهذه الإمامة الّتي ثبتت لإبراهيم عليه السلام طلبها لذرّيته من بعده، حيث قال: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾، وقد استجاب الله تعالى دعاءه، ولكن لم يجعلها فــي الظالمين من ذرّيته، وإنّما في غيرهــم: ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ ومن الواضــح أنّ استجابة دعائه في ذرّيّتــه، لا يختصّ بالأبناء المباشرين له عليه السلام، بـل هــو شامل لجميع ذريّتــه شريطة أن لا يكــون ظالماً. وهذا مــا يؤكّده القرآن الكريــم في بيان حصول ذريّة إبراهيــم عليه السلام على هذا المقام واستمرارها في إسحاق ويعقوب وصولاً إلى النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم والأئمّة المعصومين عليهم السلام.

أمّا الروايات فقد تواترت في الدلالة والإشارة إلى أنّ ظاهرة الإمامة مستمرّة غيــر منقطعــة، ومنها حديــث الثقليــن، ورواية: «**لا تخلــو الأرض مــن قائم لله بحجّة**»[(٢)]، ورواية: «**من مات ولم يعرف إمام زمانه...**»[(٣)].

وكلّ هــذه الروايات ممّا أجمع على صحــة صدورها كلا الفريقين من الشيعة والسنّة.

وبالتالي فإنّ ما تقدّم في الحديث عن ضرورة استمرار الإمامة بعد النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم يقودنا إلى نتيجةٍ مؤدّاها: أنّ الله تعالى لم يترك الأرض ولن يتركها على الإطلاق مــن دون إمــامٍ معصوم يحمل مواصفــات الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ويستمرّ فــي أداء الوظيفة

(١) سورة البقرة، الآية: ١٢٤.

(٢) نهج البلاغة، م. س: ٤/٣٨.

(٣) المناقب، م.س: ١/٢١٢.

الإلهيّة الّتي من أجلها بُعث إلى البشرية هادياً ونذيراً.

وأمّا إثبات خصوص إمامة الإمام المهديّ عجّل الله فرجه الشريف، فإنّما يستند فيه العقل إلى النقل بعد ثبوت أصل الدليل العقليّ على ضرورة الإمامة.

وهذا ما يبيّنه الدليل النقلي المعتمد على ما ورد في القرآن الكريم من آيات تدلّ على وجود الإمام المهديّ عجّل الله فرجه الشريف والّتي أحصاها العلماء بما يناهز المائة آية[١]، وهكذا الحال بالنسبة للروايات الّتي بلغت حدّ التواتر[٢].

المنكرون لحقيقة وجود الإمام المهديّ عجّل الله فرجه الشريف

إنّ المراجعة الدقيقة والخالية من التعصّب والحقد والكراهية تثبت لكلّ باحث في الروايات أنّه لا يوجد قضية تسالم عليها الرواة والعلماء واعتبروها من الحقائق الثابتة الّتي لا يمكن إنكارها في الفكر الإسلاميّ مثل قضية الإمام المهديّ عجّل الله فرجه الشريف.

وعلى الرغم من هذا كلّه لم تسلم هذه القضية من أقلام الحاقدين والمتعصّبين. وقد تطاولت أقلام الكذب والنفاق لتصف قضيّة وجود الإمام المهديّ عجّل الله فرجه الشريف بأنّها من القصص والخرافات الّتي ابتدعها الشيعة، واعتبروها من موضوعاتهم، وأوّل من اتّجه إلى نقد أحاديث المهديّ فيما عرفنا عبد الرحمن بن خلدون فقال: «**إنّ الشيعة يزعمون أنّ الثاني عشر من أئمّتهم هو محمّد بن الحسن العسكريّ، ويلقّبونه بالمهديّ، دخل السرداب بدارهم...**» وحاول ابن خلدون مناقشة سند بعض ما ورد من تلك الأحاديث، واحتجّ بعدم رواية البخاريّ ومسلم لها[٣].

وقد تعرّض ابن خلدون بسبب ذلك إلى هجوم ماحق من قبل السنّة قبل

(١) راجع كتاب: المحجّة فيما نزل في القائم الحجّة، للسيد هاشم البحراني الّذي أورد مائة وعشرين آية من القرآن الكريم كلّها مأوّلة ومفسّرة بالإمام المهديّ عجّل الله فرجه الشريف، وغيره من الكتب.

(٢) راجع الإحصاء الّذي ذكره العلامة لطف الله الصافي في منتخب الأثر، والّذي يتضمّن عدد ومجموع الروايات الّتي رواها السنّة والشيعة حول الإمام المهديّ عجّل الله فرجه الشريف.

(٣) مقدّمة ابن خلدون، م.س: ٢٤٦.

الشيعة، وردُّوا على ما أثاره من وجوه التشكيك، فقال الشيخ عبد المحسن العبّاد عضو هيئة التدريس في الجامعة الإسلاميّة في المدينة المنوّرة في الرّد على من كذّب بالأحاديث الصحيحة في المهديّ عجّل الله فرجه الشريف:

١- إنّ ابن خلدون اعترف بسلامة بعضها من النقد؛ إذ قال بعد إيراد الأحاديث في المهديّ عجّل الله فرجه الشريف: «**فهذه جملة الأحاديث الّتي خرّجها الأئمّة في شأن المهديّ عجّل الله فرجه الشريف وخروجه آخر الزمان، وهي كما رأيت لم يخلص منها من النقد إلّا القليل والأقلّ منه**»، على أنّ ابن خلدون فاته الشيء الكثير من الأحاديث.

٢- إنّ ابن خلدون مؤرّخ وليس من رجال الأحاديث فلا يعتدّ به في التصحيح والتضعيف. ثمّ ردّ على مزاعم ابن خلدون بعدم وجود هذه الأحاديث في صحيحي مسلم والبخاريّ بإيراد بعض الروايات الواردة فيهما حول المهديّ عجّل الله فرجه الشريف، وذكر الشيخ العبّاد أيضاً أنّ هذه الأحاديث مرويّة في السنن الأربعة (الترمذيّ والنسائيّ وابن ماجه وأبي داود) وذكرها أحمد بن حنبل في المسند والطبرانيّ في المعجم والبيهقيّ في السنن والحاكم في المستدرك وقالوا بصحّتها[١].

وقد ألّف العلاّمة المحدّث أحمد بن محمّد بن الصديق الغماري المغربي المتوفّى سنة ١٩٦٠م كتاباً بعنوان: «**إبراز الوهم المكنون من كلام ابن خلدون**»...

وأمّا ابن حجر العسقلانيّ الهيثميّ فقال في كتابه الصواعق المحرقة: «**إنّ العسكريّ لم يكن له ولد، بطلب أخيه جعفر ميراثه من تركته لمّا مات، فدلّ**

(١) انظر: المهديّ في أحاديث المسلمين حقيقة ثابتة، محمّد رضا الحسيني الجلالي: ٢٣ ـ ٢٦.

طلبه أنّ أخاه لا ولد له، وإلّا لم يسعه الطلب...»[١].

وقد وقع ابن حجر في التناقض عندما اعترف في موضعٍ آخر من هذا الكتاب بولادته عجّل الله فرجه الشريف حيث يقول: «**ولم يخلف غير ولده أبي القاسم محمّد الحجّة، وعمره عند وفاة أبيه خمس سنين لكن آتاه الله فيها، ويسمّى القائم المنتظر**»[٢].

وقد بلغت الغفلة ببعضهم فألحقه بالأقاصيص والخرافات كما فعل إسعاف النشاشيبيّ الّذي قال في كتابه الإسلام الصحيح: «**إذا كانت سنّة وشيعة أو اعتزالية تقبل الخرافة المهدوية، فالمسلمون المستمسكون بالقرآن ينبذونها نبذاً، ويرفضونها رفضاً. إنّ مهديّ المسلمين وهاديهم وإمامهم قد ظهر من قبل، والحمد لله، وهو محمّد بن عبد الله رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم... ولم يعقب الحسن المذكور ذكراً ولا أنثى...**»[٣].

وقال القرمانيّ في كتابه (الصراع بين الإسلام والوثنية): «وإنّ أغبى الأغبياء، وأجمد الجامدين هم الّذين غيّبوا إمامهم في السرداب، وغيّبوا معه قرآنهم ومصحفهم، ومن يذهبون كلّ ليلة بخيولهم وحميرهم إلى ذلك السرداب الّذي غيبّوا فيه إمامهم ينتظرونه وينادونه ليخرج إليهم، ولا يزال عندهم ذلك منذ أكثر من ألف عام»[٤]. هذا فضلاً عمّا ذكره ابن كثير في البداية والنهاية، وابن تيميّة وغيرهما.

وأوّل ملاحظة ترِد على هؤلاء: هي لماذا يوجّهون كلّ هذه التهم، وينسبون هذه الأباطيل إلى الشيعة ويعتبرون أمر المهديّ عجّل الله فرجه الشريف من مزاعم (الشيعة) وأضاليلهم، ولم يتعرّضوا في كلامهم إلى من نطق بالحقّ واعترف وأقرّ بوجود

(١) الصواعق المحرقة، م. س: ١٢٤.
(٢) م.ن.
(٣) راجع كتاب الإمام المهديّ وشبهات المرجفين.
(٤) راجع كتاب المهديّ عند أهل السنّة وما ذكره من أقوال في هذا المجال.

وولادة الإمـام المهديّ عجل الله فرجه الشريف من علمـاء السنّة الّذين يصعب إحصاؤهم لكثرتهم، وتصريحهم الواضح واعترافهم وعدم إنكارهم لهذه القضيّة؟

فالتحامـل على الشيعة لا مبرّر لـه إذا كان السبب في ذلك هو هذا الاعتقاد، وإلّا فإنّهم كما تحاملوا على الشيعة فليضيفوا على ذلك اتّهام كلّ من اعتقد بهذا الاعتقاد وآمن بهذه القضيّة.

خلاصة الدرس

- حدثـت اختلافات كثيـرة بين الشيعة بعد رحيل الإمـام العسكريّ عليه السلام وانقسـم النـاس إلى حوالي خمس عشرة فرقة، لكلّ واحدةٍ منها معتقدها الخاصّ في قضيّة الإمامة.
- كانـت الفرقـة الإماميّة القائلـة بإمامة المهـديّ عجل الله فرجه الشريف هي الأكثـر عدداً، والأكثـر تأييـداً من قبل كبـار الشخصيّات، وهي الفرقـة الّتي ثبتت على صفحة تاريخ التشيّع.
- يؤكّد الشيخ المفيد عدم بقاء أيّ واحدة من هذه الفرق عدا الإماميّة.
- استدلّ الشيعة على إمامة الإمام المهديّ عجل الله فرجه الشريف بالنصّ (القرآن والروايات) وكذلك بالعقل الحاكم بضرورة استمرار النبوّة بعد النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، وضرورة عدم خلّو الأرض من حجّة اللّه.
- أنكر بعضهم وجود الإمـام المهديّ عجل الله فرجه الشريف من أمثال ابن خلدون وابن كثير، ولكنّ هؤلاء نالوا نصيبهم من الردود، ولا سيّما من علماء السنّة.



الدرس

الرابع والعشرون

عصر الغيبة الصغرى



أهداف الدرس:

١. أن يتبيّن الطالب الوضع السياسيّ والفكريّ زمن الغيبة الصغرى.

٢. أن يتبيّن فلسفة الغيبة.

٣. أن يعدّد خصوصيّات الغيبة الصغرى.

٤. أن يتعرّف إلى أبرز المسائل المتعلّقة بالنيابة الخاصّة.

تمهيد

بـدأ هذا العصر بوفاة الإمـام الحسن العسكريّ عليه السلام فـي الثامن من ربيع الأوّل عـام (٢٦٠هـ)، وتولّـي الإمام المهـديّ عجّل الله فرجه الشريف الولاية والإمامـة، وانتهى في الخامس عشـر من شعبان عـام (٣٢٩هـ) بوفاة «**أبي الحسـن علـي بن محمّد السمريّ**» رابع وآخر سفير ونائب خاصّ للإمام المهديّ عجّل الله فرجه الشريف.

ويتضمّـن هذا التاريـخ أحداثاً وقضايـا مهمّة في تاريخ الشيعـة سنقف عند أهمّها، وهي:

أوّلاً: الوضع السياسيّ والفكريّ

أ. الوضـع السياسـيّ: دام هـذا الـدور سبعيـن عامـاً وتزامن مـع حكم ستّة خلفاء عبّاسيّين، من الخليفة الخامس عشر وحتّى العشرين. وكان الوضع خلالهـا مشابهاً لما سبقه - قبل عصـر الغيبة - حيث غلبة الموالي لا سيّما الأتـراك، وانحدار السلطة المركزيّة نحـو الضعف والانهيار. ومع كلّ هذا الضعف، لم يتوقّف الخلفـاء العبّاسيّون عن ظلم الناس وهضم حقوقهم. وكان الإرهـاب سيّد الموقف لا سيّما فـي عصر المعتضد (٢٧٩ - ٢٨٩هـ)

الّـذي كان الأمر في عهـده حادّاً والسيف يقطر دماً، على حدّ تعبير الشيخ الطوسيّ[١].

وبعـد أن نقـل المعتصم الخلافة مـن بغداد إلى سامرّاء عـام (٢٢٠هـ) قام المعتضـد العبّاسـيّ بإرجاعها إلـى بغداد. ومـن المشاكل الّتـي واجهت العالم الإسلاميّ في عصر الغيبة الصغرى ظهور القرامطة[٢] وتمرّدهم عام (٢٧٧هـ) وفتنتهم، وممارستهم للظلم والجور طيلة (٣٠ عاماً)، وهذا ما استدعى ممارسة السلطـة العبّاسيّة الظلم ضدّ الشيعة بذريعة انتساب هذه الفرقة إليهم ممّا أدّى إلـى تقلّص ثورات العلويّيـن وتصاعد أجواء الكبت ضـدّ الشيعة. ولم يمنع هذا الأمـر قيام العديد من الثورات العلويّة. وفي هذا العصر ظهر شخص في شمال أفريقيا مدّعياً أنّه المهديّ الموعود.

وظهـرت الـدول المستقلّة أيضـاً، فقد حكمـت العالم الإسلامـيّ قبل عصر الغيبـة الصغـرى أربع دول مستقلّـة، وهي: دولة الأغالبـة أو آل أغلب في تونس، ودولة الأدارسة في مراكش، والدولة الطولونيّة في مصر والشام، والدولة الأمويّة فـي قرطبـة. واستمرّت هذه الـدول في عصر الغيبـة الكبرى، وأُضيفـت إليها: الدولـة الصفّاريّة فـي خراسان، والدولـة السامانيّة فيمـا وراء النهر والنواحي المركزيّـة من إيران، والدولة الفاطميّة فـي مصر وبلاد المغرب، ودولة آل بويه فـي طبرستان والريّ وهمـدان وأصفهان، ودولة آل حمـدان في الموصل وحلب، والدولة الأخشيديّة في مصر والشام[٣].

وبالتالـي انقسم العالم الإسلاميّ في عصر الغيبة الصغرى إلى ثلاثة أنظمة سياسيّة إسلاميّة ترفع لواء الخلافة، وكلّ يدّعي أنّه هو الخليفة والقائد السياسيّ للعالم الإسلاميّ.

---

(١) الغيبة، الطوسي، م.س: ١٧٩.

(٢) القرامطة من فرق الإسماعيليّة.

(٣) راجع تاريخ الإسلام، د. حسن إبراهيم، م.س: الجزء الثالث.

الأوّل: الحكومة العبّاسيّة في بغداد.

الثاني: الحكومة الأمويّة في قرطبة والأندلس.

الثالث: الحكومة الفاطميّة في مصر.

ب. الوضع الفكريّ: ونكتفي فيه باستعراض نقطتين لبيان الوضع الفكريّ في تلك المرحلة:

١. ظهور المنهج الأشعريّ: ظهر في النصف الأوّل من القرن الثاني الهجريّ منهجان فكريّان في العالم الإسلاميّ، ذهب أحدهما إلى إلغاء قيمة العقل والاعتماد على ظواهر الآيات والروايات في فهم المسائل والحقائق، حتّى لو كان ذلك على خلاف حكم العقل، ويُطلق على أتباع هذا المنهج «**أهل الحديث**». ووقف المنهج الآخر على النقيض منه، فأقام وزناً للعقل وأعطى أهميّة كبرى له، وأطلق على أتباع هذا المنهج «**المعتزلة**».

وحدثت مواجهات عديدة بين المذهبين في عصر ما قبل الغيبة الصغرى، كان النجاح فيها حليف المعتزلة أحياناً، وحليف أهل الحديث أحياناً أخرى، ويعتمد ذلك إلى حدّ بعيد على مدى دعم جهاز الخلافة له، واستمرّ ذلك إلى النصف الأوّل من القرن الرابع مع ظهور أبي الحسن الأشعريّ، الّذي كان يعتنق مذهب الاعتزال حتّى الأربعين من عمره، ثمّ أعرض عنه وأسّس على أطلال منهج أهل الحديث منهجاً جديداً هو «**المنهج الأشعريّ**»، وقد حظي بانتشار واسع بفضل دعم وحماية المقتدر العبّاسيّ (٢٩٥ـ ٣٢٠هـ) على حساب الاعتزال، ومنذ ذلك التاريخ بدأ دور الاعتزال بالذبول والخمول على الساحة الفكريّة تاركاً وراءه المنهج الأشعريّ يصول ويجول[١].

(١) لمزيدٍ من الإطلاع على المذهب الأشعريّ راجع: بحوث في الملل والنحل للشيخ جعفر السبحاني، الجزء الثالث.

٢. تدويـن المصـادر الروائيّـة: مُنعـت كتابة الحديث في أوائـل القرن الأوّل الهجـريّ بأمـر من الخليفة الثانـي إلى أن جاء عمر بـن عبد العزيز (٩٩ ـ ١٠١هـ) الّـذي أمـر بتدوين وضبـط الأحاديـث النبويّة وحـوادث تاريخ الإسلام. لكنّ هذا الأمر لم يلق رواجاً في ظلّ العصر العبّاسيّ الأوّل لا سيّما فـي عصر المأمون، واستمـرّ الوضع كذلك حتّى عصـر الغيبة الصغرى، حيـث صنّفـت فيه كتب عديدة، منها أربعة كتب مـن أصل ستّة كتب مهمّة لأهـل السنّة عرفـت فيما بعد بالصحـاح الستّة، والأربعة هي: «**سـنن ابن ماجه، سنن أبي داوود، سنن الترمذيّ، سنن النسائيّ**» إضافة إلى المئات مـن الكتب مثل: فتـوح البلدان ـ أنساب الأشـراف ـ الأخبار الطوال، تاريخ اليعقوبيّ، تاريخ الطبريّ، تفسير الطبريّ، الفتوح.

ثانياً: فلسفة الغيبة

هـذا المبحث وإن كان من المباحث الكلاميّة والعقائديّة، الفاقدة لأيّة صبغة تاريخيّة، إلّا أنّ ذلك لا يمنع من الإشارة ولو على نحو الاختصار إلى بعض ما ورد حـول فلسفة الغيبـة في الروايات، لنستشفّ من ذلـك الحكمة المطويّة من وراء غيبة الإمام المهديّ عجل الله فرجه الشريف.

١. سـرّ مـن أسـرار الله: فقـد روي عن النبـيّ صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: «**يا جابـر إنّ هذا الأمر من أمر الله، وسرّ من سرّ الله مطويّ عن عباده**»[١].

وفي حديث طويل للإمام الصادق عليه السلام، فيه: «**... وجه الحكمة في غيبته وجه الحكمة في غيبات من تقدّمه من حجج الله تعالى ذكره. إنّ وجه الحكمة في ذلك لا ينكشف إلّا بعد ظهوره كما لم تنكشف الحكمة فيما أتاه الخضر عليه السلام من خرق السفينة، وقتل الغلام، وإقامة الجدار لموسى عليه السلام إلى وقت افتراقهما**»[٢].

(١) بحار الأنوار، م.س: ٥١/٧٣.
(٢) كمال الدين، م.س: ٢/٤٨٢.

٢. امتحان الإنسان الصالح وتمييزه: عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «**أما والله لأُقتلنّ أنا وابناي هذان، وليبعثنّ الله رجلاً من ولدي في آخر الزمان يطالب بدمائنا، وليغيبنّ عنهم تمييزاً لأهل الضلالة، حتّى يقول الجاهل: ما لله في آل محمّد من حاجة**»[١].

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «**وهو المنتظر غير أنّ الله عزَّ وجلَّ يحبُّ أن يمتحن الشيعة**»[٢].

وقال الإمام الكاظم عليه السلام: «**يا بنيّ إنّه لا بدّ لصاحب هذا الأمر من غيبة حتّى يرجع عن هذا الأمر من كان يقول به، إنّما هي محنة من الله عزَّ وجلَّ امتحن بها خلقه**»[٣].

٣. ظلم الناس: ورد في بعض الروايات أنّ فلسفة الغيبة هي نتيجة ظلم الناس بعضهم بعضاً، روي عن الإمام عليّ عليه السلام: «**واعلموا أنّ الأرض لا تخلو من حجّة لله عزَّ وجلَّ، ولكنّ الله سيعمي خلقه عنها بظلمهم وجورهم وإسرافهم على أنفسهم**»[٤].

٤. الانعتاق من بيعة طواغيت الزمان: وذلك لكي لا يمنع الإمام عليه السلام مانع من الانطلاق بحريّة زمن ظهوره، وأن لا يلتزم بالتقيّة مثل سائر أئمّة أهل البيت عليهم السلام الّذين بايعوا حكّامهم عن تقيّة، ولولا الغيبة ما تيسّر له هذا الأمر. وفي هذا الشأن وردت أحاديث كثيرة عن الأئمّة عليهم السلام، ولكن نكتفي بما ورد في التوقيع الصادر عن الناحية المقدّسة لإسحاق بن يعقوب بواسطة محمّد بن عثمان العمريّ، إذ جاء فيه:

(١) بحار الأنوار، م.س: ١٣٣/٥١.
(٢) أصول الكافي، م.س: ٣٣٧/١.
(٣) الغيبة، الطوسي، م.س: ٢٠٤.
(٤) الغيبة، النعماني: ١٤١.

«وأمّا علّة ما وقع من الغيبة فإنّ الله عزّ وجلّ يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ ﴾، إنّه لم يكن لأحد من أبائي إلّا وقد وضعت في عنقه بيعة لطاغية زمانه، وإنّي أخرج حين أخرج ولا بيعة لأحد من الطواغيت في عنقي»[١].

٥. **الاستعداد العالميّ:** يتطلّب ظهور الإمام المهديّ عجّل الله فرجه الشريف - باعتباره خاتم الأوصياء ومنجّي البشريّة، وناشر الإسلام في كافّة ربوع العالم ومظهره على الأديان قاطبة - أرضيّة عالميّة صالحة، ومن هنا تتأكّد الحاجة إلى تمهيد مقدّمات قبوله في العالم؛ لكي يتحقّق هذا الهدف.وعليه يمكن القول إنّ غياب تلك الأرضيّة في العالم يعدّ من فلسفة غيبة الإمام المهديّ عجّل الله فرجه الشريف.

ثالثاً: خصوصيّات عصر الغيبة الصغرى، وهي:

أ - زمن الغيبة الصغرى محدود، ولكنّ أمد الغيبة الكبرى لا يعلمه أحد سوى الله تعالى.

ب - لم يكن الإمام عجّل الله فرجه الشريف متوارياً عن الأنظار بصورة عامّة في عصر الغيبة الصغرى.

ج - كان للإمام المهديّ عجّل الله فرجه الشريف أربعة وكلاء في عصر الغيبة الصغرى.

د - قد يتيسّر لبعض الأشخاص رؤية الإمام عجّل الله فرجه الشريف ومعرفته في عصر الغيبة الصغرى، ولكن قد لا يراه أحد في عصر الغيبة الكبرى، وقد يراه ولكن لا يعرفه.

وإذا كان بعض الخواصّ قد شاهده وعرفه فلا يحقّ له إشاعة ذلك، إلّا بإذن الإمام عجّل الله فرجه الشريف.

---

(١) الاحتجاج، الطبرسي، م.س: ٢/٤٧١.

رابعاً: نصب النوّاب الأربعة

عيّن الإمام المهديّ عجّل الله فرجه الشريف في عصر الغيبة الصغرى أربعة نوّاب للشيعة، كانوا على جانب كبير من التقوى والورع، وهم:

١. أبو عمرو، عثمان بن سعيد العمريّ (استمرّت نيابته إلى سنة ٢٦٥هـ).

٢. أبو جعفر، محمّد بن عثمان بن سعيد العمريّ (توفّي سنة ٣٠٥هـ).

٣. أبو القاسم، الحسين بن روح النوبختيّ. (استمرّت نيابته إلى عام ٣٢٦هـ، أي لمدّة ٢١ سنة).

٤. أبو الحسن، عليّ بن محمّد السمريّ (من عام ٣٢٦هـ إلى عام ٣٢٩هـ).

وقبل وفاة السمريّ بستّة أيّام صدر آخر توقيع من الإمام المهديّ عجّل الله فرجه الشريف أعلن فيه انقطاع السفارة بوفاة السمريّ، وانتهاء أمد الغيبة الصغرى وبدء عصر الغيبة الكبرى.

خامساً: معيار تنصيب النوّاب الأربعة

عيّن الأئمّة عليهم السلام - كما تقدّم - العديد من الوكلاء، وقد ازداد عددهم في زمن الإمام العسكريّ عليه السلام حتّى بلغ العشرات. والسؤال المطروح هو كيف اقتصر الإمام عجّل الله فرجه الشريف من كلّ هذا الجمع الغفير من الوكلاء على أربعة نوّاب في عصر الغيبة الصغرى؟ وللإجابة عن هذا السؤال ينبغي القول إنّ سفراء الإمام المهديّ عجّل الله فرجه الشريف إضافة إلى حيازتهم للشروط العامّة، نظير: الإيمان - التقوى - الدراية، لا بدّ من تمتّعهم بشروط خاصّة وهي:

أ. التزام الحذر وممارسة التقيّة: وذلك بسبب الظروف المحيطة بهم وتعقيدها. وقد تجلّى ذلك في مسلك الحسين بن روح على نحو بدا فيه أنّ علماء المذاهب الأخرى كانوا ينسبونه إليهم. وقد بلغ به الحال

فـي رعاية التقيّـة أنّ بوّاباً له كان قد لعن معاويـة وشتمه، فأمر بطرده وصرفـه عن خدمتـه[1]. وفي بعضـ المجالس كان يُثنـي على الخلفاء الراشديـن. وكان السفير الأوّل عثمان بـن سعيد يتجنّب عمّال الجهاز العبّاسيّ رعاية للتقيّة، ولأجل ذلك لم يدخل معهم في جدال، أو نقاش دينيّ، أو سياسيّ...

ب. الصـبر والمقاومـة: لم يدّخر الأعـداء وسعهم في تتبّع نقاط الضعف لدى سفير الإمام عجّل الله فرجه الشريف أو نائبه من أجل الظفر بالإمام المهديّ عجّل الله فرجه الشريف، لذا كان يجب على السفير أن يكون أشدّ الناس صبراً ومقاومة.

قيل لأبي سهل النوبختيّ: كيف صار هذا الأمر إلى الشيخ أبي القاسم الحسين بـن روح دونـك؟ فقال: «**هـم أعلم ومـا اختاروه، ولكـن أنا رجل ألقى الخصـوم وأناظرهـم ولـو علمـت بمكانه كمـا علم أبـو القاسـم وضـغطتني الحجّة على مكانـه، لعلّـي كنـت أدلّ على مكانه، وأبو القاسـم فلو كانت الحجّـة تحت ذيله، وقرّض بالمقاريض ما كشف الذيل عنه**»[2].

ج. السـفراء أكثر فهماً وعقلاً ودرايـة من الآخرين: نقل الشيخ الطوسيّ في كتابه «**الغيبة**» رواية تدلّ على دراية نوّاب الإمام المهديّ عجّل الله فرجه الشريف[3].

د. كان الإمام المهديّ عجّل الله فرجه الشريف ينتخب نوّابه من الأشخاص الّذين لا يشعر الجهاز العبّاسيّ تجاههم بخطر: لأنّ الوكالة أمرٌ سرّيّ ومهمّ للغاية، فمثلاً: كان «**أبـو عمرو عثمان بن سـعيد العمـريّ**» الملقّب بالزيّـات أو السمّان يدير أمـور الوكالة تحت غطـاء بيع السمن، ولم يدُر في خَلد الحكومة أنّه سفير للإمام عجّل الله فرجه الشريف، وكان السفير الثاني «**أبو جعفر محمّد بن عثمان**» كأبيه بائعاً

(١) الغيبة، الطوسي، م.س: ٢٣٧.
(٢) م.ن: ٢٤٠.
(٣) م.ن: ٢٣٦.

للسمن والزيت، وكان السفير الثالث من آل نوبخت الّذين يتمتّعون بنفوذ في البلاط، الأمر الّذي يسّر له إدارة أمور الوكالة دون أن يثير أيّة شكوك حول علاقته بالإمام المهديّ عجل الله فرجه الشريف.

سادساً: كيفيّة اتّصال النوّاب الأربعة بالشيعة

كان للشيعة أسلوبان للاتّصال بالنوّاب الأربعة، وهما:

أ. **الاتّصال غير المباشر:** وهو الأصل في عمل جهاز الوكالة الّذي لم يكن قادراً على إعلان نشاطه بسبب جور العبّاسيّين، الأمر الّذي اضطرهم إلى اتّباع أساليب خفيّة يمثّل فيها الوكلاء حلقة الوصل بين الأئمّة عليهم السلام وبين الناس فيستقبلون مسائلهم ومشاكلهم ويقبضون منهم الحقوق الشرعيّة. وكان النوّاب ينقلون كلّ ذلك إلى الإمام عليه السلام ويتسلّمون منه الأجوبة، فكان السفير بمنزلة رأس الهرم، والوكلاء والخواصّ جسم الهرم، والناس قاعدته. وهذا النوع من الاتّصال شاع في بغداد، ثمّ انتقل إلى بقيّة المناطق. مثلاً كان لأبي جعفر محمّد بن عثمان عشرة وكلاء في بغداد.

ب. **الاتّصال المباشر:** كان هذا الاتّصال مفقوداً في بداية نشاط النوّاب الأربعة في عصر الغيبة الصغرى؛ لأنّ الهدف كان أن تبقى مسألة النيابة الخاصّة طيّ الكتمان والخفاء، وقد علم الشيعة باسم السفير عن طريق الوكلاء والخواصّ، الأمر الّذي مكّنهم من الاتّصال به مباشرة، وقد بدأ كلّ ذلك في عهد السفير الثاني.

وكانت الإجابات في هذا النوع من الاتّصال تصدر كتابة أحياناً، أو شفويّة أحياناً أخرى.

سابعاً: وظائف النوّاب الأربعة ومسؤوليّاتهم

إنّ المحاور العامّة الّتي تندرج تحتها نشاطات النوّاب الأربعة، هي كالتالي:

أ ـ رفع الشكّ والحيرة عن الناس بشأن وجود الإمام المهديّ عجّل الله فرجه الشريف.

ب ـ الحفاظ على الإمام عجّل الله فرجه الشريف من خلال إخفاء اسمه ومكانه.

ج ـ الإجابة عن المعضلات الفقهيّة والعقائديّة.

د ـ تسلّم أموال صاحب الزمان عجّل الله فرجه الشريف وتوزيعها.

هـ ـ مجابهة الغلاة ومدّعي الوكالة والنيابة كذباً، وفضح ادّعاءاتهم الباطلة.

و ـ مواجهة الوكلاء الخونة.

ز ـ إعداد الناس لقبول الغيبة الكبرى.

ثامناً: الوكلاء في عصر الغيبة الصغرى

كان ثمّة وكلاء آخرون للإمام عجّل الله فرجه الشريف إلى جانب النوّاب الأربعة ـ في نقاط مختلفة من العالم الإسلاميّ ـ وكانت وظائفهم تشبه وظائف وكلاء الأئمّة عليهم السلام إلاّ أنّهم كانوا يرجعون إلى النوّاب الأربعة لتعيين حدودها. وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على ضرورة وجود وكلاء كمعاونين للنوّاب الأربعة في عصر الغيبة الصغرى، خصوصاً إذا ما عرفنا وجود عدد من الوكلاء في بغداد (محلّ إقامة النواب الأربعة).

وكتب الشيخ الطوسيّ عن هؤلاء الوكلاء، يقول: «**كان في زمان السفراء المحمودين أقوام ثقات، ترد عليهم التوقيعات من قبل المنصوبين للسفارة من الأصل**»[1].

(١) الغيبة، الطوسي، م.س: ٢٥٧.

ثــمّ ذكر أسماء عدد منهم، ومنهم: محمّد بــن إبراهيم بن مهزيار الأهوازيّ الّــذي عيّنــه الإمام عجّل الله فرجه الشريف كوكيل عنه محــلّ أبيه، وجاء في كتاب الإمــام إليه: «**قد أقمنــاك مقام أبيـك**»[1]، وأبو الحسين محمّد بن جعفر الأسديّ الكوفيّ الرازيّ، أبــو عبد اللّه ابن هارون بن عمران الهمدانيّ، أبو إسحاق محمّد بن إبراهيم بن مهزيار الأهوازيّ وغيرهم.

وإلى جانب ذلك شهد جهاز الوكالة ظهور انحرافات لدوافع مختلفة، فظهرت انحرافــات من قبل بعض من كان وكيلاً منصوباً من قبل الإمام عجّل الله فرجه الشريف حيث سقط فــي الفســاد والخيانة، وبعضٌ آخر ادّعــى البابيّة والنيابة عــن الإمام عجّل الله فرجه الشريف كذباً وافتراءً، فالتفّ حوله رهط من الناس ثمّ بان أمره، وافتضح.

ومــن الوكلاء الخونة: أبو جعفر محمّد بن علي الشلمغانيّ، عروة بن يحيى، هشام بن إبراهيم العبّاسيّ الهمدانيّ...

ومن المدّعين للنيابة زوراً: أبو عبد اللّه أحمد بن محمّد السياريّ، والحسن بن محمّد بن بابا القمّي، أبو محمّد الشريعيّ، محمّد بن نصير النميريّ الفهريّ، الحسين بن منصور الحلّاج.

(١) تنقيح المقال، م.س: ٢١٨/١.



خلاصة الدرس

- تزامن عصر الغيبة الصغرى مع خلافة ستّة خلفاء عبّاسيّين، وكان الوضع السياسيّ وخصوصيّاته آنذاك امتداداً لعصر ما قبل الغيبة، لناحية سيطرة الأتراك، وتدهور وضع الحكومة المركزية.
- انتقلت الخلافة في هذا الدور من سامرّاء إلى بغداد، ونشبت حروب وفتن كثيرة، وتشكّلت حكومات مستقلّة.
- تبلور المذهب الأشعريّ في تلك المرحلة، وتغلّب على المذهب المعتزليّ.
- كان للإمام المهديّ عجل الله فرجه الشريف أربعة سفراء في عصر الغيبة الصغرى، عرفوا بـ«**النواب الأربعة**».
- **كان ثمّة أسلوبان لاتّصال السفراء بالشيعة:** بواسطة الوكيل أو بلا واسطة، أمّا الأصل في جهاز الوكالة فهو الاتّصال مع الواسطة.
- **المهامّ الملقاة على عاتق النواب الأربعة هي:** رفع شك وحيرة الناس إزاء وجود الإمام المهديّ عجل الله فرجه الشريف ـ الحفاظ على الإمام عجل الله فرجه الشريف من خلال كتمان اسمه ومكانه ـ الإجابة عن الاستفسارات الفقهية والشبهات العقائديّة ـ إعداد الناس لقبول الغيبة الكبرى.
- إلى جانب النوّاب الأربعة كان هناك العديد من الوكلاء للإمام عجل الله فرجه الشريف في مختلف المناطق، وادّعى بعض الناس الوكالة زوراً وافتراءً.



الدرس

الخامس والعشرون

عصر الغيبة الكبرى



أهداف الدرس:

١. أن يعدّد الطالب خصائص الغيبة الكبرى.

٢. أن يتبيّن كيفيّة خفاء الإمام عجّل الله فرجه الشريف عن الأبصار.

٣. أن يتعـرّف إلـى الدور الّذي لعبه علماء عصـر الغيبة في نشر الإسلام والحفاظ على المسلمين.

٤. أن يستذكر تكاليف الأمّة في عصر الغيبة الكبرى.

بدء الغيبة الكبرى

كانت وفاة عليّ بن محمّد السمريّ (٣٢٩هـ) إيذاناً بابتداء عصر الغيبة الكبرى. وكان التوقيع الصادر عن الإمام عليه السلام إلى عليّ بن محمّد قبل وفاته بستّة أيّام هو الإعلان عن انتهاء فترة الغيبة الصغرى. فلم تكن الغيبة الكبرى واحتجاب الإمام عليه السلام عن شيعته وقواعده أمراً مفاجئاً وغير متوقّع، بل قد مهّد لهذه الغيبة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم والأئمّة عليهم السلام الّذين تواترت عنهم الأخبار الدالّة على ذلك، فضلاً عن الدور الّذي لعبته الغيبة الصغرى في ذلك. ونصّ التوقيع المبارك عن الإمام عجل الله فرجه الشريف:

«بسم الله الرحمن الرحيم، يا عليّ بن محمّد السمري، أعظم الله أجر إخوانك فيك، فإنّك ميّت ما بينك وبين ستّة أيّام فاجمع أمرك ولا توصِ إلى أحدٍ فيقوم مقامك بعد وفاتك، فقد وقعت الغيبة التامّة فلا ظهور إلّا بإذن الله تعالى ذكره، وذلك بعد طول الأمد وقسوة القلب وامتلاء الأرض جوراً، وسيأتي لشيعتي من يدّعي المشاهدة ألا فمن ادّعى المشاهدة، قبل خروج السفيانيّ والصيحة فهو كذّاب مفترٍ، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم»[(١)].

(١) الغيبة، الطوسي، م.س: ٢٤٢.

وهنــاك جملة مــن الأمــور والقضايا الّتي لا بــدّ من الإطلالــة عليها في هذا البحث وهي:

١ـ خصائص الغيبة الكبرى

أ ـ أوّل مــا تمتاز به هذه المرحلة هو انقطاع الناس عن القائد الإسلاميّ والموجّــه الإلهــيّ للتجربة الإسلاميّــة، حتّى ينقضي أمــد هذه الغيبة الكبــرى فــي اليوم الموعود، حيــث يشرق فيه نــور الإمام عجّل الله فرجه الشريف ويظهر لعامّــة الناس، وهي علــى عكس الفترات السابقة الّتــي عاشتها الأمّة فــي العصر النبويّ وعهود الأئمّة عليهم السلام، كمــا أنّها تختلف عن مرحلة الغيبــة الصغــرى والّتــي امتازت بالاتّصــال غير المباشــر مع الإمام المهــديّ عجّل الله فرجه الشريف.

ب ـ انتشار الظلم والجور، وانحسار الإسلام عن الحياة السياسيّة.

ج ـ التشكيك في وجود الإمام المهديّ عجّل الله فرجه الشريف لاحتجابه عن واقع الحياة ولطول زمــان غيبته عجّل الله فرجه الشريف، ثمّ طغيان التيّــارات الضالّة الّتي تُسبّب بروز ظاهرة التشكيك واتّساعها في حياة الأمّة الإسلاميّة.

٢ـ كيفيّة احتجاب الإمام عجّل الله فرجه الشريف

يمكــن تصوير تحرّك ونشــاط الإمام المهديّ عجّل الله فرجه الشريف خــلال احتجابه في عصر الغيبة الكبرى بأحد شكلين:

أ. أطروحــة خفــاء الشــخص: وهــي الأطروحة المتعارفة فــي ذهن عدد من النــاس، وأنّ الإمــام عجّل الله فرجه الشريف يختفي بجسمه عن الأنظار، فهــو يرى الناس ولا يرونــه، وبالرغم من أنّــه قد يكون موجــوداً في مكان إلّا أنّــه يُرى المكان خالياً منه.

روى الصدوق عن الإمام الرضا عليه السلام أنّه قال عن القائم عجل الله فرجه الشريف: «**لا يُرى جسمه ولا يُسمّى باسمه**»[١].

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**الخامس من ولد السابع يغيب عنكم شخصه ولا يحلّ لكم تسميته**»[٢].

وهذه الأطروحة أسهل افتراض عمليّ لاحتجاب الإمام المهديّ عجل الله فرجه الشريف عن الناس، ويتمّ ذلك عن طريق الإعجاز الإلهيّ، وهذا الاحتجاب قد يزول أحياناً عندما توجد مصلحة في زواله.

ب. أطروحة خفاء العنوان: ونريد بذلك أنّ الناس يرون الإمام المهديّ عجل الله فرجه الشريف بشخصه، دون أن يكونوا عارفين أو ملتفتين إلى حقيقته، فقد ذكر الشيخ الطوسيّ في الغيبة عن السفير الثاني أنّه قال: «**والله إنّ صاحب هذا الأمر ليحضر الموسم كلّ سنة، يرى الناس ويعرفهم ويرونه ولا يعرفونه**»[٣].

٣- الشيعة في عصر الغيبة الكبرى

أثمرت الثورات العلويّة ضد الحكم العبّاسيّ ظهور دول شيعيّة. وانتشر التشيّع في القرن الرابع الهجريّ في كافّة أصقاع العالم الإسلاميّ، وبدأت رقعته بالاتّساع أكثر في القرون الخمسة الّتي تلته، وظهرت الفرقة الإسماعيليّة في إيران، ووصل السادات المرعشيّون إلى سدّة الحكم في مازندران وقزوين في القرن الثامن، وحظي العلّامة الحلّي ونجله فخر المحقّقين في بلاط السلطان محمّد خدابنده الّذي أعلن عن تشيّعه بمكانة سامية وانتشر المذهب الشيعيّ بشكلٍ أكبر.

---

(١) بحار الأنوار، م.س: ١٤٣/٥١.

(٢) م.ن.

(٣) من لا يحضره الفقيه، م.س:٥٢٠/٢.

وفي بداية القرن العاشر الهجريّ ظهر الشاه إسماعيل الصفويّ ذو النزعة الشيعيّة، وجعل إيران دولة واحدة والمذهب الشيعيّ مذهباً رسميّاً للدولة.

وكذلك بدأت الحركات الثوريّة الشيعيّة نشاطها المميّز ورفعت لواء الجهاد ضدّ الكفر والطاغوت، ومارست النضال ضدّ كافّة ألوان الظلم والجور. وكانت لهم لمساتهم على المسرح الثقافيّ عبر التبليغ الهادئ، فقد فتح إدريس بن الحسن المثنّى بلاد المغرب من خلال التبليغ، وهكذا الحال في أندونيسيا الواقعة في الشرق الأقصى للعالم الإسلاميّ. وفي القرن الخامس للهجرة اعتنق جمع غفير من الهنود الإسلام على يد اثنين من الشيعة. وجعل آل بويه الثقافة الإسلاميّة وتعاليم آل البيت عليهم السلام أساس حكومتهم.

وإذا كان هولاكو قد أمر بإعادة بناء مسجد الخليفة ومرقد الإمام الكاظم عليه السلام بعد قتله لـ(٩٠٠) ألف من الأبرياء من أهالي بغداد، فإنّما تمّ هذا الأمر بحنكة وشجاعة مؤيّد الدِّين العلقميّ والشيخ نصير الدِّين الطوسيّ، وهما من أبرز الشخصيّات الشيعيّة آنذاك. وكان هدف الشيخ الطوسيّ من وراء ذلك هو الحيلولة دون سفك المزيد من الدماء. وقد استطاع عبر نفوذه في مؤسّسات المغول إنقاذ العديد من علماء الإسلام من سطوتهم وسيوفهم، وجعل أعداء الإسلام ينقادون للإسلام والإيمان وشعائر التشيّع.

وببركة النهضة الثوريّة لعلماء الشيعة أُدخل الدِّين الّذي سُحِق تحت وطأة المغول إلى قلوب الفاتحين المغول أنفسهم، بل نُشر الدِّين بزخم هائل.

وفي بداية القرن الخامس عشر الهجريّ، قامت في إيران حكومة إسلاميّة بقيادة الإمام الخمينيّ قدس سره بعد جهادٍ طويل ضدّ الاستبداد الداخليّ والاستعمار الثقافيّ والسياسيّ والاقتصاديّ واستندت إلى ولاية الفقيه الجامع للشرائط. وأدخلت هذه الثورة العالم عصراً جديداً أدّى إلى تجنيد القوى الكبرى إمكاناتها

للقضاء عليها وعلى المذهب الشيعيّ.

وإلى جانب هذا النشاط الثوريّ والجهاديّ تألّق الفكر الشيعيّ على يد العلماء الّذين بذلوا جهوداً مضنية في سبيل تقدّم العلوم الإسلاميّة[1].

وعلى سبيل المثال فقد ظهرت مدرسة الشيخ المفيد الّتي جمعت بين مدرستي قمّ وبغداد، وأخذت سيراً تصاعديّاً منذ عهد الغيبة الكبرى وحتّى يومنا هذا. وخَلَف الشيخَ المفيد السيّد المرتضى والشيخ الطوسيّ اللذان أسّسا مدرسة الفقهاء الأصوليّة. وقد أدخل الشيخ الطوسيّ الفقه مرحلة جديدة بفضل الأفكار البكر الّتي لم يسبقه إليها أحد، وترك تصانيف علميّة قيّمة في مختلف الأصعدة. وتمكّن هؤلاء العلماء من إخراج المرجعيّة الشيعيّة من الانزواء والعزلة، وكانت لهم إحاطة بمختلف العلوم كالفقه والكلام والتفسير والمباني العلميّة لأهل السنّة، ممّا أتاح لهم فرصة الجلوس على كرسيّ الكلام والفقه في بغداد، وانثالت عليهم وفود الطلّاب من سائر المذاهب.

لكنّ الفتن والاضطرابات أجبرت الشيخ الطوسيّ على الهجرة إلى مدينة النجف الأشرف الّتي تحوّلت إلى مركز فقهيّ للشيعة فيما بعد (٤٤٨هـ).

وبرزت حلب إلى جانب النجف - كمركز فقهيّ - على يد سلّار وهو من تلامذة السيّد المرتضى، وكذلك الحلّة لوجود ابن إدريس الحلّي فيها، وظهر فيها فقهاء كبار أمثال: المحقّق الحلّي والعلّامة الحلّي، وهكذا جبل عامل الّذي برز فيه الشهيد الأوّل والشهيد الثاني اللذان بلورا مشروع الفقه السياسيّ الشيعيّ.

وكانت بلدة قمّ مركزاً فقهيّاً اشتهر في القرون الأولى، ومن أبرز فقهائها: ابن بابويه ومحمّد بن قولويه.

(١) راجع كتاب: تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام للسيّد حسن الصدر، والذريعة إلى تصانيف الشيعة للآقا بزرك الطهراني، وأعيان الشيعة للسيّد محسن الأمين، وغيرها من الكتب الّتي تكفّلت ببيان النتاج الفكريّ لعلماء الشيعة.

وبعد انتصار الثورة الإسلاميّة في إيران والحملات المسعورة الّتي قادها حزب البعث على الحوزة العلميّة في النجف الأشرف هاجر العلماء والطلّاب إلى مدينة قمّ، وانتقل مركز ثقل النشاط الفقهيّ الشيعيّ إلى قم المقدّسة.

٤- تكاليف الأمّة الإسلاميّة في عصر الغيبة الكبرى

أ- الإيمان بالإمام المهديّ المنتظر عجل الله فرجه الشريف

من التكاليف المطلوبة إسلاميّاً حال الغيبة: الاعتراف بالمهديّ عجل الله فرجه الشريف كإمام مفترض الطاعة وقائد فعليّ للأمّة، وإن لم يكن عمله ظاهراً للعيان، ولا شخصه معروفاً لدى الناس.

وهذا من الضروريّات العقائديّة الواضحة، في مدرسة الشيعة الإماميّة، فإنّه الإمام الثاني عشر الموجّه لقواعده الشيعيّة، وهو المعصوم المفترض الطاعة الحيّ منذ ولادته إلى زمان ظهوره.

وحَسْبُ الفرد المسلم أن يعلم أنّ إمامه وقائده مطّلع على أعماله وملمّ بأقواله، وأنّ عمله الصالح وتصعيد درجة إخلاصه وتعميق شعوره بالمسؤوليّة تجاه الإسلام والمسلمين، يشارك في تحقيق شروط الظهور ويقرّب اليوم الموعود.

ب- الانتظار الإيجابيّ

الانتظار هو التوقّع الدائم لتنفيذ الغرض الإلهيّ الكبير وحصول اليوم الموعود الّذي تعيش فيه البشريّة العدل الكامل بقيادة الإمام المهديّ عجل الله فرجه الشريف.

وهذا التوقّع الدائم لا يرفع التكاليف الإلهيّة بالنسبة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله والدفاع عن شعائر الله ودفع الفساد الاجتماعيّ والفرديّ، بل إنّه يدلّ على تأكّد الواجبات والتكاليف ولزوم الاستعداد التامّ للوقوف إلى جنب الإمام المهديّ عجل الله فرجه الشريف في غيبته وظهوره.

وينسجم الانتظار في بعض مستوياته مع الإعداد والتمهيد لظهور الإمام المهديّ المنتظر عجل الله فرجه الشريف القائم بالقسط والعدل، وهو الانتظار الإيجابيّ الّذي أكّدت الروايات أنّه أفضل أعمال أمّة محمّد صلى الله عليه وآله وسلم في عصر الغيبة الكبرى، أمّا الانتظار السلبيّ فهو الجلوس في البيت والقبول بالظلم وعدم الأمر بالمعروف فهذا ممّا لا يمكن أن يكون مقبولاً عند الأئمّة عليهم السلام.

ج- العمل الإسلاميّ قبل الظهور

إنّ الفرد الّذي يهرب بنفسه من الظلم، وهكذا المجتمع الّذي لا يعمل أفراده لرفع الظلم، لن يستطيع الوصول إلى حدّ الوعي والإخلاص المطلوب.كما أنّ الأمّة إذا شاع بين ظهرانيها الظلم والتعسّف، وكانت راضية به مستسلمة تجاهه، لا يوجد فيها عمل ضدّه، ولا تفكير لرفعه، سوف تكون أمّة خائنة غير متحمّلة لمسؤوليّاتها. ولن تكون هذه الأمّة على مستوى إصلاح البشريّة كلّها في اليوم الموعود، وهي قاصرة عن إصلاح مجتمعها الصغير. لهذا فالتفكير الجدّي والعمل الصالح الجهاديّ هو الأساس لتصعيد درجة الإخلاص والشعور بالمسؤوليّة، وذلك هو الشرط الأساس لتكفّل مهمّة اليوم الموعود.

ومن الشبهات الكبيرة أنّ الاعتقاد بالمهديّ عجل الله فرجه الشريف يمنع عن العمل الاجتماعيّ الإصلاحيّ، وأنّ شرط الظهور هو كثرة الظلم وامتلاء الأرض جوراً. وهذا اعتقاد غير صحيح، لأنّ الأرض لو امتلأت تماماً بالظلم وانعدم الإيمان منها لما أمكن إصلاحها عن طريق القيادة العامّة، بل يكون الإصلاح منحصراً بالمعجزة، أو إرسال نبوّة جديدة، وهو خلاف ضرورة الدّين من أنّه لا نبيّ بعد رسول الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم.

٥- الحكم الإسلاميّ في عصر الغيبة:

إنّ معنى الانتظار لغة هو: الترقّب والتوقّع. وعليه فقد يُتوهّم أنّ علينا أن نعيش في فترة الغيبة مترقّبين فقط لليوم الموعود الّذي يبدأه الإمام المنتظر عجل الله فرجه الشريف

بالقضاء على الكفر، وبالقيام بتطبيق الإسلام لنعيش الحياة تحت ظلاله في دِعَة وأمان، دون القيام بمسؤوليّة تحكيم الإسلام في حياتنا بكلّ مجالاتها، وبخاصّة مجالها السياسيّ الآن وقبل الظهور وذلك لإيمان بعض الناس الموهوم بأنّ مسؤوليّة تحكيم الإسلام في كلّ مجالات الحياة هي وظيفة الإمام المنتظر عجّل الله فرجه الشريف، وبالتالي لا يقع تكليف ذلك علينا قبل ظهوره.

إلّا أنّنا متى حاولنا تجلية واقع الأمر بما يرفع أمثال هذه الألوان من التوهّمات، نجد أنّ منشأ هذه المفارقة هو محاولة عدم الفهم، أو سوء الفهم في الواقع.

يقول الشيخ المظفّر رحمه الله: «**وممّا يجدر أن نعرفه في هذا الصدد: ليس معنى انتظار هذا المصلح المنقذ (المهديّ)، أن يقف المسلمون مكتوفي الأيدي فيما يعود إلى الحقّ من دينهم، وما يجب عليهم من نصرته، والجهاد في سبيله، والأخذ بأحكامه، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.**

بل المسلم أبداً مكلّف بالعمل بما أُنزل من الأحكام الشرعيّة، وواجب عليه السعي لمعرفتها على وجهها الصحيح بالطرق الموصلة إليها حقيقة، وواجب عليه أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ما تمكّن من ذلك وبلغت إليه قدرته (كلّكم راع وكلّكم مسؤول عن رعيّته)[1]»[2].

ويقول الصافي الكلبايكانيّ: «**وليُعلم أنّ معنى الانتظار ليس تخلية سبيل الكفّار والأشرار، وتسليم الأمور إليهم، والمراهنة معهم، وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والإقدامات الإصلاحيّة.**

فإنّه كيف يجوز إيكال الأمور إلى الأشرار مع التمكّن من دفعهم عن ذلك، والمراهنة معهم، وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وغيرها من المعاصي الّتي دلّ عليها العقل والنقل وإجماع المسلمين؟

---

(١) بحار الأنوار، م.س، ٧٢/٣٩.

(٢) عقائد الإماميّة، الشيخ محمّد رضا المظفّر: ٨٠.

ولم يقل أحد من العلماء وغيرهم بإسقاط التكاليف قبل ظهوره عجل الله فرجه الشريف، ولا يُرى منه عين ولا أثر في الأخبار.

نعم، تدلّ الآيات والأحاديث الكثيرة على خلاف ذلك، بل تدلّ على تأكّد الواجبات والتكاليف والترغيب إلى مزيد الاهتمام في العمل بالوظائف الدينيّة كلّها في عصر الغيبة.

فهذا توهّم لا يتوهّمه إلّا من لم يكن له قليل من البصيرة والعلم بالأحاديث والروايات»[1].

إنّ الّذي يُستفاد من الروايات في هذا المجال، هو أنّ المراد من الانتظار هو: **وجوب التمهيد والتوطئة لظهور الإمام المنتظر** عليه السلام، ويدلّ على ذلك ما يلي:

١. ما روي عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: «**يخرج رجل يوطّئ (أو قال: يمكّن) لآل محمّد، كما مكّنت قريش لرسول الله** صلى الله عليه وآله وسلم**، وجب على كلّ مؤمن نصره (أو قال: إجابته)...**»[2].

٢. ما روي عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أيضاً: «**يخرج ناس من المشرق فيوطّئون للمهديّ**»[3].

٣. ما روي عنه صلى الله عليه وآله وسلم أيضاً: «**يأتي قوم من قِبَل المشرق، ومعهم رايات سود، فيسألون الخير فلا يعطَونه، فيقاتلون فيُنصرون، فيعطون ما سألوه، فلا يقبلونه حتّى يدفعوها إلى رجل من أهل بيتي، فيملأها قسطاً، كما ملأوها جوراً، فمن أدرك ذلك منكم فليأتهم؛ ولو حبواً على الثلج**»[4].

(١) منتخب الأثر في الإمام الثاني عشر عليه السلام، لطف الله الصافي الكلبايكاني:٤٩٩-٥٠٠. مؤسسة الوفاء، بيروت.

(٢) راجع: أعيان الشيعة، م. س: ٢/٥١..

(٣) م.ن.

(٤) الغيبة، النعماني،م.س:١٧٤.

٦- ضرورة الحكم الإسلاميّ في زمن الغيبة

يُعتبر وجوب قيام حكم إسلاميّ في زمن الغيبة من ضروريّات الدِّين الّتي لا تحتاج إلى محاولة إثبات أو تجشّم استدلال.

يقول الفيض الكاشانيّ: «**فوجوب الجهاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتعاون على البرّ والتقوى، والإفتاء، والحكم بين الناس بالحقّ، وإقامة الحدود والتعزيرات، وسائر السياسات الدينيّة، من ضروريّات الدِّين، وهو القطب الأعظم في الدِّين، والمهمّ الّذي ابتعث الله له النبيّين، ولو تُركت لعطّلت النبوّة، واضمحلّت الديانة، وعمّت الفتنة، وفشت الضلالة، وشاعت الجهالة، وخربت البلاد، وهلك العباد، نعوذ بالله من ذلك**»[(١)].

ويقول صاحب الجواهر: «**وبالجملة، فالمسألة من الواضحات الّتي لا تحتاج إلى أدلّة**»[(٢)].

ويقول السيد البروجرديّ: «**اتّفقت الخاصّة والعامّة على أنّه يلزم في محيط الإسلام وجود سائس وزعيم يدير أمور المسلمين، بل هو من ضروريّات الإسلام**»[(٣)].

ولعلّ ما يترتّب على ترك امتثال هذا الوجوب من محاذير شرعيّة، يكفي في لفت النظر إلى ضروريّاته الدينيّة.

وربّما كان أهمّها ما يلي:

١. تعطيل التشريع الإسلاميّ في أهمّ جوانبه - الجانب السياسيّ - وحرمته من الوضوح بمكان؛ نظراً إلى أنّه تشريع عطِّل؛ وإلى ما ينجم عن تعطيله

(١) مفاتيح الشرائع، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
(٢) جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام، كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:٦١٧.
(٣) البدر الزاهر في صلاة الجمعة والمسافر:٥٢.

من ارتكاب المحارم، وانتشار الجرائم، وشيوع الموبقات وأمثالها.

يقول العلّامة الحلّي، في تعطيل الحدود؛ وهي فرع من فروع التشريع السياسيّ: «**إنّ تعطيل الحدود يُفضي إلى: ارتكاب المحارم، وانتشار المفاسد؛ وذلك مطلوب الترك في نظر الشرع**»[١].

ويقول الشهيد الثاني: «**فإنّ إقامة الحدود ضرب من الحكم، وفيه مصلحة كلّيّة، ولطف في ترك المحارم، وحسم لانتشار المفاسد**»[٢].

٢. الخضوع لحكم الكافر. وهو ممّا ينجم عن تعطيل التشريع السياسيّ الإسلاميّ أيضاً، وأُفرد بالذكر هنا نظراً لأهمّيته ولوضوحه. ولأنّه ليس وراء عدم الخضوع للحكم الإسلاميّ ممّن يعيش في بقعة جغرافيّة سياسيّة، إلّا الخضوع للحكم الكافر، لأنّه لا ثالث للإسلام والكفر؛ إذ الحكم حكمان: حكم الله وحكم الجاهليّة.

خلاصة الدرس

- بدأت الغيبة الكبرى بعد وفاة علي بن محمّد السمريّ (٣٢٩هـ) وهي مستمرّة إلى الآن.

- من خصائص الغيبة الكبرى:

أ- انقطاع الناس عن القائد.

ب- انتشار الظلم والجور.

ج- التشكيك في وجود الإمام المهديّ عجّل الله فرجه الشريف.

(١) مختلف الشيعة في أحكام الشريعة، كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

(٢) مسالك الأفهام إلى شرح شرائع الإسلام، كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

- في زمن الغيبة يحتجب الإمام عجل الله فرجه الشريف عن الناس بحيث يراهم ولا يرونه أو يرونه ولا يعرفونه.

- كان هناك العديد من الثورات العلويّة في زمن الغيبة والتي ساهمت في انتشار التشيّع، كما كان للعلماء دور كبير في نشر الإسلام والحفاظ على المسلمين وإقامة حكم الدِّين لا سيّما على يد الإمام الخمينيّ قدس سره في إيران.

- **من تكاليف الأمّة في عصر الغيبة:**

أ ـ الإيمان بالمهديّ عجل الله فرجه الشريف.

ب ـ الانتظار الإيجابيّ.

ج ـ العمل الإسلاميّ قبل الظهور.

- يُعتبر إقامة الحكم الإسلاميّ من ضروريّات الدِّين التي لا تحتاج إلى دليل.



الدرس

السادس والعشرون

دولة الإمام المهديّ عجّل الله فرجه الشريف الخصائص والمميّزات



أهداف الدرس:

١. أن يتعرّف الطالب إلى بعض إجراءات تأسيس دولة العدل الإلهيّ.

٢. أن يتبيّن بعضاً من خصائص دولة العدل.

تمهيد

لا بدّ للإمام المهديّ عجل الله فرجه الشريف من أن يقوم بعدّة خطوات وإجراءات عمليّة وميدانيّة على طريق تأسيس الدولة الإسلاميّة العادلة.

ويقع في أولويّات هذه الخطوات قيامه عجل الله فرجه الشريف حين ظهوره على الملأ باستئصال رموز الكفر والنفاق والانحراف من على وجه الأرض؛ كتمهيد لبسط سلطانه وضمان عدم وجود من يحاول مواجهة هذه الدولة.

وحينما يلجأ عجل الله فرجه الشريف لتأسيس نظام جديد، فإنّ هذا الأمر يفترض إلغاء كلّ الأنظمة والقوانين الحاكمة في المجتمع البشريّ. لذا فإنّنا يمكننا وضع هذا الافتراض العقليّ وهو قضاء الإمام المهديّ عجل الله فرجه الشريف على تلك الأنظمة وإلغاؤها من ساحة الوجود ووضع البديل الصالح عنها.

وهذا ما يتطلّب مواجهة حادّة وقاسية ضدّ كلّ الحكّام الّذين يفرضون سيطرتهم بالقوّة على شعوب العالم وبالخصوص الإسلاميّ، ويكون دور الإمام إزالة هذه الرموز الحاكمة والعمل على توحيد الأمّة الإسلاميّة لتكون في ظلّ الحكومة الإسلاميّة العادلة والواحدة الّتي تنصره فيها كلّ الشعوب الإسلاميّة، لأنّه عجل الله فرجه الشريف يتبنّى الرؤية الإسلاميّة الّتي لا تعترف بتجزئة البشريّة إلى حدود

ودول... بل دولته عالميّة واحدة برئاسة واحدة وقيادة واحدة، ومعه تُزال وتُمحى كلّ الأنظمة والقوانين الدوليّة، ولا توجد بعد ذلك دول متعدّدة. وهذه واحدة من خصائص الدولة المهدويّة...

وفي اعتقادنا إنّ هذا الوضع الجديد سيكون له آثاره الإيجابية على الأمّة وسيفتح لها باب السعادة والرخاء والسلام والعدل بين البشر أجمعين.

من خصائص الدولة المهدويّة

١- **القيادة المعصومة**، فالرئاسة والقيادة العليا في الدولة الّتي لن تكون ملكيّة ولا رئاسيّة ولا دكتاتوريّة، ستكون إماميّة، لأنّ الحاكم الأعلى سيكون هو الإمام المنصوب من قبل الله عزَّ وجلَّ وسيمارس هذا المنصب الإمام المهديّ عجّل الله فرجه الشريف بنفسه، في القيادة العليا، ويوكل قيادة المناطق المختلفة في العالَم إلى أصحابه المخلصين «**حكّام الله في أرضه**».

فشكل وطبيعة الدولة المهدويّة هو نفس شكل وطبيعة الدولة الّتي أسّسها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والّتي يكون في مركزها الأعلى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ومن بعده الأئمّة الخلفاء المعصومون عليهم السلام.

٢- **أنّ التشريع في هذه الدولة لله عزَّ وجلَّ وحده دون سواه**، وليس من خصائص الشعب أو المجالس المنبثقة عنه كما في الدول والأنظمة القائمة في عالمنا المعاصر، كما أنَّ الإمام المعصوم ليس إلّا مبلِّغاً لهذا التشريع ومطبّقاً لأحكامه، وحامياً له.

٣- **إلغاء كلّ التيّارات الفكريّة المنحرفة والضّالّة**، بحيث لا يُسمح في ظلّ الدولة الإسلاميّة المهدويّة لأيّ إنسان أن يتّخذ ما يشاء من الرأي والعقيدة، وأن يتبنّى ما يشاء من المعتقدات والأفكار، وخصوصاً إذا تضمّن اتجاهه ورأيه مخالفة صريحة للأطروحة العادلة الكاملة.

ولا يقتصر الأمر في الدولة المهدويّة على إلغاء التيّارات الفكريّة بل يطال الأمر الأديان والمعتقدات، فلا يبقى فكر ولا معتقد ولا دين إلّا الإسلام.

عن الإمام الكاظم عليه السلام قال في تفسير قوله عزَّ وجلَّ: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾[1]: «**يُظْهِرُهُ على جميع الأديان عند قيام القائم** عجل الله فرجه الشريف»[2].

٤- **القضاء على مظاهر الفساد الأخلاقيّ والاجتماعيّ**، من قبيل منع الغش والربا والتغابن في المعاملات التجارية، ومنع تبذّل النساء وشرب الخمور.

فمع إرساء الإمام المهديّ عجل الله فرجه الشريف لدولته تطوى صفحة المنكر وتفتح للإنسانية معالم صفحة الأمر بالمعروف وتجسيده في المجتمع.

٥- **شمول دولته** عجل الله فرجه الشريف **كلّ العالَم**، فالوعد الإلهيّ للبشريّة بتطبيق العدل لا بدّ وأن يكون شاملاً لكلّ الناس، فلا تُحرم منه فئة وتنعم به فئة أخرى.

ورد عن أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾[3] قال عليه السلام: «**المهديّ وأصحابه يملّكهم الله مشارق الأرض ومغاربها، ويظهر الدِّين. ويميت الله عزَّ وجلَّ به وبأصحابه البدع والباطل كما أمات السفهةُ الحقّ، لا يُرى أثر من الظلم، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ولله عاقبة الأمور**»[4].

وتشير بعض الأحاديث إلى أنّ دولة الإمام المهديّ عجل الله فرجه الشريف الّتي سيقيمها ستكون أعظم من الدولة الّتي أقامها النبيّ سليمان وذو القرنين. عن الإمام عليّ عليه السلام: «إنّ

(١) سورة التوبة، الآية: ٣٣.

(٢) الكافي،م.س:١/٤٣٢.

(٣) سورة الحج، الآية: ٤١.

(٤) منتخب الأثر، م. س: ٤٧٥.

ملكنا أعظم من مُلْك سليمان بن داود، وسُلطاننا أعظم من سلطانه»[١].

وتضافرت الأحاديث عن النبيّ ﷺ وأوصيائه عليهم السلام أنّ الإمام المنتظر عجّل الله فرجه الشريف يملك الدنيا بأسرها وتدين لإمامته جميع شعوب العالَم وأمم الأرض.

٦- **التأييد الإلهيّ المطلق والدعم الكامل لها**، لأنّ اللّه سبحانه وتعالى وعد في كتابه الكريم بالوقوف إلى جانب الحقّ والعدل أينما وجد، وفي كلّ زمان ومكان، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[٢].

وعن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: «**إنّ الملائكة الّذين نصروا محمّداً ﷺ يوم بدر في الأرض ما صعدوا بعد، ولا يصعدون حتّى ينصروا صاحب هذا الأمر، وهم خمسة آلاف**»[٣].

ودولة الإمام المهديّ عجّل الله فرجه الشريف الّتي ستقوم في آخر الزمان هي واحدة من أبرز مصاديق العدل ونصرة الدِّين الإلهيّ، فلا شكّ بأنّها ستحظى بتأييد اللّه ودعمه.

٧- **تكامل الوعي البشريّ**، فلا يعود هناك مجال لقوى الاستكبار في أن تتحكّم في عقول البشر وتسير بهم وفق إرادتها وتسخيرهم لمصالحها.

فمن خلال دولة الإمام المهديّ عجّل الله فرجه الشريف ينتشر الوعي وتتفتّح الأذهان والعقول، وتتوحّد الرؤية والنظرة إلى القضايا بمجملها.

روى عن الإمام الباقر عليه السلام قال:

«**إذا قام قائمُنا وضع اللّه يده على رؤوس العباد، فجمع بها عقولهم، وكَمُلت به أحلامهم**»[٤].

(١) بحار الأنوار، م.س:٢٧/٣٠٦.
(٢) سورة محمد، الآية: ٧.
(٣) بحار الأنوار، م. س: ١٩/٢٨٤/باب ٢٦.
(٤) الكافي، م. س: ١/٢٥/ح ٢١.

٨- **تطوّر الحياة في عصره**، فإنّ وسائل الحياة الاجتماعيّة الّتي يستخدمها البشــر في عصرنا الحاضر قد تتغيّر وتختلف في دولة الإمام المهديّ عجّل الله فرجه الشريف الّتــي سخّر الله لها ولقائدها وأصحابه الدنيــا بما فيها؛ بحيث تُسهَّل لهم إدارة شؤون الدولة ولو بواسطة القضايا الإعجازية الّتي يوفّرها الله لهم.

والتطــوّر في الدولــة المهدويّة يشمل جميع العلوم في شتّــى الميادين العلميّة والتكنولوجيّــة، ولعلّ الدليل الأهمّ على ذلك هو مقدار العلم الّذي يُخرجه الإمام المهديّ عجّل الله فرجه الشريف.

فعن مقدار العلم يروي أبان عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «**العلم سبعة وعشــرون جــزءاً، فجميــع ما جاءت به الرســل جُــزءان، فلم يعــرف الناس حتّى اليوم غير الجزئين، فإذا قام القائم أخرج الخمسة والعشرين جزءاً، فبثّها في الناس وضمّ إليها الجزئين، حتّى يبثّها سبعة وعشرين جزءاً**»[١].

وممّا يُشير إلى انتشار الثقافة والمعرفة، ما روي عن الباقر عليه السلام: «**وتؤتون الحكمــة فــي زمانــه حتّى أنّ المرأة لتقضــي فــي بيتها بكتاب الله تعالى وســنّة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم**»[٢].

٩- **تســخير قوى الطبيعية للدولة المهدويّة وقياداتها**، وهذا أيضاً نوع من التأييــد الإلهــيّ لها، ومظهر من مظاهر تجلّياته، ونتــاج طبيعيّ له، وذلك مــن أجل توفيــر كلّ العوامل الّتــي تساعد هذه الدولة علــى تثبيت أركانها وتقوية دعائمها وبسط نفوذها وسيطرتها على المقدّرات الطبيعيّة.

عــن الإمام الصادق عليه السلام قــال: «**إذا تناهت الأمور إلى صــاحب هذا الأمر، رفــع الله تبــارك وتعالــى له كلّ منخفض مــن الأرض، وخفض لــه كلّ مرتفع،**

(١) البحار، م. س: ٢٥/٢٣٦/باب ٢٧/ح ٧٣.

(٢) الغيبة، النعماني، م. س: ٢٤٥.

حتّى تكون الدنيا عنده بمنزلة راحته، فأيُّكم لو كانت في راحته شعرةٌ لم يُبصرها»[1].

١٠- إحياء الدِّين وبعث الإسلام من جديد وتعميمه على العالَم، لذلك نقرأ في دعاء الندبة: «**أين محيي معالم الدِّين وأهله**»، فالإمام عجّل الله فرجه الشريف سيُحيي هذا الدِّين بعد أن مات في قلوب العباد، دينُ ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾[2]، دينُ ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ﴾[3]، دينُ ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ﴾[4]، دينُ المستضعفين والمظلومين الّذين وعدهم الله بوراثة هذه الأرض، يقول تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ﴾[5].

وهذا المعنى هو ما أشارت إليه الآية الكريمة:

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾[6].

حيث ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام في تفسيرها: «**أَظْهَرَ ذلك بعدُ؟ كلّا والّذي نفسي بيده، حتّى لا تبقى قرية إلّا ونودي فيها بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله بُكْرةً وعشيّا**»[7].

فالهدف الإلهيّ من إقامة مشروع الدولة العادلة على يد الإمام المهديّ عجّل الله فرجه الشريف

(١) البحار، م. س: ٥٢/٢٣٦.
(٢) سورة الحجّ، الآية: ٤١.
(٣) سورة آل عمران،الآية: ١٥٩.
(٤) سورة القلم، الآية:٤.
(٥) سورة القصص، الآية:٥.
(٦) سورة التوبة، الآية: ٣٣.
(٧) المحجّة فيما نزل بالقائم الحجّة، م. س: ٨٦.

هو كما روي عن الصادق عليه السلام: «... **ويَبْلُغَنَّ دينُ محمّد صلى الله عليه وآله وسلم ما بلغ الليلُ حتّى لا يكون شركٌ على وجه الأرض...**»[1].

ولتصبح الأرض صافية نقيّة من الكفر والنفاق كسبيكة الفضّة النقيّة من الشوائب.

وروي عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «**إذا قام القائم عجل الله فرجه الشريف دعا الناس إلى الإسلام جديداً، وهداهم إلى أمرٍ قد دُثِر فضَلَّ عنه الجمهور، وإنّما سُمّي القائم مهديّاً لأنّه يهدي إلى أمرٍ مضلول عنه، وسُمّي بالقائم لقيامه بالحقّ**»[2].

وتُشير الروايات بشكل واضح وجلي إلى أنّ الإمام المهديّ عجل الله فرجه الشريف لن يأتي بدين جديد غير الإسلام والشريعة الّتي بشّر بها النبيّ محمّد صلى الله عليه وآله وسلم. ولقد حاول أعداء الإسلام والتشيّع الافتراء عليهم بأنّهم يقولون ويدّعون إنّ الإمام المهديّ عجل الله فرجه الشريف سوف يأتي بدين هو غير الإسلام.

والجواب على هؤلاء أنّ ما هو مذكور في روايات أهل البيت عليهم السلام هو أنّ الإمام يأتي بالإسلام الّذي دُثر وترك، ويكون على يديه إحياؤه وإحياء قيمِهِ بعد محاولة بعض الناس تشويه صورته وإبعاده عن حياة الناس.

١١- **الرفاهيّة والرخاء في ظلّ الدولة المهدويّة**، لأنّ عصر الإمام المهديّ عجل الله فرجه الشريف هو ذلك العصر الّذي يصل فيه المجتمع الإنسانيّ إلى مجتمع الغنى وعدم الحاجة، وتُمحى منه الطبقات الاجتماعيّة، ولا يعود الناس بحاجة إلى السؤال نظراً للتوزيع العادل للثروات.

وقد ورد في الأحاديث الشريفة مجموعة كبيرة من الروايات الّتي تبيّن مدى

(١) بحار الأنوار، م.س: ٥١/٥٥.
(٢) الإرشاد، م.س: ٢/٣٨٣.

النعيـم الّذي تحصل عليه الأمّة في عصر الظهور وما يكون فيه من رخاء ووفرة في المال وسعة في الحال.

فعـن رسول الله ﷺ أنّه قال: «**تصـدّقوا، فيوشـك الرجل يمشـي بصـدقته فيقـول الّـذي أُعطيهـا: لو جئت بهـا بالأمس قبلتهـا وأمّا الآن فـلا حاجة لي فيها، فلا يجد من يقبلها**»[1].

وعنه ﷺ أنّه قال: «**يخرج المهديّ في أمّتي خمسـاً أو سـبعاً أو تسـعاً، فقيل له: أيّ شـيء؟ قال: سـنين، ثمّ قال: يُرسِـلُ السـماء عليهم مدراراً، ولا تَدَّخِرُ الأرض من نباتها شيئاً، ويكون المال كدوساً، قال: يجيء الرجل إليه، فيقول: يا مهديّ أعطني أعطني، قال: فيحثي له في ثوبه ما استطاع أن يحمل**»[2].

وعنه ﷺ أنّه قال: «**تقيء الأرض أفلاذ كبدها، أمثَالَ الأسطوان من الذهب والفضّـة، فيجـيءُ القاتل فيقول: فـي هذا قتلْتُ، ويجـيءُ القاطع فيقول: في هـذا قطعتُ رحمي، ويجيءُ السـارق فيقول: في هـذا قطعت يدي، ثمّ يدَعونه فلا يأخذون منه شيئاً**»[3].

١٢- **أنّهـا دولـة القضـاء والحكم العادل بيـن أفراد المجتمـع**، فلا ظلم ولا جور ولا حيف فيها، ولن يكون فيها مظلوميّة لأحد.

فالإمام المهديّ عجّل الله فرجه خليفة الله في الأرض، ووارث النبيّين، والداعي إلى سبيل الحـقّ والقائم بالقسط ومُجلي الظُّلمة ومنير الحقّ، والناطق بالحكمة والصدق، الّذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما مُلئت ظُلماً وجوراً. ينتظره الناس لإزالة الهمّ وكشف الكرب والبلوى.

---

(١) معجم أحاديث الإمام المهديّ عجّل الله فرجه، الشيخ علي الكوراني:١/٢٣٦ ـ ٢٤٤، ح ١٤٤ ـ ١٥٠.

(٢) م.ن.

(٣) م.ن:١/٢٣٠، ح١٤٢.

فعلى يديه ستتحقّق دولة العدل الإلهيّ في آخر الزمان ليعيش الناس بأمان واطمئنان لما يرونه ويتذوّقونه من طعم الإيمان وحلاوة العدل الّذي يحقّقه الإمام عجل الله فرجه الشريف.

ولهذا أشارت الروايات والأخبار إلى معالم الزمن المهدويّ وما يتمّ على يد الإمام المهديّ عجل الله فرجه الشريف من إنجازات على مستوى تحقيق الرفاهيّة والعدل للبشريّة.

عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام قال: «... **وتُخرج له الأرض. أي للمهديّ عجل الله فرجه الشريف. أفاليذ كبدها وتلقي إليه سلما مقاليدها، فيريكم كيف عدل السيرة ويحيي ميت الكتاب والسنّة**»[1].

خلاصة الدرس

- من أولى إجراءات الإمام عجل الله فرجه الشريف بعد ظهوره استئصال رموز الكفر.
- **من خصائص الدولة المهدويّة:** القيادة المعصومة، التشريع الإلهيّ، إلغاء التيّارات المنحرفة، القضاء على مظاهر الفساد، الدولة الشاملة لكلّ العالم، التأييد الإلهيّ المطلق، تكامل الوعي، تطوّر الحياة، تسخير القوى الطبيعيّة، إحياء الدِّين، الرفاهيّة والرخاء، دولة الحكم العادل.

(١) المهديّ الموعود المنتظر عند علماء أهل السنة والإمامية، نجم الدِّين العسكريّ: ٢٨٨. مؤسسة الإمام المهديّ عجل الله فرجه الشريف، طهران.



الدرس

السابع والعشرون

الموطّئون والأصحاب والأنصار



أهداف الدرس:

١. أن يتبيّن الطالب سبباً من أسباب غيبة الإمام عجّل الله فرجه الشريف.

٢. أن يميّز بين الموطّئين والأصحاب والأنصار.

٣. أن يعدّد صفاتهم.

تمهيد

لم تكن غيبة صاحب العصر والزمان عجل الله فرجه الشريف إلّا لحكمةٍ اقتضتها مشيئة اللّه تعالى. فهذا الإمام الّذي سينهض في آخر الزمان ويحمل معه لواء التغيير ليملأ الأرض قسطاً وعدلاً سيكون وبلا أدنى شكّ مؤيّداً ومسدَّداً من قبل اللّه تعالى.

وإنّ واحدة من أهمّ ما يمكن اعتباره كتعبير وتفسير لعملية الغيبة والاحتجاب وعدم الظهور هي تهيئة السُبُل لتحقيق وإنجاز الوعد الإلهيّ على يديه، وهذا إنّما يتمّ بعد التمحيص الّذي يختبر اللّه تعالى به عباده الصالحين ليستخلص من بينهم أفراداً هم قادة جيش الإمام عجل الله فرجه الشريف والموطّئون لظهوره ولسلطانه، ومن يكون معه وبين يديه من الأصحاب والأنصار والأعوان، وهم نواة الجيش العقائديّ والإيمانيّ الّذي به يقود الإمام المهديّ عجل الله فرجه الشريف ثورته على الظلم. وقد تعرّضت الروايات لثلاث فئات من المجموعات الأساس التي لها علاقة بتحقيق الوعد الإلهيّ والانتصار العظيم وهم:

١. **الموطّئون. ٢. الأصحاب. ٣. الأنصار.**

ونحن فيما يلي نتحدّث عنهم وفقاً لما ورد في الروايات الشريفة.

١- جيلُ أو جيش الموطّئين

والمـراد بهـم الجيل الّذي يُعدُّ الأرض والمجتمع لظهـور الإمام المهديّ عجل الله فرجه الشريف، وثورته الكونيّة الشاملة، وهذا الجيل بطبيعته يسبق ظهور الإمام عجل الله فرجه الشريف، وقد حدّدت النصوص الشريفة الأماكن والأقاليم الّتي يوجد فيها هؤلاء، وأهمّها:

أ. الموطّئـون فـي المشـرق: عـن النبـيّ صلى الله عليه وآله وسلم أنّـه قـال: **«إنّـا أهـل بيت اختـار الله لنـا الآخـرة علـى الدنيـا، وإنّـه سـيلقى أهـل بيتـي مـن بعـدي تطريـداً وتشـريداً فـي البـلاد حتّـى ترتفـع راياتٌ سـودٌ في المشـرق، فيسـألون الحقّ فلا يُعطونه، ثمّ يسـألونه فـلا يُعطونه، ثـمّ يسـألونه فلا يُعطونـه، فيقاتلون، فيُنصـرون، فمن أدركه منكم ومن أعقابكم فليأت إمام أهل بيتي ولو حبواً على الثلج فإنّها رايات هـدى...»**[١].

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال: **«كأنّي بقومٍ قد خرجوا بالمشـرق يطلبون الحقّ فلا يعطونه ثمّ يطلبونه، فإذا رأوا ذلك وضـعوا سـيوفهم على عواتقهم فيعطون ما شـاؤوا فلا يقبلونه، حتّى يقوموا ولا يدفعونها إلّا إلى صـاحبكم (أي الإمام المهديّ عجل الله فرجه الشريف) قتلاهم شهداء»**[٢].

ب. الموطّئـون من خراسـان: عن الإمـام أمير المؤمنين عليه السلام قال: **«ثمّ تخرج راية من خراسـان يهزمون أصحاب السفيانيّ حتّى تنزل ببيت المقدس توطّئ للمهديّ سلطانه»**[٣].

ج. الموطّئـون مـن قمّ والـريّ: روى المجلسيّ في البحار: **«رجل من أهل قـمّ يدعـو الناس إلـى الحقّ، يجتمع معه قوم قلوبهـم كزبر الحديد،**

---

(١) مستدرك الصحيحين، الحاكم النيشابوري: ح٤٤٦٤.

(٢) بحار الأنوار، م.س: ٥٢/٢٤٣.

(٣) راجع: م.ن: ٥٢/٢٣٢ وما بعدها.

لا تزلّهم الرياح العواصف، ولا يملّون من الحرب ولا يجبنون وعلى الله يتوكّلون والعاقبة للمتّقين»[1].

د. **الموطّئون من اليمن:** عن الإمام الباقر عليه السلام في قيادة اليمانيّ قبل ظهور الإمام عجل الله فرجه الشريف: «**وليس في الرايات أهدى من راية اليمانيّ، هي راية هدى لأنّه يدعو إلى صاحبكم**»[2].

تحليل لأوصاف الموطّئين

إنّ أوّل ما يلفت النظر في هذا الجيل هو الصلابة والقوّة، فهو جيل صعب، شديد المراس، يواجه الطواغيت، قلوبهم كزبر الحديد، لا تزلّهم الرياح العواصف.

والأمر الثاني هو أنّه جيل التحدّي للنظام العالميّ والقوى الكبرى، يزعزع استقرار وهيبة هذه القوى «**لا يملّون من الحرب ولا يجبنون...**».

والأمر الثالث هو أنّ هناك ردود فعل كبرى وعالميّة ستخرج غاضبة وساخطة عليهم، لأنّهم عرّضوا المعادلات والموازنات الاستكبّارية لهزّات عنيفة، فقد روى أبان بن تغلب عن الإمام الصادق عليه السلام: «**إذا ظهرت راية الحقّ لعنها أهل الشرق وأهل الغرب، أتدري لِمَ ذلك؟ قلت: لا، قال: للّذي يلقى الناس من أهل بيته قبل ظهوره**»[3].

مشروع التوطئة

توطئة الأرض لنهضة الإمام المهديّ عجل الله فرجه الشريف مهمّة واسعة وكبيرة، ومعقّدة ينهض بها هذا الجيل الرسالي في مواجهة عتاة الأرض وطغاتها المستكبرين وأئمّة

(١) بحار الأنوار، م.س: ٥٧/٢١٦.
(٢) م.ن: ٥٢/٢٣٢.
(٣) م.ن: ٥٢/٦٣.

الكفر... وهؤلاء العتاة يعدّون جميعاً جبهة سياسيّة عريضة، رغم كلّ التناقضات القائمة فيما بينهم، وهي جبهة تملك الكثير من أسباب القوّة من المال والسلطان السياسيّ والجيش والإعلام والعلاقات.

ولا بدّ لهذا الجيل الّذي ينهض بمشروع إعداد الأرض لظهور الإمام من أن يواجه هذه القوّة بالآلية نفسها، وتزيد عليها بالتربية الإيمانيّة والجهاديّة والتوعية السياسيّة، وعليه فإنّ مشروع التوطئة الّذي ينهض به جيل الموطّئين يتكوّن من بُعدين:

الأوّل: التربية الإيمانيّة والجهاديّة والتوعية السياسيّة، وهذا ما تفقده الجبهة المقابلة.

الثاني: الآلية السياسيّة والعسكريّة والاقتصاديّة والإداريّة والإعلاميّة الّتي لا بدّ منها في مثل هذه المعركة.

وليس من شكّ في أنّ الفئة المؤمنة الّتي تُعدُّ الأرض لظهور الإمام عجّل الله فرجه الشريف لا بدّ لها من إعداد هذه القوّة.

الأصحاب والأنصار

من الواضح أنّ جيل الموطّئين يسبق جيل الأصحاب والأنصار، وأفراد هذا الجيل هم تلامذة الجيل السابق.

والأصحاب: هم الثلاثمائة والثلاثة عشر، وهم الّذين عبّر عنهم الإمام أمير المؤمنين والإمام الصادق عليهما السلام بقولهما: «**هم أصحاب الألوية**». إشارة إلى توفّر المؤهّلات فيهم لقيادة الجيوش والعساكر، وفي التعبير الروائي: «**وهم حكّام الله في أرضه**».

وسيكون لكلّ واحدٍ من هؤلاء الأصحاب دور كبير في قيادة الجيوش وفتح البلاد وإدارة الأمور وغير ذلك.

والأنصار: هم المؤمنون الصالحون والمجاهدون الّذين يلتحقون بالإمام المهديّ عجل الله فرجه الشريف في مكّة وغيرها (بعد الظهور)، وينضوون تحت لوائه، ويحاربون أعداء اللّه ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

وفي الروايات أنّ الإمام المهديّ عجل الله فرجه الشريف لا يخرج من مكّة إلّا ومعه عشرة آلاف رجل من الأنصار. وهذا العدد هو بعض الأنصار أيضاً لا كلّهم، ولهذا فإنّ السيِّد الهاشميّ - مثلاً - يلتحق بالإمام المهديّ عجل الله فرجه الشريف في العراق، ومعه اثنا عشر ألف رجل.

كلُّ هذا عدا أنصار الإمام المهديّ عجل الله فرجه الشريف من الملائكة، الّذين يمتثلون أوامره وتعليماته.

وقد ورد في الروايات والأدعية والزيارات المرويّة عن الأئمّة الطاهرين عليهم السلام أن يسأل الإنسان ربّه أن يجعله من أنصار الإمام المهديّ وأعوانه والمجاهدين بين يديه، وفيما يلي نذكر بعض النماذج منها:

1. **«وأسأل اللّه البرّ الرحيم أن يرزقني مودّتكم، وأن يوفّقني للطلب بثأركم مع الإمام المنتظر الهادي من آل محمّد...»**[1].
2. **«... وأن يرزقني طلب ثاري مع إمام هدى (مهدي) ظاهر ناطق بالحقّ منكم...»**[2].
3. **«... واجعلني اللّهم من أنصاره وأعوانه وأتباعه وشيعته...»**[3].

أهميّة الأصحاب والأنصار

تظهر أهميّة أصحاب الإمام المهديّ عجل الله فرجه الشريف لنا من خلال مسألتين:

الأولى: من ناحية الدور والمسؤوليّة والأهداف الّتي من أجلها يخرجون مع الإمام.

(1) مفاتيح الجنان: راجع زيارة عاشوراء غير المشهورة.
(2) م.ن: زيارة عاشوراء.
(3) م.ن: الزيارة مروية عن الإمام المهديّ عجل الله فرجه الشريف.

الثانية: من خلال ما وصفتهم به روايات النبيّ وأهل بيته عليهم السلام.

ونحن ندرك بعمق مدى المسؤوليّة الكبرى الملقاة على عاتق إمامنا المهديّ عجل الله فرجه الشريف، فهو الأمل الموعود والمنتظر، والّذي سيقود الأمّة نحو تحقيق أهدافها وغاياتها في تحقيق حكومة العدل الإلهيّ.

ولكي يحقّق الإمام عجل الله فرجه الشريف هذه الأهداف لا بدّ وأن يكون معه الصفوة المخلصة من الأنصار وهم «**خير فوارس على ظهر الأرض**». وقد مُحِّصوا واختُبروا في الامتحان الإلهيّ لهم.

وسيشارك هؤلاء الأصحاب إمامهم وقائدهم ويكونون تحت إمرته وقيادته، وهم معه: «**أطوع له من الأمَة لسيّدها**»، ويسيرون في ركب قيادته الحكيمة للسيطرة على العالَم كلّه، وإزالة كلّ قوى الشر والفساد والطغيان.

ولهذا مدحتهم الروايات وأثنت عليهم، وأعطتهم مواصفات ومميّزات لم تكن لتُعطى لأحد غيرهم على الإطلاق، ومنها:

١ ـ إيمانهم وعبادتهم

يتمتّع أصحاب الإمام المهديّ عجل الله فرجه الشريف بأعلى درجات الإيمان واليقين بالله عزَّ وجلَّ، ومن صفاتهم كثرة العبادة، والتهجّد بالليل... وليس في قلوبهم من مكان لأحد إلّا الله عزَّ وجلَّ والطاعة والانقياد لقائدهم الإمام المهديّ عجل الله فرجه الشريف:

«**... رهبان بالليل ليوث بالنهار... كأنّ قلوبهم القناديل، وهم من خشية الله مشفقون، يدعون بالشهادة، ويتمنّون أن يقتلوا في سبيل الله...**»[١].

(١) بحار الأنوار، م.س: ١٣/ ١٨٠.

«... **رجال مؤمنون عرفوا الله حقّ معرفته، وهم أنصار المهديّ آخر الزمان...**»[1].

وذكر بعض أوصافهم فقال: «**يبايعه . أي الإمام المهديّ** عجّل الله فرجه الشريف **. العارفون بالله من أهل الحقائق، عن شهود وكشف بتعريف إلهيّ، رجال إلهيّون يقيمون دعوته وينصرونه، هم الوزراء يحملون أثقال الملائكة...**»[2].

٢ ـ علمهم

قال أبو بصير للصادق عليه السلام: جعلت فداك ليس على الأرض يومئذٍ غيرهم؟ فقال عليه السلام: «**بلى ولكن هذه الّتي يُخرج الله فيها القائم، وهم النجباء والقضاة والحكّام والفقهاء في الدِّين، يمسح الله بطونهم وظهورهم فلا يشتبه عليهم حكم**»[3].

وعن ابن مسعود قال: «**يبايع للمهديّ سبعة رجال علماء توجّهوا إلى مكّة من أُفقٍ شتّى على غير ميعاد...**»[4].

٣ ـ طاعتهم

وهي أمر طبيعيّ لمن يحمل صفات الإيمان والتقوى والورع، ويضع نفسه في تصرّف القائد المهديّ عجّل الله فرجه الشريف حين يسلّمون الأمر كلّه له، وينقادون له بشكل مطلق:

«... **هم أطوع له من الأمة لسيّدها، كالمصابيح**»[5].

«**فيصير إليه أنصاره من أطراف الأرض تطوى لهم طيّاً، حتّى يبايعوه**»[6].

(١) منتخب الأثر، م.س: ٢/٤٨٩.
(٢) حياة الإمام المهديّ عجّل الله فرجه الشريف، محمّد باقر القرشي: ٢٨٨، والقائل هو ابن عربي.
(٣) منتخب الأثر، م.س: ٤٩٠/ح٤.
(٤) الحاوي، السيوفي: ٣/١٤٨.
(٥) بحار الأنوار، م.س: ١٣/١٨٠.
(٦) م.ن.

عددهم

روت مصادر الشيعة والسنّة أنّ أصحاب الإمام المهديّ عجل الله فرجه الشريف هم بعدد أصحاب النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في بدر، ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، وما ذلك إلّا للدلالة وإلفات النظر إلى وحدة الهدف والشبه بين بعثة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ونهضة الإمام المهديّ عجل الله فرجه الشريف.

وهذا العدد (٣١٣) إنّما هو عدد الأصحاب، وهذا لا يعني أبداً أنّ جيش الإمام المهديّ عجل الله فرجه الشريف يقتصر على هذا العدد، بل إنّ الروايات دلّت على أنّ الإمام عجل الله فرجه الشريف ينتصر له الآلاف من الأنصار ليكونوا نواة جيش الغضب، جيش الإمام المهديّ عجل الله فرجه الشريف.

ومن الروايات التي تشير إلى عدد الأصحاب، وكيفية التحاقهم بالإمام عليه السلام:

عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «**المفقودون من فرشهم ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً عدّة أهل بدر، فيصبحون بمكّة وهو قول الله عزَّ وجلَّ:** ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ﴾ **وهم أصحاب المهديّ** عجل الله فرجه الشريف»[1].

وعن الإمام الباقر عليه السلام قال: «**... فيكون أوّل خلق الله مبايعة له. أعني جبرئيل. ويبايعه الناس الثلاثمائة وثلاثة عشر**»[2].

ومن الروايات التي تشير إلى جيش الإمام المهديّ عجل الله فرجه الشريف وأنصاره، والذين يفوق عددهم عدد الأصحاب ما روي عن الإمام عليّ عليه السلام قال: «**يخرج المهديّ في إثني عشر ألفاً إن قلّوا، وخمسة عشر ألفاً إن كثروا، ويسير الرعب بين يديه، لا يلقاه عدوّ إلّا هزمهم بإذن الله، شعارهم: أمت أمت، لا يبالون في الله لومة لائم**»[3].

وعن أبي بصير قال: سأل رجل من أهل الكوفة أبا عبد الله عليه السلام: كم يخرج مع القائم عجل الله فرجه الشريف؟ فإنّهم يقولون: إنّه يخرج مثل عدّة أهل بدر ثلاثمائة وثلاثة عشر

(١) منتخب الأثر، م.س: ٤٨٠.

(٢) الغيبة، النعماني، م.س: ١٧٠.

(٣) الحاوي، م.س: ٢/٥٢.

رجــلاً. فقال عليه السلام: «**ما يخـرج إلّا في أولي قـوّة، وما يكون أولو قـوّة أقلّ من عشرة آلاف**»[1].

شعار أصحاب المهديّ عليه السلام:

عن الإمــام الرضا عليه السلام في حديث طويل حول نصــرة الملائكة للمهديّ عجل الله فرجه الشريف قــال: «... **إلـى أن يقـوم القائـم فيكونـون مـن أنصـاره، وشـعارهم يـا لثـارات الحسين**»[2].

خلاصة الدرس

- هناك جيل من البشر مهمّته إعداد الأرض وتمهيد المجتمع لظهور الإمام المهديّ عجل الله فرجه الشريف. وفي الروايات أنّ هؤلاء يوجدون في المشرق، وهم أصحاب الرايات السود، وخراسان، وقم والريّ، واليمن.

ومن مميّزات هذا الجيل التربية الإيمانية والجهادية والسياسية فضلاً عن القدرات الّتي يمتلكونها على المستوى العسكريّ والاقتصاديّ والإداريّ والإعلاميّ.

- وهناك أيضاً جيل الأصحاب والأنصار، وهم الّذين يكونون مع الإمام عجل الله فرجه الشريف عند ظهوره ليقاتلوا بين يديه.

ومـن صفاتهم: الإيمان بالله تعالى، وكثرة التهجّد والعبادة، والعلم، والطاعة للقائد المهديّ عجل الله فرجه الشريف.

- أشارت الروايات إلى عدد الأصحاب وأنهم (٣١٣) رجلاً، كما أنّ الأنصار لا يقلّون عن العشرة آلاف.

- شعار أصحاب المهديّ عجل الله فرجه الشريف: «**يا لثارات الحسين**».

---

(١) إكمال الدين، م.س: ٦٥٤.

(٢) منتخب الأثر، م.س: ٣٠/ح٢٤.